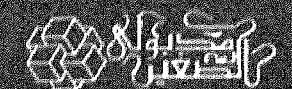
سيد محمود القمني

رب الزمان

ودراسات أخرى







رب الزمـــان

ودراسـات أخـرى

الناشـر : **مكتبة مدبـولى الصغير**

٤٥ شـارع البطـل أحمـد عبد العزيـز

تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ ـ ٣٤٤٢٢٥٠

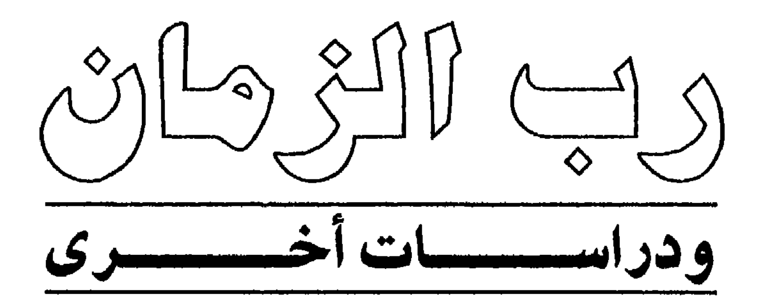
ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥

رقـم الإيـداع : ٩٣٥٠ / ٩٥

الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م

المدير الفنى : محمد الصباغ

سيد محمود القمني



ودراسات أخرى

الناشر: مدبولي الصغير



إهـــداء

صديقى :

أحمد صبرى إبراهيم أغا

كُنْتَ متشدداً فى أمور الدين ، وكثيراً ما كُنْتَ تعترض على منهجى فى تجديد قراءة التراث ، وتتوقع لما أكتب هزيمة منكرة ، لكنك رحلت قبل أن ترى المنهج يصبح مدرسة ، ولو كنت حيا لفرحت من قلبك ، فأنا أعرف الناس بك ، أعرف كيف كنت تحب الله والزهور وأفلام الكارتون ، والنبى وسيدى (أبو العباس) والروايات الكلاسيكية ، أعرف كيف كنت تحب طين مصر وشم النسيم ورياح الخماسين والحديقة اليابانية ، والمتحف المصرى وأم كلثوم وصديقنا التشكيلى (توران) البوذى ، كذلك (بيكار) .

برحيلك أيها الإنسان رحل صديقى الطفل الرائع ، الأبيض الناصع ، الذى آمن بالله صدقا فأحب الأرض والناس ، وعاش من أجل الناس ، طبق الأصل : مصرى حقيقى ممن كنا نعرفهم أيام زمان .

كنت تكره منظر الدماء حتى لو كانت ذبحا حلالا ، وتفرح من قلبك عندما ترى عاشقين ، وتحزن بعمق لخبر عن كارثة أصابت بشراً على الشاطىء الآخر من بحر الظلمات ، ثم كنت تنصت بكل جوارحك لمحدثك رغم أنك كنت تخالفه حتى النخاع، ولم ترد على من لا يعلم إساءته ، لأنك كنت أعلم بقيمة الإنسان .

أخى يا إنسان : اسمح لى أن أقترب منك بهذا الكتاب كتبت نصفه وأنا بمستشفى القلب بين الموت والحياة أحاول به التماس الدفء بالتّماس مع ذكراك حتى آتيك أنيسا ورفيقا .

سيد



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

قارئي..

أيها الصديق الرائع..

بك أمتلىء وأشعر صادقاً أني كثير وقوى.

لقد قَدَّر زماننا أن يفرزنا، فنحن فرز حراك واقع تلك الأيام، لذلك كان حتمياً أن نلتقى هذه الحقبة تحديداً، وهو الفرز المطمئن الذى يدفع إلى التفاؤل، رغم الفرز غير المطمئن على الجانب الآخر، لذلك أوكد لك أنك وراء استمرار هذا المشروع، وبك، وبأصدقائنا - أنا وأنت - من المهمومين بقضايا الأمة والحاضر والمستقبل، الذين يتابعون معك ومعى خطواتنا الثابتة الواثقة، أقول: بكم جميعاً يستمر العمل على دأبه دؤوباً.

أصدقاؤك رفاق تلك السطور، يلتقون بى فى كل موطن، فى الندوة، فى الشارع، فى عواصم عربية متعددة، كثيراً ماتحدثنا، واستمعت بالشغف ذاته لما يطرحونه، لكنهم كانوا جميعاً يحملون لى سؤالك: أين كتاب النبى موسى؟ وماذا تم بشأنه؟ بعدما انصرمت سبع سنوات على الإعلان عن بدء البحث فيه، ولما يظهر بعد؟

نعم أيها الصديق، لقد طالت الشقة، لكنى أصدقك القول: إن العمل لم يتوقف فيه لحظة، إلا عندما سقط الجسد صريعاً منهوك القلب، ورغم الظروف الصحية التى تلابسنى دون رحمة، فقد عدت إلى النبى موسى متابعاً العمل لأوفيك وعداً تواعدناه، ومع تلك المصارحة، يجب إحاطتك علماً أن هناك عدداً من المشاكل لم تحل بعد، ويحتاج كشف آلياتها واكتشاف حلولها بعض الوقت، وبعض الصبر من جانبك.

ومن هنا - وكى أحافظ على حرارة التواصل بينى وبينك - فقد ارتأيت أن أواصلك بكتابين، أولهما هو الجزء الثانى من (حروب دولة الرسول)، والكتاب الذى تحمله بين يديك الآن ويحمل عنوان (رب الزمان).

و(رب الزمان) هو عنوان لواحدة من الدراسات التى تضمها دفتا هذا العمل، حيث يحتوى كتابنا هذا على أقسام ثلاثة: القسم الأول منها مجموعة دراسات يمكن أن تحمل جميعاً عنوان (إسرائيليات) ، لتعاملها مع المنظومة الإسرائيلية وثقافتها وخطابها المعلن، أما القسم الثانى فيضم بعض المعارك الفكرية، ارتأيت أن أجعلها متاحة لك من باب التوثيق ليس إلا ، حيث انتهيت مؤخراً إلى قرار بعد الدخول فى ذلك النوع من المعارك الذى يثيره أصحاب الأدلوجة السلفية، مستفيدين فى ذلك مما آذى رفاقاً لنا كبار، فاكتمال المشروع أو المحاولة المستمرة فى الإضافة إليه، هدف يجب ألا يضيع فى صراعات قد تقبر الأمر كله.

ومادمنا بصدد التوثيق، فقد غامرنا بنشر بعض الدراسات الأولى الابتدائية هنا، وهى من محاولاتنا المبكرة التى لاشك تحمل سمات الحالة الأولية، ونماذج لها دراسة (منذ فجر التاريخ والحج فريضة دينية) ، ودراسة (رب الزمان)، وغيرهما.

ثم قسم ثالث يضم مقالات ودراسات تتضفر مع منهجنا وخطواتنا التى ارتسمناها وتوافقنا عليها منذ البدء.

وغنى عن التنويه، أن بعض ما ستقرأه هنا قد سبق نشره فى دوريات عربية متباينة، وبعضه الآخر لم يسبق نشره، وقد كتبته إبان تواجدى فى جناح القلب بمستشفى الهرم، واعتمدت فى معلوماته على ذاكرتى وحدها، لذلك لن تجد لمثل تلك النماذج هوامش أو مراجع مدونة.

أضع هذا الحشد بين يديك أيها الصديق، من أجل مزيد من التلاحم بيننا، راجياً أن أكون قد عوضتك عن انتظارك - ظهور كتاب (النبى موسى) - بوقت مشحون بالقضايا التى يثيرها هذا الكتاب.

سيد القمنى

الهرم فى ٢٠/١٠/١٩٩٣

إسرائيليات



الرد على خطاب شامير فى مدريد

يعنينا هنا أن نؤكـد، أن كلمة (شامير) التى ألقاها على المؤتمرين بمدريد فى ١٩٩١/١٠/٣١، تشكل نموذجا ـ لا شك ـ مثاليا تماما للخطاب الصهيونى عامة بمنطقه ومحاوره الأساسية، فرغم الظروف التى القيت فيها كلمة إسرائيل، فى ظل ضعف عربى عام وشامل، مهما سار العريان متبخترين، وتحت مظلة من السيطرة الأمريكية شبه الكاملة، ومع الاقتدار الإسرائيلى المتفوق على كافة المستويات، والذى لا يجادل فيه إلا مكابر، فإن كلمة شامير كانت على ذات الخط، وذات الدرجة، وذات القدر، الذى كان الخطاب الصهيونى يراعيه دوما، ودون أن يحيد عنه أنملة. فراعت الكلمة بشكل ذكى وليس جديدا، أنها تلقى فى ظرف عالمى، يتحدث عن نظام جديد، يزعم للدنيا أنه يسعى لإرساء قواعد السلام والأمن والمحبة على الكوكب الأرضى. وإن شاء فرض ذلك فرضا، وبخاصة فى أشد مناطق العالم سخونة، حتى لو ثوى الجمر مؤقتا تحت رماد ظاهرى، تصنعه أنظمة تابعة. كما لم يغب عن بال الخطاب أنه يتحدث إلى العالم كله، وأمام كل الشبكات الإعلامية الدولية. فوضع بحسبانه مشاعر الجماهير العريضة على تنوعها واختلاف توجهاتها، فجاءت صياغة الخطاب واضعة باعتبارها أنها كما لو كانت تخاطب كل فرد على حدة. ومن ثم فإننا نفترض أن الخطاب قد أحاط تماما بكل الاغراض المطلوبة منه، واستخدم كل الممكنات من أساليب متاحة تتناسب مع المقام، وعمد إلى كل طرق الإقناع وعرض قضيته كاملة تامة شاملة مانعة، بهدف كسب أكبر تأييد جماهيرى ممكن، حيث أنه حاصل سلفاً على تأييد النظام الجديد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، واتباعها الأوروبيين. وعليه، فإننا سنتعامل مع كلمة شامير فى مدريد كمعبر صادق عن الخطاب الصهيونى، وسنحاول قراءة طبيعة هذا الخطاب ومكوناته وأغراضه ومناهجه، بعرض سريع قدر ما تسمح به المساحة المتاحة لعرض تلك القراءة.

(*) نشر بتاريخ ١٩٩١/١٢/٢٢ و ١٩٩١/١٢/٣٠، بصحيفة مصر الفتاة.

والمدقق فى الخطاب يمكنه أن يلحظه وهو يتحرك على عدة محاور، ثم ربطها ببعضها فى منظومة شديدة الجودة، ثم تركيبها معا بتقنية ومهارة عالية، فكان المحور الأساسى للحركة جيئة وذهابا. ومركز الحركة، هو التركيز على الاستجابة النفسية للجماهير، فقدم افتراضه المسبق لهذه الجماهير بأنه يخاطب كل واحد منهم كشخص متحضر، بلغ من الحضارة قمتها، وهذا وحده لون من تملق المستمع لكن بحيث يترك فى نفسه أثرا مطلوبا. هو أن الخطاب يتعامل معه بكل احترام، لأنه شخص متحضر حتى لو لم يكن المستمع يستحق هذا الاحترام، أو يحوز تلك الدرجة الحضارية. لكنها على آية حال الطريقة المثلى لجعل المستمع يتجاوب مع كم الاحترام وكم الحضارة المفترض فيه! وهكذا فقد سلم الخطاب للمستمع أنه رجل متحضر، مسالم، ينفر من الحروب، يريد الرفاة لجميع الأمم وكل الشعوب، بلا استثناء، يرفض التعصب بكافة أشكاله، وينفر من الاضطهاد على أسس عرقية أو دينية، بسبب اللون أو الجنس أو العقيدة.

وبإيجاز، فالخطاب يفترض فى المتلقى ليبرالية ملائكية، ومن هنا كان الكسب الأول المطلوب، على المستوى السيكولوجي، هو أن يقول للمتلقى أنت متحضر، ولهذا نحن نحترمك ونثق فى حكمك على ما سنقول، حتى لو كان هذا المتلقى وغدا أمريكيا، استمتع يوما بحرق الأطفال فى ملجأ العامرية فى بغداد، وتعامل مع أزرار طائرته وقنابله وضحاياه، بحسبانها من ألعاب (الآتارى) التليفزيونية. هذا ما كان عن المحور الأساسى (التأثير النفسى) فى طبيعة الخطاب الإسرائيلى، واستثماره أدوات منهجية، أهمها المعانى النظرية البحتة للتحضر، بغض النظر عن كون هذه المعانى حقيقة فعلية أم لا. (وهو ما يذكرنا برئيس دولة عربية يجد غاية لذته فى السخرية من مستمعيه، ومن سلوك أبناء شعبه!).

أما المحور الثانى، الذى ترتبط حركته بحركة المحور الأول، فهو الذى يركز على الجانب الحقوقى!. وهو لا شك أهم أعمدة التعامل بين المتحضرين، ويتم فيه تأكيد الحقوق التاريخية الثابتة لليهود فى أرض فلسطين منذ آلاف السنين. وهنا يتداخل المحور الثالث على نفس الميكانيك، لينقل الأمر الحقوقى المسلم به حضاريا إلى اليد الإلهية، منتقلا بذلك إلى المحور الدينى، فتلك الحقوق قرارات إلهية، وهبة سماوية، واختيار أحكم الحاكمين الذى فضلهم على العالمين (؟!) وهو القرار الذى يؤمن به إلى جانب اليهود، العالم المسيحى الغربى كله، وذلك باحتساب التوراة صاحبة ذلك القرار الحقوقى القدسى، بعهديه (القديم أو التوراة، والعهد

الجديد أو الاناجيل) مع البصمة التأكيدية، والقول التوثيقى على الناموس التوراتى، بلسان المسيح (ما جئت لانقض الناموس. ما جئت لأنقض. بل جئت لأكمل) وهنا، وبسرعة يتم إدخال المحورين الحقوقى والتاريخى، مع المحور الإيمانى الدينى على ميكانيك الحركة المحورية الأساسية (النفسانى) لتتشابك الحلقات التى تؤدى إلى راحة ضمير المؤمن المسيحى الغربى تماما. والمتحضر جدا، إزاء مساهمته بالموافقة على تأمين حياة هؤلاء المؤمنين، لتحقيق كلمة الله الصادقة الثابتة، مع ما يفترض فى المستمع المتحضر من رغبة فى إثبات تحضره، بتأمين كل الحقوق، لكل العقائد والديانات، مهما اختلف معها.

ضمير العالم

ولإحداث الأثر المطلوب من المحور الأساسى (النفسانى) فقد ترك الرجل أثرا طيبا فعلا؛ فكان رقيق الحاشية، عف اللسان، وديع كالحملان، يمد يده إلى جيرانه يستجديهم الصداقة والآمان، رغم أنه الأقدر والأقوى. لكنه من جانب آخر قام يردد (أن الموضوع ليس موضوع أرض، أنه موضوع وجودنا ذاته) فأى لون من التنازل يعنى دمار شعب إسرائيل المسالم(!) وإزالته من الوجود. وذلك فى ضوء المقارنة التى قدمها لتعداد شعب إسرائيل (٤ ملاين)، مع من حولهم من عتاة القتلة المتعطشين للدماء، وعددهم (١٧٠ مليون عربى) مع ضآلة مساحة أرض إسرائيل التى تستدعى الشفقة (٢٧ ألف كم)، وسط محيط عربى شرس يبلغ (٢٤ مليون كم). والحجة على المستوى النفسى، مع تغييب الحقائق الأخرى، تبدو غاية فى الوجاهة. يبدو فيها شعب إسرائيل بطلا للخير يدافع عن وجوده وسط غابة من البشر، مما يستدعى مشاعر الاشمئزاز من العرب الذين يستأسدون على الدولة الوديعة!

وقد عمد الخطاب - بذكاء - إلى استحضار مشاعر أخرى تمتزج مع مشاعر الإشمئزاز، عندما ذكر أن كل عدوان عربى على إسرائيل تم دحره! فتمتزج مع المشاعر الأولى مشاعر الاحتقار أيضا مع الاستهانة والاستخفاف، من شأن أجلاف البوادى، الذين يتحيدون فرصة لا يجيدون حتى صنعها والوصول إليها. رغم ذلك فالرجل يمد يده إلى جيرانه أمام كل العالم ويشرح ماوقع على شعبه من مظالم، وذلك فى قوله: (وللأسف فإن الزعماء العرب الذين كنا نود مصادقتهم، رفضوا الدولة اليهودية فى المنطقة، وادعوا أن أرض إسرائيل هى جزء من الأرض العربية.. وانطلاقا من تحدى الشرعية الدولية، فقد حاولت الدول العربية احتلال وهدم الدولة اليهودية).

وهكذا يختفي الفلسطينيون تماما ويصبح العرب - بلا سبب مفهوم أو واضح - يريدون تدمير إسرائيل المسالمة، التي تسعى لصداقتهم وحسن جيرتهم، لذلك أصبحت المسألة ليست مسألة أرض، إنما مسألة وجود شعب إسرائيل، وسط الحشد العربي الشرير! ومن ثم عمد الخطاب مباشرة إلى الضغط على ضمير العالم، بمأساة الشعب اليهودي، الذي لاقى صنوف الاضطهاد. وأنه قد آن الأوان كي يصحو ضمير العالم، ليرد لهذا الشعب أبسط الحقوق، وهي الأمن. بل ويطلب من اليهود الصفح والمغفرة، (ألسنا عالما يدعي التحضر؟) ومن هنا أخذ يوجه حديثه إلى كل فرد في هذا العالم الخاطيء ويقول: (لقد تمت ملاحقة اليهود عبر التاريخ في كل القارات تقريبا.. وتعرض اليهود للاضطهاد والتعذيب والذبح. وشهد هذا القرن خطة إبادة نفذت على أيدي النظام النازي، وهذه الكارثة والإبادة الجماعية المنقطعة النظير، والتي قضت على ثلث شعبنا، تمت في واقع الأمر، وأمكن تنفيذها، لأن أحدا لم يدافع عنا، فقد كنا بلا وطن، ولكن هذه الكارثة هي التي جعلت المجتمع الدولي يعترف بمطالبنا، القائمة على حقنا في أرض إسرائيل) وهنا تجدنا مضطرين إلى تأجيل تناول المحورين (التاريخي والديني) لنحاول أن نفهم الآن: كيف أمكن للمذابح النازية ضد اليهود، أن تؤدي إلى اعتراف العالم بحق إسرائيل في فلسطين، وقيام الدولة الصهيونية على أرضها؟ ونلاحظ أن الخطاب - بعد تهيئة المستمع نفسيا وعاطفيا - مع إشعال جذوة الضمير الحضاري وعقدة الذنب - ينتقل فورا إلى إعلان أنه رغم ظلم العالم لليهود، فليس لأحد حق الإدعاء بقيام دولة إسرائيل، لأن ضحايا اليهود أيام النازي كانوا الثمن المدفوع سلفا، فقدموا أنفسهم قربانا على مذبح قيام الدولة. هذا بالطبع حق اليهود التاريخي الديني المعلوم في تلك الأرض، وكل ما في الأمر أن العالم ربما نسي تلك الحقيقة بعد طول اغتراب اليهود عن فلسطين، وما حدث من النازي كان فقط عامل الإنعاش للضمير العالمي الخاطيء.

الخطاب الصهيوني بذلك يعمد إلى لون فاضح من التزوير والتلفيق، فرغم أن المذنب هو النازي، فهو لا يذكر أبدا أنه ليس من المقبول حضاريا وحقوقيا وإنسانيا أن يدفع الفلسطينيون وزر الجريمة النازية، والمعلوم أنه في فلسطين تحديداً، وعندما وقع اضطهاد على اليهود كان بداية من جانب الرومان الذين دمروا الهيكل الثاني. وشتتوا اليهود في بقاع الدنيا، لأسباب تاريخية معلومة. أما الاضطهاد الثاني فقد جاء على يد الصليبيين، عندما استولوا على القدس عام ١٠٩٩، وقاموا بحرق اليهود داخل معابدهم، مما أدى إلى هروبهم الجماعي من فلسطين، وهو ما وضح في سقطه لسانية بخطاب شامير عندما قال (إن اليهود كانوا موجودين باستمرار

فى فلسطين باستثناء فترة المملكة الصليبية القصيرة) لكنه بالطبع لم يذكر السبب، كما لم يذكر أن سبب تواجدهم بعد ذلك فى فلسطين، كان نتيجة سماح صلاح الدين لهم بالعودة بعد استعادة العرب لها من يد الصليبيين.

أما إشارة الخطاب إلى أن كل شعوب العالم قد اضطهدت اليهود الذين عاشوا بين ظهرانيهم، فهو أمر يستحق الدهشة والتساؤل؟! لماذا تجمع شعوب مختلفة المواطن، متباينة المشارب والعقائد، على كراهية مواطنين مثلهم، ولكن من ملة اليهود؟! هذه فزورة لا يحلها إلا السيد شامير.

العــلاج النفســى

واللافت للنظر هو تركيز الخطاب الصهيونى الدائم، على الجريمة الهتلرية ضد اليهود، ففى كل (حدوتة) وفى أى مناسبة (وبدون مناسبة) يتكرر ذكر المذبحة النازية لليهود التى اكتست بطابع دينى. بحيث لا يذكر هتلر، إلا وتذكر كراهته للدين اليهودى وأتباعه. وأنه ماذبح هؤلاء إلا لكونهم يهودا! حتى نسى العالم أن ضحايا النازية من غير اليهود قد بلغ ستين مليون إنسان، وأن الضحايا المدنيين فقط وصل عددهم إلى ثلاثة ملايين بولونى، وستة ملايين سلافى، وضاع ذكرهم وسط الضجيج والصخب الصهيونى، والندب والعويل على شهداء البشاعة البشرية من اليهود، والذين اتخذ موتهم طابعا قدسيا، كما لو كانت ضحايا هتلر من اليهود فقط! وأنهم فقط أصحاب حق فى القداسة، وأصحاب حق فى جلد ضمير الدنيا بالسياط، ووسيلة لكسب التأييد المادى والمعنوى. وإذا كانت هذه الجريمة كما يقول خطاب شامير سبب صحوة الضمير العالمى لإقامة دولة إسرائيل، فلا شك أن الخطاب العربى الفاشل، كان وراء خمود ذات الضمير أمام إبادة وتشريد الفلسطينيين! إضافة إلى العوامل الأخرى المتعددة، البعيدة عن موضوعنا هنا بشأن طبيعة الخطاب الصهيونى. لكنها على أية حال توضح لنا لماذا لم تقم دولة إسرائيل على أشلاء المانيا المنهزمة، وقامت فى فلسطين؟

ثم يعمد الخطاب الصهيونى مرة أخرى إلى تشغيل المحور السيكولوجى، فبعد أن يعدد خطايا العالم فى خق شعب الرب المختار! ويضع الضمير العالمى فى حالة أرق، وشعور حاد بالذنب والخطيئة، فإنه يسارع متبرعا بتقديم العلاج النفسى والبلسم الشافى لذلك الضمير المعذب، حتى يكون الجميع ممتنين وشاكرين. فيربط الخطاب بين الاضطهاد النازى وبين

الاشرار العرب الذين يكيدون للدولة الوليدة، ليضع النازى والعرب داخل إطار واحد، فيمتزج الشر العربى بالشر النازى، ويصبح العالم مسئولا تمام المسئولية إزاء الشروع فى الجريمة الجديدة، وأن يمنعها قبل أن تقع، وعلى الإنسانية أن تقوم بواجبها إزاء ما يمكن حدوثه، وهو ما يلقى صداه مع العقيدة المسيحية التى تقبل بفكرة الضحية، مقابل الفداء والخلاص. أو بالنص الإنجيلى الذى يضع مشروعية رفع الخطيئة (بدون دم وسفك دم لا تحصل مغفرة).

والضحية موجودة والحمد لله، وعلى الفلسطينيين أن يقدموا الفداء لخطايا العالم، ويرفعوا الإصر عن ضميره اليقظ، لأن المسيح نفسه، وهو الإله، قد تمت تضحيته على الصليب من أجل راحة ضمير البشرية ورفع الخطيئة عن بنى آدم، فهل الفلسطينيون أحسن من الله؟

وهكذا تجد البشرية الغربية المتحضرة المعذبة، التواقة إلى التكفير عن ذنبها ـ لكن بعيدا عن جلدها ـ خروفا يذبح بدلا منها، لتعود لتلك النفس راحتها، واتزانها وتماسكها، وهو ما أجاد الخطاب الصهيونى صناعته على الدوام، وباقتدار. ومن ثم تبرز إلى جوار طبيعة الخطاب التى تستهدف الجانب النفسى، مع استثمار المعانى النظرية لمفهوم التحضر، التى لابد أن تنفر من الاضطهاد بسبب اللون أو الجنس أو العقيدة، طبيعة أخرى تستثمر البعد الدينى. فاليهود لم يضطهدوا إلا لأنهم يهود، ويصبح من المنطقى ألا يطلبوا التعويض ممن اضطهدوهم بأرض فى أوروبا، لسبب دينى بسيط معلوم، هو أن أوروبا ليست أرض اليهود، أو كما قال موشى ديان لصحيفة لوموند فى ٥/ ١٠/ ٧١ (بما أننا نملك التوراة، وأننا شعب التوراة، فلابد أن نملك أيضا أرض التوراة).

وتتم المغالطة الكبرى بالخلط السريع للأوراق، ولا يبقى مكان فى العالم يصلح لليهود، ومن حق اليهود، وترضى به النفس الأوروبية المعذبة دون أن تخسر أرضا، سوى الوطن اليهودى الذى سلبه الفلسطينيون والأمر مشروع قدسيا بقرار إلهى بالكتاب المقدس المصدق وتلك إرادة الله الذى لا راد لقضائه.

التزوير فى الخطاب

والوقوف مع الترنيمة المعذبة لليهود حول الجريمة النازية، يكشف لنا بعدا آخر بالخطاب الصهيونى، وهى وقفة للتذكير بمجموعة حقائق، تساعد على حل اللغز الذى طرحه السيد شامير، فى قوله أن المذبحة الهتلرية، كانت السبب الحقيقى وراء قيام دولة إسرائيل!!

ربما مازلنا نذكر ما حدث فى بغداد مع بدء الهجرة اليهودية المنظمة إلى إسرائيل، بتخطيط وإشراف الصهاينة، عندما تردد يهود العراق فى قيد أسمائهم بكشوف الهجرة، فلجأت العصبات الصهيونية المسلحة إلى إلقاء القنابل على مراكز التجمع اليهودى لإشعارهم أنهم فى خطر، لدفعهم للهجرة إلى إسرائيل. وهو الحدث الذى تزامن مع حالات أخرى شبيهة فى مواقع أخرى من العالم. كما تزامن مع بداية النشاط الفعلى للصهيونية العالمية. وكان أخطر تلك الأساليب هو ما حدث فى المانيا النازية، فى قضية إنجمان المعروفة. وما كشفت عنه د. حنا أرندت فى كتابها (إنجمان فى القدس)، وأوردت به مجموعة وثائق تثبت وجود تعاون وثيق بين السلطات النازية، وبين المؤسسة الصهيونية فى فلسطين، وأن من بنود ذلك التعاون، أنه كان بإمكان أى يهودى ألمانى أن يهاجر إلى إسرائيل، شريطة أن يحول أمواله إلى بضائع ألمانية. وقد قدم إنجمان مساحات من الأرض للصهاينة، كمعسكرات تجمع لليهود ولتهجيرهم بالإكراه إلى فلسطين.

أما ما حدث ليهود تلك المعسكرات، فهو البشاعات التى كشفت عنها قضية كاستنر، الذى باع يهود تلك المعسكرات للنازى، بالتعاون مع إنجمان، وهى من القضايا التى هزت إسرائيل، وكشفت أن زعماء الصهاينة وقياداتهم، قاموا بتجهيز أغنياء اليهود إلى فلسطين للحصول على الأموال، إضافة للعناصر الفعالة كالعلماء والشباب، بينما تركت فى المعسكرات بقية اليهود من عناصر غير مرغوب فيها، وهو من تمت إبادتهم على يد النازى، بعلم القيادات الصهيونية وتعاونها، لكسب العطف والتأييد العالمى، وهو ما أدى بعد ذلك وبالفعل، إلى قيام دولة إسرائيل.

وبموجب الاتفاق، قام إنجمان بتأمين قطار خاص لحمل المهاجرين من النخبة المختارة الممتازة، ورافقهم بعض النازيين إلى الحدود لضمان سلامتهم، وقد قال كاستنر أن عددهم كان ١٦٨٤ شخصا غادروا إلى إسرائيل، مقابل ٤٧٦,٠٠٠ تمت التضحية بهم فى المجزرة، وهو الأمر الذى يفسر لنا تأكيد شامير على أن تلك المجزرة، كانت السبب وراء قيام إسرائيل.

وقد شهد على تلك المؤامرة الكبرى أحد القلائل الذين تمكنوا من الفرار من معسكر (أوشيتز)، هو (رودلف فربا)، وذلك فى جريدة لندن ديلى هيرالد، عام ١٩٦١، بقوله (نعم أنا يهودى، لكنى أتهم قادة اليهود بأنهم أبشع ممارسى الحروب، فتلك المجموعة كانت على علم مسبق بما سيحدث لإخوانهم فى غرف الغاز النازية، ومن بينهم كاستنر رئيس مجلس يهود

هنغاريا، وقد استقل عدد كبير من يهود هنغاريا الفقراء قطارات النقل طائعين دون مقاومة، لأنهم كانوا قد أخذوا تطمينات من القادة الصهاينة أنهم فى طريقهم إلى الحرية، بينما كانوا يساقون إلى الإعدام). أما جريدة صوت الشعب الإسرائيلية فقد قالت فى عام ١٩٥٥ (إن كل أولئك الاشخاص، الذين ذبح الألمان أقرباءهم فى هنغاريا، يعلمون الآن وبوضوح، أن قيادات الصهاينة هى التى دبرت الجريمة مع النازى).

ولما فاحت الفضيحة، وقدم كاستنر للمحاكمة فى إسرائيل بضغط الرأى العام لكشف الحقائق، عقبت صحيفة يديعوت أحرونوت فى ١٩٥٥ بقولها: (إنه إذا تم تقديم كاستنر للمحاكمة فإن الدولة برمتها ستنهار، سياسيا ووطنيا، نتيجة ما ستكشف عنه تلك المحاكمة)، ولم يمض قليل على بدء المحاكمة، حتى سقط كاستنر صريعا رميا بالرصاص من مجهول، وكشف بعد ذلك أن قاتله هو اكشتاين العميل السرى فى جهاز الموساد.

وكان السؤال هل من المعقول أن تقدم القيادة الصهيونية هذا العدد الهائل من اليهود للذبح؟ يجد إجابته أولا فى قيام الدولة، وثانيا شهادات منها شهادة (موشى شوايفر) مساعد كاستنر الذى قال بهدوء نعم كان يهود هنغاريا عددا كبيرا، لكنهم للأسف لم يكونوا يتمتعون بأى أيديولوجية يهودية.

أما قائد الهاجاناه (فايفل بولكس): فقد التقى بانجمان فى جروبى القاهرة، وأبدى رضاه التام عن سير التعاون اليهودى مع النازى كما هو مرسوم له (انظر مجموعة وثائق التعاون النازى الصهيونى كالتون، استراليا).

لكن السؤال الأكثر منطقية هو إذا كانت الجريمة النازية قد حدثت بالفعل، فلماذا تطوع النازى وسمح للنخبة اليهودية بالهجرة؟ والسؤال وجيه، لكن الوقائع تقول ما يفيدنا بإجابة مقنعة، فلعلنا نذكر أن منظمة الأورجون اليهودية فى فلسطين، قد قامت بإعلان الحرب رسميا ضد حكومة الانتداب البريطانية عام ١٩٤٤. ونظمت نشاطات إرهابية متتالية ضد القوات البريطانية فى فلسطين، وهو ما جاء فى سقطة أخرى بخطاب السيد شامير فى مدريد، فى قوله: (لقد قامت الدولة اليهودية وتكونت، لأن الطائفة اليهودية الصغيرة بفلسطين أيام الانتداب، ثارت على الاحتلال الإمبريالى) ؟! وسقطة السيد شامير هنا فاضحة، ففى الوقت المفترض فيه، أن اليهود يحاربون الالمان، وأنهم ضحية المجازر النازية، كان اليهود فى فلسطين يقومون بشاطات إرهابية ضد بريطانيا (؟!!) الأمر واضح تماما، تؤيده العلاقات غير

الخفية التى قامت بين عصابة (شيترن) اليهودية بفلسطين، وبين إيطاليا الفاشية، وشنت بموجبها عددا من الهجمات الإرهابية على البريطانيين بفلسطين، أما مناحيم بيجن زعيم عصابة الأورجون، فقد وصل لفلسطين كجندى فى الجيش البولونى لمقاتلة النازية، ثم فر من الجندية، ونظم عصابته لقتال البريطانيين وقتل الفلسطينيين.

وهكذا تمت الخطة الصهيونية على ثلاثة محاور: محور يهود أوروبا، ومهمته قتال النازية لكسب تأييد الحلفاء، ومحور ألمانيا للتخلص من نفايات يهودية لا تؤمن باليهودية وحقوقها التاريخية، ليتم بها كسب عطف العالم والضغط على ضميره، فى أشد الظروف العالمية توترا. ومحور ثالث كان فيه صهاينة فلسطين يقدمون للنازى خدماتهم الجليلة، ويقاتلون بريطانيا لصالح دول المحور، تنفيذا للاتفاق غير المعلن.

وهكذا تتكشف لنا أهم جوانب طبيعة الخطاب الصهيونى، وهو التزوير الفاضح، وتهديد ضمير العالم دوما بدم اليهود المسفوك، لأنه إذا كان (بدون دم وسفك دم لا تحصل مغفرة)، فإن ناموس الصهيونية قد أكد (أنه بدون دم وسفك دم لا تقوم لإسرائيل دولة).

الديـــن والعنصـــر

وقد كان مناط احتجاج الخطاب الصهيونى فى مدريد، هو أن (الزعماء العرب الذين كنا نود أن نصادقهم رفضوا الدولة اليهودية فى المنطقة، وادعوا أن أرض إسرائيل هى جزء من الأرض العربية). وهنا تحتشد مجموعة من المغالطات والتلفيقات، فالخطاب لايذكر الأرض باسمها التاريخى الصادق (فلسطين)، إنما يشير إليها بوصفها (أرض إسرائيل)، هو ما يستدعى مجموعة تداعيات تاريخية، مع مداخلات تلفيقية تربط تلك الأرض بشعب واحد فقط، عاش مع مجموعة شعوب أخرى على تلك الأرض على مر العصور التاريخية، لكن بحيث يبدو أنه لم يكن هناك سوى شعب واحد هو الشعب الإسرائيلى.

والخلط مقصود، وينطلق من خلط أساسى فى مفهوم الخطاب الصهيونى وأدلوجته، ما بين مفهوم العرق أو الجنس، وبين مفهوم الدين، بحيث يتداخلان ويصبح العرق دينا، والدين عرقا. كما يسمح بتداخل آخر مع التراث الدينى للمسيحيين، بإجراء التطابق فى الخطاب بمهارة علاقات التطابق الدائرى فى علم المنطق، أو أنظمة التكافؤ الرياضية. فالخطاب يتحدث عن رفض العرب (للدولة اليهودية)، وادعائهم أن (أرض إسرائيل) عربية فتتطابق

هنا الدائرة الكلية لمفهوم (الدين اليهودى)، وتتكافأ مع الدائرة الكلية (لأرض فلسطين). لكن بعد حذف (فلسطين) ووضع (إسرائيل)، لتصبح فلسطين إسرائيل، ويصبح شعبها الوحيد هو الشعب الإسرائيلى، والدين الوحيد الذى تواجد فيها على مر العصور، هو الدين اليهودى وحده دون بقية الأديان.

والمغالطة الثانية تتضح فى إشارته إلى من ناصبوا الدولة الإسرائيلية العداء. هم (الزعماء العرب). المسألة هنا طموحات من الزعامات، مع غزل رقيق للشعوب العربية، فنحن أصدقاء كشعبين، وأهل، وبنو عمومة. المشكلة فقط فى طموحات الزعماء للتوسع.

- أما المغالطة الثالثة فهى إجراء المطابقة السريعة بين مفهوم الدين اليهودى، وبين العنصر أو الجنس الإسرائيلى، الذى عاش كقبيلة ضمن عدد كبير من الشعوب الأخرى - التى ذكرتها التوراة - فى فلسطين، مثل الكنعانيين (الفلسطينيين)، والحيثيين، والعمونيين والأدوميين، والموابيين، والفرزيين، واليبوسيين... إلى آخر القائمة المعروفة. ثم تجرى المطابقة الدائرية مرة أخرى بين اليهودية كدين بعد أن أصبحت جنسا، وبين يهود اليوم المتناثرين بين جنسيات العالم على تفرقها، بحيث يظهر هذا الشتات غير المؤتلف كما لو كان جنسا واحدا، وعرقا بذاته، لمجرد أنهم يدينون بدين واحد هو اليهودى، بحيث تنطلى الاكذوبة الكبرى على جماهير الدنيا، تأسيسا على مدخل منطقى سافر التزوير، وعلى أساس دينى عقائدى، ينهض على أسس أسطورية، خلقت تتابعا عرقيا عنصريا بالكتاب المقدس لشعب إسرائيل القديم، بحيث يبدو يهود اليوم كما لو كانوا ينحدرون عن الآباء التوراتيين الأوائل، إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وربما ساهم فى ابتلاع البعض لتلك الفرية، خاصة المتدينين، هو انعزال أصحاب الديانة اليهودية عن غيرهم فى كل المواطن التى عاشوا فيها، بحيث بدوا كما لو كانوا محافظين تماما على نقاء البذرة الإبراهيمية منذ ألوف السنين فى أصلابهم الطاهرة، وهو افتراض يقوم على التسليم بلون خارق من العفاف الجنسى المنقطع النظير، وهو ما لا تنطق به سيرة بنات اليهود، لا اليوم، ولا حتى فى العصور التوراتية منذ البدء.. وباعتراف الكتاب المقدس ذاته.

وبنظرة سريعة عجلى على إصحاحات الكتاب المقدس يمكنك أن تجده يموج بالصخب الجنسى. ونموذجاً لذلك ما جاء به مع الرجل الأول فى تاريخهم، البطرك إبراهيم، الذى حكى الكتاب عنه.

«فانحدر إبرام إلى مصر... وقال لساراى امرأته إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر.. قولى أنك أختى ليكون لى خير بسببك، وتحيا نفسى من أجلك... فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إبرام خيرا بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وإتن وجمال - سفر التكوين ٢١».

وهكذا نجد البداية لا تبشر بخير، مع هذا الادعاء بالنقاء الجنسى على مر العصور. ولسنا هنا فى مقام الدفاع عن نبى جليل، لكن المتابع للأسفار يجد النبى (إرميا) ينوح على تفشى الزنا بين بنات مملكتى يهودا وإسرائيل، ويقول: «هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل، انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء، وزنت هناك... ولم تخف الخائنة يهودا أختها... ولم تخف الخائنة يهودا أختها، بل مضت وزنت هى أيضا، سفر إرميا ٣٠». «وصهلوا كل واحد على امرأة صاحبة.. إرميا ٥٠»، بل أن الرب يهوه أخذ ينادى نساء شعبه المختار «ارفع ذيلك على وجهك فيرى خزيك، فسقك وصهيلك، ورذالة زناك على الأكام، فى الحقل رأيت مكرهاتك، ويل لك أورشليم، لاتطهرين حتى متى؟ إرميا ١٣». ثم ينادى مملكة يهوذا «زنيت على اسمك وسكبت زناك على كل عابر.. وصنعت لنفسك مرتفعات موشاه وزنيت عليها.. وصنعت لنفسك صور ذكور وزنيت بها... وفرجت رجليك لكل عابر، وأكثر زناك، وزنيت مع جيرانك بنى مصر الغلاظ اللحم الذين منيهم كمنى الحمير، وزدت فى زناك لإغاظتى... وأسلمتك لمرام مبغضاتك بنات الفلسطينيين، اللائى يخجلن من طريقك الرذيلة، اعطيت كل محبيك هداياك ورشيتهم ليأتوك من كل جانب للزنا بك، وصار فيك عكس عادة النساء فى زناك، إذ لم يزن وراءك، بل أنت تعطين أجرة، ولا أجرة تعطى لك، فصرت بالعكس - سفر حزقيال ١٦».

وهذا قليل من كثير. وربما كان شبق بنات صهيون، الذى كان يدفعهن إلى الصهيل عند الوصال (بتعبير الكتاب المقدس)، وإلى صناعة ذكور صناعية لمزيد من الإشباع، ودفع الأجور للرجال، وهو الذى دفع دولة إسرائيل الحالية، إلى وضع قانون لا يعتبر الفرد بموجبه يهوديا، إلا إذا كانت أمه يهودية، ومن ثم أصبح النسب اليهودى للأم لا للأب. ولو طبقنا ذلك القانون على (داود) مؤسس المملكة التوراتية القديمة، وعلى ولده (سليمان) أشهر ملوكهم، فسنجد الأول حفيد لامرأة تدعى (راعوث) لم تكن من بنى إسرائيل جنسا ولا تدين باليهودية. بل كانت موآبية، أما سليمان فقد رزق به أبوه (داود) من امرأة حيثية، لا يهودية ولا إسرائيلية، وطبقا للقانون، فإن كليهما ليس يهوديا ولا إسرائيليا، وإنما فلسطينيان، لأن الأمهات فلسطينيات.

الجانب الحقوقى

أما المغالطة الكبرى فى كلمة السيد شامير فكانت فى قوله إن الزعم بأن أرض إسرائيل أرض عربية مجرد ادعاء، فينتقل الخطاب إلى المحور التاريخى، أو (الحقوقى الدينى التاريخى معا)، ليقول دون أن يرف له جفن: «إننا الشعب الوحيد الذى ظل على أرض إسرائيل بدون توقف لمدة أربعة آلاف عام متصلة،... ونحن الشعب الوحيد الذى كانت أورشليم عاصمته، ونحن الشعب الوحيد الذى توجد أماكنه المقدسة فقط فى أرض إسرائيل». ورغم ما فى مقولة الأربع آلاف سنة من مغالطة تاريخية صارخة، ولا تمت للأمانة بصلة، ولأننا هنا فى مقام قراءة طبيعة الخطاب وليس الرد بالوثائق، فإن الخطاب يريد أن يقول للجماهير ببساطة: إن بنى إسرائيل (متطابقا معهم يهود اليوم) كانوا أصحاب أرض فلسطين من أقدم العصور التاريخية.

وما دام الرجل يتحدث كمؤمن صادق الإيمان، حريص على عقيدته ومحارم دينه. صادق العلاقة بتوراته إلى الحد الذى دفعه إلى ترك المؤتمرين فى مدريد، ليقضى عطلة السبت متهجداً مع بنى جلدته، فلا مشاحة فى أن اختبار صدق الخطاب بالمطابقة مع الكتاب المقدس، يمكن أن يضع طبيعة ذلك الخطاب على محك المصداقية من عدمها.

وبالعودة إلى الكتاب المقدس نجده يحكى لنا أن إبراهيم أرومة اليهود، وأول رجل ذا شأن فى تاريخهم، لم يكن فلسطينيا، إنما جاء فلسطين غريبا من بلد بعيد يدعى (أور الكلدانيين) فى رحلة استغرقت خمسة عشر عاما. وعندما وصل فلسطين مع عائلته الصغيرة، يقول ـ الكتاب المقدس ـ «كان الكنعانيون حينئذ فى الأرض ـ سفر التكوين ١٢»، وأن إبراهيم قد هبط ضيفا على ملك مدينة جرار المدعو أبيمالك، ويصف المقدس تلك الأرض بأنها «أرض الفلسطينين ـ تكوين ٢١»، وأن أبيمالك كان «ملك الفلسطينين ـ تكوين ٢٦»، وعندما قتل أبناء يعقوب حفيد إبراهيم بعض الفلسطينيين بعد حالة زنى مع شقيقتهم، قال لهم يعقوب المعروف باسم إسرائيل «كدرتمانى بتكريهكما إياى عند سكان الأرض الكنعانيين.. وأنا نفر قليل ـ تكوين ٣٤»، وعليه لو سلمنا للرجل الحريص على محارم دينه يوم سبته. بأن الآباء التوراتيين الاوائل كانوا فى فلسطين منذ أربعة آلاف عام، فإن مقدسه يؤكد أنهم دخلوها ضيوفا قليلى العدد على أهلها الكنعانيين (الفلسطينيين) بل كانت، فلسطين عندما وصلوها ممالك ذات حضارة ونظام اجتماعى وسياسى، أما مهجر الأب الأول إبراهيم، وموطنه الأصلى، فقد اثبتنا أنه لا يقع ضمن

المنطقة بكاملها وعلى الاطلاق، وإنما يقع فى جبال أرارات بارمينيا، وذلك فى كتابنا (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول) وقدمنا بسبيل ذلك مجموعة من القرائن والبراهين، التى ستظل صادقة حتى تجد من يرد عليها ويدحضها، بادلة أقوى، وقرائن تثقل كفتها، وحتى الآن لم يحدث ذلك، ولا نظنه بحادث في المستقبل المنظور.

يهــود فلســطين

وإعمالا لما قلناه، فإن طبيعة الخطاب الصهيونى كما هو واضح جلىّ، طبيعة قبلية، لا ترى قبيلة غير قبيلتها، ولا تراثا مقبولا غير تراثها، ولا دينا صحيحا غير دينها، ولا صدقا إلا فى توراتها، وكأن تراث الآخرين غير موجود، لشعوب عديدة عاشت فى فلسطين، كان لها مقومات الشعب والعنصر والدين والحضارة والنظام الاجتماعى والسياسى، قبل قيام مملكة داود بأكثر من ألفى عام.

ولمجرد التذكرة، ومنعاً للإطالة، يكفينا ذكر أن الملك (داود) المؤسس الحقيقى لدولة إسرائيل التوراتية، حوالى ١٠٠٠ قبل الميلاد، أقام دولته مستفيدا من توازن القوى بين القوتين العظميين حينذاك (مصر والرافدين)، فكون جيشا من أهل الأرض الفلسطينيين، وأقام لونا من الائتلاف ووحد القبائل فى وحدة سياسية، وصهر الممالك الصغيرة معا، بل كان حراس (داود) أيضا من الفلسطينيين، كذلك قائد جيشه، وسواء هو أو ابنه (سليمان)، فقد أقاما الدولة على أساس تعدد القوميات، ولم تقم أبدا كدولة ذات جنس واحد ودين واحد، والكتاب المقدس شاهد بذلك، وحتى لو أغفلنا كل ما سبق، وسملنا للخطاب الصهيونى بالصدق التام، فإن مسألة جمع روس وألمان وبلغار وأمريكان وأحباش.. إلخ من مواطنهم، للإقامة فى فلسطين بالحق التاريخى، لمجرد أنهم يهود، يجعل الأمر مزحة بشعة، ستظل وصمة، وربما بصقة فى جبين هذا العصر إلى ما يشاء الله، لأنه بمقارنة شديدة البساطة، سنجد أن الحقوق التاريخية للهنود الحمر فى أمريكا، أوضح من إدعاءات الخطاب الصهيونى فى فلسطين لأن الهنود لم يكونوا أول من استوطن أمريكا منذ فجر التاريخ، بل كانوا الشعب الوحيد فيها.

إن طبيعة الخطاب الصهيونى إذن، تعتمد على عدد هائل من المغالطات والتمريرات، التى تبدو فى ظاهرها صادقة الحقوقية (مع الخلط لمفهوم العنصر بمفهوم العقيدة)، وحتى لا يتيح الخطاب الفرصة لمقارنة يهود اليوم بآباء العصر التوراتى، فإنه يقفز فورا إلى تأكيد «أننا

الشعب الوحيد الذى ظل على أرض إسرائيل بدون توقف نحو أربعة آلاف عام»، لتستمر بالمطابقة بين مفهوم الدين والعنصر، لدعم محور الحق التاريخي، ليظهر الأمر كما لو أن اليهود فقط هم من عاشوا فى فلسطين على مر العصور، أو على الأقل الجماعة الأكثر عددا، لكن السائح اليهودى بنيامين الطليطلى الذى زار القدس عام ١١٧٠ ميلادية، سجل أنه لم يجد فى فلسطين بكاملها سوى ١٤٤٠ يهوديا! كما لم يعثر اليهودى (ناحوم جيروندى) فى زيارته لفلسطين عام ١٢٥٧ إلا على عائلتين يهوديتين. أما الأطرف فعلا أنه حتى هذا القرن نجد الشهادة فى خطاب شامير تقول: «لقد قامت الطائفة اليهودية الصغيرة - ولاحظ الصغيرة - التى كانت تقيم بفلسطين تحت الانتداب، بالثورة على الاستعمار الامبريالى» .

شـــــالوم

وأمام عدسات الإعلام العالمى فى مدريد، لم ينس الرجل الشهم أن يبدى مروءته وأسفه وأساه على الفلسطينيين المشردين، بينما قنابله الجهنمية تدك مخيماتهم فى لبنان، حيث قال بكل تراحم وحنان: «إنه لا يوجد يهودى واحد فى هذا الزمان، يستطيع أن يكون غير مبال بمعاناة الفلسطينيين»، هذا رغم سرده لبشاعات العرب مدمجة ببشاعات النازى ضد اليهود، لكنه رأى من واجبه كرجل متحضر أن يعلن ذلك الأسى والحزن مع ندائه لجيرانه البرابرة حتى يظهروا كسبب فيما حدث للفلسطينيين: «أظهروا استعدادكم لقبول إسرائيل، إن التخاطب أفضل بكثير من سفك الدماء، فالحروب لن تحل قضية فى منطقتنا، لكنها تسببت فى المآسى والمعاناة والقتل والكراهية» - وهكذا فطبيعة الخطاب تشهد العالم: ان العرب يشردون الفلسطينيين بحروبهم، لأنهم يريدون قتلنا لمجرد أننا متدينون، إنهم يريدون أن يقتلوا رجلا يقول: ربى الله.

الخطاب مستمر - كما هو واضح - فى التركيز على المحور النفسى والمشاعر الدينية المسيحية الأوروبية، التى تشهد بالحقوق التاريخية على أساس الشهادة المقدسة بالتوراة، هذا بالطبع مع صورة العربى المعلومة لدى الرجل الأوروبى، منذ تزييف تاريخ الاندلس، والحروب الصليبية، حتى صورة العربى الخليجى فى حانات ومواخير أوروبا .

ومرة أخرى نعود للكتاب المقدس لنرى مدى المصداقية فى الخطاب، وإلى أى حد يتطابق مع المقدس، ومع ما يحدث بالفعل بل بالقول، مسايرة للخطاب المتدين الحريص على محارم الدين، والحريص فى الوقت ذاته على إقناع عقل العالم وضميره بحقوقه التاريخية .

يقول الرب (يهوه) فى شريعته، مفصحا عن طبيعته وهويته، التى لا تلتقى بحال مع طبيعة الخطاب الصهيونى، قدر ما تلتقى مع ما يحدث بالفعل: «الرب رجل حرب - سفر الخروج ١٥»، لذلك كانت شريعة هذا المحارب السماوى تأمر عبيده الاتقياء بالأسلوب الأمثل للتعامل مع شعوب المنطقة، ومن تلك الشرائع إليك المقاطع اللطيفة الآتية:

- احرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار - سفر العدد ١٣ .
- اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة - سفر العدد ٣١ .
- احرقوا حتى بنيهم وبناتهم بالنار - سفر التثنية ١٢ .

أما الخطة المثلى فى أوامر الرب، فهى أن يبدأ شعبه بدعوة الشعوب الأخرى إلى السلام والصلح، أو بالنص:

«حين تقترب من مدينة، استدعها للصلح. فإن أجابتك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك، وأن لم تسالمك بل عملت معك حربا، فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كلها غنيمة تغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا، التى ليست مدن هؤلاء الأمم هنا - تثنية ٢٠»:

هذا عن المدن البعيدة، أما المدن القريبة: «فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف، وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها. تجمع أمتعتها إلى وسطها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها - تثنية١٣».

أما المدن الفلسطينية فلها شأن آخر، إذ يأمر يهوه قائلا: «أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا، فلا تستبق منها نسمة ما - تثنية ٢٠».

ومن هنا، وبمطابقة المقدس، فهو يتطابق تماما مع الفعل الصهيونى، لكنه لا يطابق الخطاب بحال. لكن الفعل بمطابقة المقدس إنما يصبح فعلا مقدسا ويصبح من تلك المقدسات تدمير صور وصيدا ومذابح صبرا وشاتيلا وقبية وكفر قاسم ودير ياسين، ومجازر منظمة الأورجون البيجنية، وسفاحى الوحدة ١٠١ التابعة لأريل شارون، فالأمر مقدس، لذلك هو نبيل وسامى، وباسم رسالة إسرائيل التوراتية يتم التعامل مع عرب اليوم، كما تم التعامل مع الكنعانيين بالأمس فقط تغيرت لغة الخطاب أما الفعل فمقدس، والمقدس خير وأبقى.

العصر السعيد

ثم يختم شامير خطابه وهو يبتسم سعيدا، استطلاعا للعصر السعيد الآتى، عصر الأمان

والسلام لكل الشعوب، الذي تنبأ به أشعيا وردد شامير نبوءته وهو يقول «فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل، ولا ترفع أمه على أمة سيفا، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ـ أشعيا ٢».

هذا فقط ما ذكره الرجل من كتابه المقدس، ليتطابق مع خطاب السلام، كي يبرز التطابق في الخطاب مع العنصر المقدس مع الحق التاريخي، إتباعا لكتاب يأمر بالسلام وينبيء بالسلام، فإشعيا النبي يتحدث عن اليوم الذي سيتم فيه صهر السيوف لتحول إلى محاريث ومناجل، ولا تكون هناك حرب بين الأمم إنما تعاون وسلام وإنتاج ورفاهية، لكن في أي مقام قال إشعيا نبوءته ؟ الخطاب يصمت، وهنا فقط يذكر النبوءة منزوعة من سياقها، ليقدم مقدساته للعالم وهي تدعو للسلام، وبحيث يكون الرجل مستمرا على الدرب، ومكررا لدعوة أبطال العهد القديم من أجل السلام.

ومن المستحب في هذا المقام أن نتأسى برغبة شامير في استدعاء نبوءة إشعيا فنجدها تتحدث عن يوم يثبت فيه دين يهوه وحده في قمة جبل صهيون «وتجري إليه كل الأمم ـ إشعيا ٢»، لكن ذلك لن يكون قبل أن يحدث الآتي لبلدان المنطقة:

(لسوريا) : هو ذا دمشق تزال من بين المدن وتكون رجمة ردم ـ إشعيا ١٧ .

(لمصر) : في ذلك اليوم تكون مصر كالنساء، فترتعد وترتجف من هزة يد رب الجنود، وتكون أرض يهودا رعبا لمصر ـ اشعيا ١٧، ١٩ .

(لجزيرة العرب) بلاد العرب.. من أمام السيوف قد هربوا، يفنى كل مجد قيدار.. لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم ـ اشعيا ٢١ .

(للبنان) وحي من وجهة صور.. ولولي ياسفن ترشيش لأنها خربت.. ولولوا ياسكان الساحل.. ورب الجنود قضى به ليدنس كبرياء كل مجد.. أرضك كالنيل يا بنت ترشيش.. أيتها العذراء المتهتكة بنت صيدون.. ولبنان ليس كافيا للايقاد وحيوانه ليس كافيا للمحرقة ـ اشعيا ٢٣، ٤٠ .

(للعراق) انزلي واجلسي على التراب أيتها العذارء ابنة بابل، اجلسي على الأرض بلا كرسي يا ابنة الكلدانيين، لأنك لا تعودين تدعين ناعمة ومترفة.. تنكشف عورتك وترى معاريك.. اجلسي صامتة وادخلي في الظلام يا ابنة الكادانيين لأنك لا تعودين تدعين سيدة الممالك ـ اشعيا ٤٧ . والآن:

ترى هل حقق الخطاب الصهيوني القديم أغراضه، بفعل أصحاب الخطاب الصهيوني الجديد ؟ سؤال لا يجيب عليه إلا الزعماء العرب المؤتمرين في مدريد.. يحلمون بنبوءة إشعيا بالعصر السعيد.

الدين والتطبيع فى فيلم المهاجر

بينما كنت أجرى جراحة القلب بأمريكا، بدأ عرض فيلم المهاجر، وبدأت أيضا التداعيات حوله. ووصلنى بعض ما كتب حول الفيلم، وفاتنى الكثير، وتابعت القضية حتى انجلى الأمر وتمكنت من مشاهدة الفيلم بعد إعادة عرضه وآثرت التريث قليلا حتى تهدأ العاصفة لتفسح مكانا للعقل. وإبان متابعتى لما تكتبه الصحف السيارة والمجلات، طالعت عدداً من وجهات النظر بعضها كان يهاجم بحجة أن الفيلم عمد إلى تشويه الشخصية المصرية والتاريخ المصرى لصالح الصهيانية! والبعض الآخر كان يهاجم، لأن الفيلم فى رأيه كان دعوة صريحة للتطبيع مع دولة إسرائيل، هذا ناهيك عن المهاجم الأساسى الذى وقف مؤسسيا وراء فرد رفع دعوى ضد الفيلم. باعتباره يجسد شخصية النبى يوسف، وسط أحداث وحوار لا يليق بشخصية النبى. وتأسيسا على هذا الموقف، تأسس موقف آخر على النقيض تماما، وقف إلى جوار المخرج والفيلم بدون تحفظ، منطلقا من حق الفنان فى طرح ما يراه دون أية قيود، وتم إبان ذلك خلط كثير من الأوراق المتناقضة، بحجة أن المسألة هى مستقبل الثقافة فى مصر، وأن المبدعين والمثقفين قد أصبحوا فى مواجهة تيار سلفى شديد الجمود والنصيَّة.

تلفيق لا يليق

وبداية لا يمكن هنا بالطبع أن نلقى بالا إلى الاتجاه الذى أدان الفيلم لمجرد أنه يشخص الأنبياء. كما يجب فى هذا الاطار أن نتجاهل أيضا وتماما ردود المخرج وحوارييه ومؤيديه، الذين أخذوا يؤكدون أن الفيلم لم يقصد تصوير قصة النبى يوسف كما وردت فى القرآن الكريم، إنما دارت أحداث الفيلم على نحو مشابه لقصة ذلك النبى. لتتخذ من عبرة القصة نموذجا وقدوة ومثلا أعلى للشباب، للثبات أمام المغريات الدنيوية والشهوات البهيمية كما ورد فى صحيفة الدفاع. وتجاهلنا هنا لتلك الردود يعمد إلى المصداقية بعيداً عن لعب كل من

(*) نشر بتاريخ ١/٥/١٩٩٥، بصحيفة العربى.

الطرفين لكسب القضية القانونية وقضية الرأى العام بأى أوراق ممكنة حتى لو كانت فاقدة للمصداقية.

ومن ثم سيكون من التلفيق غير اللائق بل ومن الغباء، ألا نرى فى الفيلم قصة الأب الإسرائيلى التوراتى (يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم) التى قدمت بوضوح شديد، مع بعض التحوير الطفيف هنا وهناك لتلافى ما يمكن حدوثه من عواقب إزاء المفاهيم السائدة، ولتلافى ما قد يطرأ من مساءلة قانونية لإيجاد عدد من المخارج الممكنة عندما تبدأ ردود الفعل. ومن نماذج ذلك تقديم عدد إخوة بطل الفيلم (رام)، المفترض أنهم الأسباط إخوة يوسف فى عدد مخالف لما قدمته التوراة، أو مثل تحوير موقف إلقاء يوسف فى بئر (جب) إلى إلقائه فى الحجرة السفلية لسفينة مصرية لكن فتحة الغرفة كانت موحية تماما بالبئر أو الجب، هذا إضافة إلى مخالفة السيناريو والقصة للخاتمة التوراتية، فتتم عودة بطل الفيلم من مصر إلى بلاده البدوية رغم موت بطل القصة التوراتية وتحنيطه ودفنه فى مصر على الطريقة المصرية، حتى يمكن بذلك إيجاد المخرج بالقول: إن الأمر مجرد رؤية فنية تجسد رحلة المخرج وهجرته إلى أمريكا ثم عودته إلى بلاده، وأن الأمر فقط كان استلهاما لبعض المواقف النبوية إزاء المغريات الدنيوية.

وربما جاز للمشتغلين بالنقد الفنى أن يضعوا لنا مصادرة فى شكل مقدمة ثابتة لا تقبل نقاشا، وهى أنه لا يجوز التعامل مع الفيلم إلا بالمعايير الفنية وحدها، فالفيلم فيلم وليس بحثا تاريخيا، أو عملا فقهيا، لكن الحال هنا سيختلف تماما مع فيلم المهاجر لعدد من الأسباب الواضحة والمهمة التى لا يمكن تجاوزها لصالح الموقف الفنى وحده حيث اشتبك الفيلم مع عدد من المسائل شديدة الحساسية وتداخل معها إلى الحد الذى لا يسمح بالوقوف عند أدوات النقد الفنى وحده ومعاييره فى التعامل مع الفيلم وقد جاء اشتباك الفيلم مع غير الفنى على ثلاثة مستويات.

صدمة الذاكـــرة

المستوى الأول هو مستوى الحالى - الآنى - الراهن.. حيث بدأ التطبيع العربى مع الدولة الإسرائيلية يسير حثيثاً مع متغيرات كبرى بالمنطقة، (واختيار قصة يوسف بن يعقوب) تحديدا فى هذا الوقت، وبالصورة التى عولج بها، تحمل أكثر من علامة استفهام حول مقاصد الفيلم

الذى تلامس مع ما يريد، فى نقاط التقاء كاشفة واضحة، فى أكثر من لقطة وأكثر من ترميزة.

فالعجز الجنسي لقائد الجند المصرى يكشف فى وجهه الآخر عن القول المأثور بحاجز نفسى، إضافة إلى أنه يعبر عن عجز القوة والقدرة إزاء الشاب المهاجر القوى المليح وعلاقته بالزوجة الشابة. ثم كانت زراعة الصحراء بوضع يد المصرى فى يد المهاجر الغريب التى تشى ببساطة بنصيحة واضحة: لنضع ايدينا مع بعضها.. نزدهر وننتج ونخضر الصحارى. وهو الأمر الذى لا يمر دون التأكيد عليه فى الحوار، فهذا المزارع المصرى (أوزير) يتعاون مع (رام) المهاجر فى زراعة الصحراء، وعندما يتقدم (رام) ليشكره يجبيه المصرى «كلنا محتاجين لبعض» ؟! أو فى نص آخر بالحوار ينضح بالغرض المفصح فى استهجان (رام/ يوسف) للمصريين الذين لم يقبلوه مواطنا رغم طول إقامته بينهم ويلقى باستنكاره هذا مفصحا عن إجابة السؤال: كيف لا نقبل إسرائيل بيننا بعد جيرتها لنا زمنا؟.

على أية حال هذا مستوى من مستويات الاشتباك مع الراهن، يوعز بأنه ربما تأسس بشكل ذكى وخبيث على نص دينى، بحيث يفضح (يوسف شاهين) بقصد أو بدون قصد مدى التناقض الذى يقع فيه (القوموى العروبى) مع نفسه عندما يؤمن بعقائد تسلم بهذه القصة التى تسفه المصريين تماما وتاريخهم لصالح الإسرائيليين، وتجعل من الإسرائيليين الحكمة كلها والطهارة كلها والعفة كلها وتجعل من المصريين رموزاً للحمق والشهوانية والدنيوية الفجة.

إن الفيلم يضع العقل العروبى أمام تناقضه، فهو يؤمن بأديان تدين تاريخ المنطقة القديم لصالح التاريخ الإسرائيلى بينما يرفع شعارات النضال والتحرير من النهر إلى البحر!! إن الفيلم يصنع هنا ما يمكن تسميته (صدمة الذاكرة) أو صدمة الإيمان لأولئك الذين لم يحاولوا حتى الآن فك الاشتباك بين الدينى والقومى. وإذا كانوا يرفضون التطبيع بظاهر وعيهم فإنهم يؤسسون القومى لديهم على الدينى، والدينى أشد تطبيعا وطراوة مع بنى إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين.

ولا أحد يكابر أن المأثور الإسلامى كمثال كان دوما إلى جانب الإسرائيلى ضد كل حضارات المنطقة فكان مع يوسف بن يعقوب وموسى بن عمران وبقية بنى إسرائيل ضد مصر وحضارتها وشعبها وحكامها، وكان مع شاؤول/ طالوت أول ملك إسرائيلى، ومع داود مؤسس الدولة الإسرائيلية، ضد جالوت/ جوليات البطل الفلسطينى الذى مات وهو يدافع عن

أرضه ضد الاحتلال الإسرائيلي الاستيطاني لبلاده. وكان مع أبيهم إبراهيم أرومة القبيلة العبرية ضد العراق القديم وحضارته ممثلا في شخص ملكها النمرود. وكان مع البدو العبران جميعا ممثلين في جدهم الأسطورى سام بن نوح ضد كل حضارات المنطقة ممثلة في حام بن نوح وأبنائه كنعان الفلسطيني ومصرايم المصرى ونمرود العراقي.

حضارة موت

إن الوسيلة التي استخدمها الفيلم كانت شديدة الذكاء، لكن الغرض والهدف كان إلى جانب إجابة واحدة فقط على السؤال الذى يحتمل إجابات أخرى كثيرة. ومن ثم كان الفيلم يتساءل: إذا كان هذا هو ما نؤمن به فلماذا نتناقض معه؟.. لماذا بصريح العبارة لا نطبع إذن؟ غافلا عن إجابة أخرى أصر عليها كاتب هذا المقال دوما تتمثل في ضرورة فك الاشتباك بين الديني والقومي إذا أردنا الاتساق مع أنفسنا ومع قضيتنا ومع آمالنا الوطنية والقومية.

وهكذا كانت التلميحات والترميزات الواضحة مدعاة للوقوف مع تلميحات أخرى يمكن أن يرى فيها المشاهد العربي بخاصة المصرى في الظرف الراهن لونا من تسفيه الإنسان المصرى صاحب الحضارة التي شاخت في - فيلم شاهين - وأخذت في التهاوى إزاء العبراني الطموح المتوثب للمعرفة والعلم. وعليه جاء الفيلم بتركيزه على القول: إن حضارة المصريين قد تم (تكهينها) وأن مصر قد حبست علومها داخل الجدارن المسحورة للمعابد، وتحولت من حضارة حياة إلى حضارة موت، لا تهتم إلا بالتحنيط وبما بعد الموت. وكانت مشاهد (حرق الزرع) تصويراً لشعب أنعم الله عليه بالنهر والخصب، لكنه كان شعبا همجيا، يحرف آلاف الأفدنة في صراعاته، بينما رام العبراني يكرس حياته ليزرع سنبلة في الصحراء(؟!) أما تركيز الفيلم على الأقزام وإيداعهم أمانة لدى رام، فكان رمية أخرى موجعة للمصرى القزم إزاء العبراني الأمين، هذا ناهيك عن الرمز الواضح في تحويل النهر نحو الصحراء لزراعتها، وكيف أمكن لرام بذلك الفرع الضئيل أن يزرع الصحراء.

وكان على شاهين أن يدرك أن المشاهد العادى لا يعلم أن القزم كان محببا في بيوتات الأرستقراطية المصرية، وكانت تلك البيوتات تستجلبهم من آفريقيا للخدمة البيتية والترويح الفكاهي، حتى جعل المصريون للأقزام إلها هو الإله القزم (بس). ونعم كانت العلوم داخل المعابد، ونعم اهتم المصرى بالتحنيط وبالموت اهتماما عظيما، وكان يمكن أن يمر ذلك

بهدوء، باعتباره تصويراً للحياة المصرية فى الزمن القديم، لكن أن يتم ذلك داخل إطار قصة إسرائيلية تتحدث عن تفوق الإسرائيلى الطموح فى قصتها الأصلية أو فى الفيلم فهو أمر آخر لا يمكن معه افتراض حسن النوايا!.

ومن ثم يلقى الفيلم برؤيته (التطبيعية) فى عمق التاريخ وفى أصول الدين ليجذرها، فيركن بدهاء إلى القصة الدينية التوراتية التى وزرت يوسف خزانة المصريين، ويقدم لنا (رام) مكتشفا لأسلوب تخزين الحبوب فى سنوات الجفاف التى استبدلها بحرق المحاصيل، ليذهب إلى ما هو أبعد من التطبيع. أنه يلمح إلى إدارة المنطقة بالعقل الإسرائيلى المتوثب المتفوق! عندما يسلم قائد الجند لرام جنوده وبلاده وأرضه ليكون أمينا على خزائنها ومستثمرا لها وراعيا!

مرة أخرى نعود إلى أسباب التعامل مع الفيلم على مستويات غير المستوى الفنى وحده، فى اشتباك الفيلم على مستوى ثان مع الدينى والإيمانى، وعندما فعل ذلك خرج من دائرة الفنى وحده، حيث جعل مرجعيته ملكية عامة لجماهير المؤمنين فى الأديان الشرق أوسطية الكبرى الثلاثة، فشخص يوسف بن يعقوب مقدس فى اليهودية باعتباره أحد آباء القبيلة الإسرائيلية الأوائل، وهو مقدس فى المسيحية لذات السبب بحسبان المسيح بدوره من ذات النسل الإسرائيلى المبارك. ثم هو مقدس فى الإسلام لذات السبب، ثم لسبب آخر هو أنه أضاف ليوسف صفة النبوة، وهى ليست ملكية عامة فقط، بل ملكية مقدسة، ومن ثم فقد خرج الفيلم من دائرة الفنى ليخوض فى الدينى، فوضع نفسه فى موقع التعامل معه على هذا الأساس. ليس هذا فقط. بل أن الفيلم اختار لنفسه رؤية دينية دون أخرى، فحدد لنفسه بذلك موقفاً من الروايات الدينية حول يوسف، وهو ما يضعه أمام مسئولية اختياره.

رواية التوراة

والواضح تماماً أن المخرج حتى لا يقع فى مأزق المحاكمات الإسلامية، فقد ركن إلى الرواية التوراتية حول الأب يوسف، بدليل إيراده المنمنمات وتفاصيل لم يذكرها القرآن إطلاقاً، وإنما ذكرت تفصيلاً فى التوراة، وذلك مثل قصة رئيس الشرطة (فوطيفار) الذى اشترى يوسف الموصوف بجمال فاتن، والحب الشديد من (فوطيفار) ليوسف الصبى، ومن ثم لجأت التوراة لتطويش فوطيفار ووصفه بأنه كان خصى فرعون، وهو مالم يذكره القرآن الكريم إطلاقاً.

وكم كـان بإمكان السـيـد شـاهين أن يتـلافى كل مـا حـدث في المحـاكم، لو طلع على المشاهدين بتقرير واضح يقول: «هذه قصة يوسف بن يعقوب، أحد الآباء الإسرائيليين الأوائل وعلاقته بمصر - كما جاءت بالتوراة، ولا علاقة للفيلم بقصة يوسف النبي التي وردت بالقرآن الكريم»، لكن المخرج ورط نفسه، إن كان قاصداً الإثارة التي حدثت، أم غير قاصد، بوضعه لافتة إعلانية في مقدمة فيلمه باللغة العربية تؤكد أنه لا علاقة للفيلم بالنبي يوسف، وتحتها مباشرة لوحة أخرى باللغة الفرنسية تؤكد أن هذه القصة قصة البطرك يوسف.

ويبدو أن المخرج قد أراد أن يوصل للمشاهد، أن تلك قصة الأب يوسف، لكن بشكل غير مباشر، ولأن أغلب المشاهدين مسلمون بالضرورة، فقد عمد إلى خلط بعض المفاهيم الإسلامية بالرواية التوراتية، مما أثار عليه المتأسلمون وأوجبوا محاسبته، وهو بسبيل ذلك أوقع نفسه في أكثر من ورطة وأكثر من خطأ حقيقي. فبينما قد اختار الرواية التوراتية، نجده يضع على لسان بطل قصته عبارات تعبر عن مفاهيم وعقائد إسلامية، لا علاقة لها بالمفاهيم التوراتية ولا عقائدها. وذلك مثل قول رام المعبر عن الإيمان بإله واحد أحد هو رب العالمين، وهذه سقطة لا تليق بمخرج يراه البعض أهم مخرجينا وكان عليه أن يلجأ في ذلك للمتخصصين كي يعلم، فالمعلوم لدارس التوراة بالمنهج العلمي أن التوراة زمن البطاركة الأوائل: إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق، وولد إسحاق يعقوب، ثم أبناء يعقوب الأسباط الأثنى عشر وضمنهم يوسف، تتحدث عن زمان كانت فيه القبيلة العبرية لم ترتق بعد إلى مفهوم التوحيد الإسلامي الذي ساقه شاهين على لسان بطله رام، حيث كان التقديس والعبادة توجه إلى (إللوهيم) أي الآلهة، وهو اسم الجمع للفظ الجلالة السامي المفرد (إيل) أي الإله. ومن هذه الآلهة ما وردت باسمائها في سفر التكوين التوراتي، مثل: إيل صبأوت، وإيل يراه، وإيل شداي، والإله القدير، وأدوناي، وغيرها، كما تمثل كبار الآلهة لإبراهيم في ثلاثة شخوص، ثم جاء بعد ذلك إله آخر زمن موسى هو الإله (يهوه) الذي لم ينف الآلهة الأخرى بل أوجب على الإسرائيليين تقديسه وحده دونهم، وكان الخطاب الموسوي في التوراة ليهوه يقول: «من مثلك بين الآلهة يا رب» ؟!.

وربما لم يقصد شاهين تلبيس الرواية التوراتية، بمفاهيم إسلامية، إنما التبس عليه الأمر، مع التطور المتأخر للمفاهيم الدينية اليهودية، زمن الأنبياء المتأخرين حزقيال ودانيال وإرميا، حيث بدأ هؤلاء ينحون نحو توحيد يهوه وحده وتنزيهه، فظن شاهين أن الأمر كان كذلك منذ البدء.

ومثال آخر على الالتباسات التي وقع فيها السيد شاهين، قوله على لسان رام بطل الفيلم،

بما يشي بإيمان يوسف بن يعقوب بعالم آخر تخلد فيه الأرواح، وأن الجسد الذى يعمد المصريون إلى تحنيطه ليس أبداً قيمة فى مسألة الخلود، وهنا خلط ما بعده خلط، وخبط ما بعده خبط! لأن الإسرائيليين الأوائل منذ فجر تاريخهم وحتى القرون الأولى للميلاد، لم يعتقدوا إطلاقاً فى خلود للروح فى عالم آخر، وان الشعب الأوحد فى ذلك الزمان الذى ابتدع فكرة الخلود من بعد الموت، والبعث والحساب أمام موازين العدالة الإلهية، هو الشعب المصرى وحده مطلقاً ودون شريك، لذلك عمدوا إلى تحنيط الأجساد حتى تجد فيها الروح سماتها المادية عند البعث، فتعود وتتلبس جسدها المحنط استعداداً للحساب الأخروى، وهو ما ركز عليه الفيلم واعتبره حطة فى المصريين!! وقد مرت تلك الفكرة بأطوار عدة شرحناها فى كتابنا (أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة) ولم يدخل عليها أى تطور بعد نهاية العصور الفرعونية.

ولما جاءت المسيحية وأخذت بعقيدة الخلود، استبدلت فقط رب الخلود المصرى (أوزيريس) بيسوع المسيح، ثم جاء الإسلام فأقر عقيدة الخلود، ولم يخرج عن التصور المصرى للبعث والحساب، فقال بضرورة عودة الروح لتتلبس بالجسد، وكان الفارق هو أن المصرى القديم اهتم بتحنيط الجسد لتجد الروح قسماتها فيه، بينما اعتبر الإسلام أن فناء الجسد ليس مشكلة بعد تطور مفهوم الألوهية إلى إله كلى القدرة، حيث يصبح بامكانه الكلى أن يحيى تلك العظام الرميم مرة أخرى، وهو اعتقاد سبق تطويره والقول به فى الزمن السابق للإسلام بجزيرة العرب، وهو ما تفصح عنه أشعار الجاهليين حول الخلود والحشر.

أما التوراة فلم تقل أبداً ببعث أو حساب ثم خلود زمن البطاركة، زمن يوسف، ولا بعد ذلك بقرون طويلة تصل إلى الألف عام، حتى زمن أنبياء التجديد عند انهيار مملكتهم. وقد ظهر الاعتقاد فى عالم آخر آنذاك بتأثير العقائد المصرية والفارسية فى فلسطين فى العصر الهللينى الرومانى، المعروف بعصر الآلام، حيث بحث اليهود عن تعويض وسلوان فى عالم آخر، ومن هنا يظهر مدى فساد الحوار فى فيلم السيد شاهين.

ورواية جوزيفيوس

وعليه فقد التبست كل تلك المتداخلات على السيد شاهين، فخلط وخبط خبطاً عشوائياً. ليوقع نفسه والآخرين فى مأزق كان فى غنى عنه لو درس الأمر بشكل أفضل، المهم أنه

ساق الأمر كله فى ثوب تاريخى أسهمت فيه الكاميرا والديكورات بعامل الإبهار، لنعيش جوا مصريا فرعونيا على مدى زمن الفيلم. هذا بينما التاريخ كعلم لا يعرف فى وثائقه المدونة ولا فى حفائره الأركيولوجية، على الإطلاق، شخصاً باسم يوسف، ولا جماعة باسم الأسباط ولا صديقاً للإله باسم إبراهيم، ولا نبيا باسم موسى، ولا عظيما باسم داود، ولا حكيما حاز شهرة فلكية ملّك على مملكة أسطورية باسم سليمان. فكل تلك الأسماء الإسرائيلية لا يعرفها التاريخ كعلم، فقط حكاها لنا كتاب مقدس باسم التوراة فى كتاب العهد القديم، وآمن بها المسيحيون من بعد اليهود عبر كتاب مقدس آخر هو العهد الجديد، ثم علمناها إيمانا عبر الكتاب المقدس الأخير القرآن الكريم.

لكن ذلك لم يفت فى أعضاد المؤرخين، خاصة من أرادوا أن يجدوا لبنى إسرائيل موطىء قدم فى التاريخ، وقد بدأت تلك المحاولات مبكراً على يد المؤرخ اليهودى يوسف بن متى المعروف باسم (جوزيفيوس)، الذى ألقى بتاريخ القبيلة البدوية الإسرائيلية فى عمق أعرق تاريخ المنطقة، تاريخ الشعب المصرى، وهى الرواية التى ركن إليها السيد شاهين واختارها دون روايات أخرى ومحاولات اجتهادية تاريخية أخرى، حاولت البحث التاريخى وراء المأثور الإسرائيلى، وهو الاختيار الذى يجب أن يتحمل مسئوليته لتتم بموجبه محاكمة ما ساقه، ليس على المستوى الفنى وحده، لكن أيضاً على المستوى التاريخى.

وحتى نضع بيد القارىء أصول المسألة، نقف وقفة نحيطه معها علماً أن (جوزيفيوس) كتب عدة مؤلفات تتعلق بتاريخ الإسرائيليين، منها كتاب باسم (ضد آبيون)، وكان آبيون هذا مؤرخاً يكره اليهود كراهية شديدة، ووصفهم بكل ما هو خسيس، وأفاد أنهم دخلوا مصر عبيداً جوعى ثم طردوا منها، بعد أن تفشت بينهم الأوبئة الناشئة عن عدم النظافة والعلاقات الجنسية غير السوية، ولم يتعلموا أى شيء متحضر من المصريين، مما أدى لطردهم خشية تفشى الداء فى البلاد.

وهنا قام اليهودى (جوزيفيوس) يرد على (آبيون) ليقول: إن بنى جلدته دخلوا مصر ملوكاً لا عبيداً، وأنهم من عرفهم التاريخ باسم الهكسوس، وأنه استقى ذلك الخبر من المؤرخ المصرى (مانيتون) الذى عاش حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد، وأنه بعد الثورة التى قام بها (أحمس) ضد الهكسوس، أخذ منهم عدداً كبيراً من الأسرى، عاشوا عبيداً فى مصر بعد ذلك حتى زمن الفرعون (آمنوفيس/ آمنحتب الثالث) وولده (إخناتون). حيث قام هؤلاء العبيد بثورة ضد

الفرعون (آمنوفيس) هربوا على إثرها من البلاد، وهو الهروب الذى سجلته التوراة فى سفر الخروج وقد اتضح لنا اعتماد يوسف شاهين على تلك الرواية من إشارته فى فيلمه إلى دخول (يوسف بن يعقوب/ رام) إلى مصر زمن الفرعون (آمنوفيس/ آمنحتب) وهذا قول (جوزيفيوس) اليهودى وقد تعمد أن يظهر خلف الفرعون (آمنوفيس) شخصاً يشبه إلى حد بعيد ولى عهده إخناتون، وجعله يتصرف بطراوة جعلته يظهر فى حالة ميوعة أو تخنث ألقت فى روع البعض آنذلك مزيداً من تشويه المصريين، لكن شاهين كان يريد القول إن ذلك الشخص تحديداً هو (إخناتون)، لأن تلك كانت صفاته الناتجة عن مرضه العضال، إن شاهين كان طول الوقت يريد التأكيد على وجهة نظر تاريخية بعينها، هى وجهة نظر (جوزيفيوس).

ولكن الأكثر أهمية هنا، هو أن شاهين وهو يأخذ برواية اليهودى (جوزيفيوس) وحدها، ويستبعد ما عداها، وقع فى أكثر من خطأ حتى فى فهم ما قال (جوزيفيوس) حيث أن (جوزيفيوس) جعل دخول اليهود مصر مع يوسف هو دخول الهكسوس، زمن فرعون باسم (توتيمايوس)، وأن طردهم من مصر تم زمن الفرعون (أموزيس/ أحمس)، وأن من بقى منهم أسيراً بمصر تم استبعاده حتى خرج زمن الفرعون (آمنحتب الثالث) وولده (اخناتون) ولم يفهم السيد شاهين أن هناك فارقا زمنياً طويلاً بين الدخول والخروج، وأن الدخول عند (جوزيفيوس) جاء فى زمن قديم، وأن قصة الدخول إلى مصر كانت قصة يوسف، أما الخروج فهو قصة موسى زمن آمنحتب وولده (اخناتون) فيما يزعم (جوزيفيوس)، وكان موسى حفيداً بعيداً للسبط لاوى شقيق يوسف بعد زمن بعيد من الدخول.

وهكذا خلط شاهين بين أول القصة وآخرها، وخلط بين يوسف وموسى، وبين الفرعون (توتيمايوس) وبين الفرعون (آمنحتب) وولده (اخناتون) وكان الأولى به ما دام قد قرر أن يخوض غمار التاريخ ويتبنى وجهة نظر دون أخرى، ان يجهد نفسه فى المعرفة، أو يرجع لذوى الاختصاص، كما يفعل الفيلم الأوروبى والأمريكى عند التعرض لمسائل من هذا النوع، لكن السيد شاهين احتسب ما لديه من معارف كافية للتعرض لمثل هذا الأمر الكبير، فطرح ما تصوره حلولاً لاشكاليات عميقة أدت به إلى أخطاء عظيمة، فلم يصل إلى مواقف صحيحة، لا على مستوى الدينى، ولا على المستوى التاريخى، بل إنه حتى لم يوفق على عرض وجهات النظر التى انحاز إليها عرضا أمينا كما حدث فى تناوله لتاريخ (جوزيفيوس).

أحـبوا إسـرائيل !

وأثناء ذلك عنّ للسيد شاهين أن يضيف للقصة الدينية ملمحاً تاريخياً تصور أنه يرفع من شأن جماهير الشعب المصرى فصور ديانة الإله آمون، وقد أصبحت ديانة دولة متجبرة ظالمة، وأن إرهاصات الثورة الشعبية ضد الفرعون والحكومة قد بدأت، وأن الشعب المصرى قد آمن بديانة التوحيد الآتونية، فقام بثورة جماهيرية ضد الحكومة وضد الإله آمون لصالح آتون الواحد، وقدم قمة العمل فى مشهد مبهر لجماهير الشعب وهى تكسر تمثال آمون العملاق، متصوراً بذلك أنه يمنح جماهير المصريين مزية معرفة الإله الأوحد.

وبما أننا نعلم أن اخناتون هو صاحب ديانة التوحيد الآتونية، فالمعنى أنه كان يتآمر على أبيه آمنحتب الثالث مع الجماهير الموحدة، وهكذا يتحول المصريون نحو التوحيد بتولى اخناتون للحكم بعد نجاح الثورة الآتونية ويتحول نظام الحكم المصرى من العداء للعبرانيين ممثلين فى رام، إلى أحبة وأشقاء فى حب الله الواحد، فهذا موحد، وهذا موحد، والشعب موحد، فلماذا لا يكون هناك توحد؟ وفى مشهد مؤثر ينزل الفرعون اخناتون عن عرشه ليحيى رام وهو عائد إلى أهله بحب شديد، ويزجيه عبارات المودة والتقدير. والمغزى مفهوم والهدف واضح، حيث خالف السيد شاهين كان ما تعارف عليه علم التاريخ لصالح الراهن التطبيعى؟! ولعب فيه لصالح الهدف المرتجى، ليلتقى الموحدان بالوجد والإيمان، إخناتون ويوسف، ليلقى بظله على الحاضر، ووحدوا الله وصلوا على النبى، وأحبوا بعضكم بعضا، ويا موحدى العالم اتحدوا، فبعضكم مسلم موحد، وبعضكم يهودى موحد، وكل من له نبى يصلى عليه.

المصريون والإسرائيليون
في التوراة وفي التاريخ

من استهلاك الوقت أن نتحدث عن مصر في التاريخ، والكلام بشأنها من نوافل القول، فشأنها معلوم وأنشر من أى حديث، حتى أصبح من فساد الرأى أن يؤرخ باحث لأى علم من العلوم دون الرجوع إلى أصول تلك العلوم في مصر القديمة، هذا في مجال العلوم، وفي ميدان التاريخ كعلم، أما في ميدان الاعتقاد، وفي الصحائف المقدسة، فلها شأن عظيم أيضا، لكن بوضعها ذلك البلد الضال أهله، الذى تأله حاكمه، فكفر، فوصم مع شعبه بأنهم من المجرمين، لذلك استحقوا أن يكونوا من المغرقين، بقرار من (يهوه) رب التوراة، وبضربة من عصا إعجازية دمرت الزرع والضرع في وادى النيل، قبل أن تطبق البحر المفلوق على من بقى منهم، أليسوا مجرمين؟.

أما إسرائيل فهى عمدة المقدس وعقدته الجامعة، هي المحور منه والقلب الخافق، فهى شعب مقدس فضله الله على العالمين، سلسلة من النجباء الأنبياء المطهرين، فالأب نبى ينجب نبيا، في سلسال توارث النبوة كما توارث أرض فلسطين، خير خلف عن خير سلف، فكانوا في المقدسات هم المقدمين على غيرهم من الأمم الضالة، جدهم البعيد هو إبراهيم الخليل، وآباؤهم إسحق ويعقوب الملقب بإسرائيل، وبنوه بنو إسرائيل الأسباط المكرمون، ومنهم يوسف الصبى الفاتك الجمال الذى توزر على خزانة المصريين، وعلّم خبراء الزراعة ومهندسيها في مصر، كيف يواجهون قحط السنين، ومن بعده جاء (موسى) أعظم أنبياء إسرائيل، ويغصّ التاريخ المقدس بعد ذلك بسيرة أولئك الهداة المطهرين، فهذا (شاؤول) يقيم لهم دولة في فلسطين، ليترك تأسيسها وتعميدها لداود الملك وولده سليمان، بينما أصبح ذلك الأخير سيداً على مملكة عظمى تغنت بها كتب الدين وكتب الأساطير، فتسلط على الوحوش والهوام والجن والعفاريت، وأصبحت إسرائيل في زمانه أغنى الدول، حتى كانت الفضة في الشوارع مثل التراب (بتعبير

(*) نشر بالعدد (٥، ٦) في مجلة Jusoor، نيويورك.

التوراة) ، أما فى المأثور الإسلامى فكان أحد أربعة ملوك ملكوا العالم الأرضى من أقصاه إلى أقصاه .

هذا شأن إسرائيل فى مأثورات الدين ، لكن الغريب والمشكل الحقيقى أمام هذا الرتل العقائدى الهائل ، أن التاريخ كعلم ، يعلم يقينا تاريخ مصر بحفائره وعلمائه وأركيولوجيته ، بأعلامها الآثارية الشاهدة ، كما انتهى ترتيب أوضاعها الزمنى عبر أسرات ودول ، من مينا موحد القطرين مروراً ببناة الأهرام إلى التحامسة ثم المناتحة فالرعامسة حتى الشناشقة والبطالمة ، فأرض مصر تفيض بالحفائر ، غنية بالأحداث ، لكن ذلك العلم نفسه ، علم الحفائر والآثار ، علم التاريخ ، رغم الهوس الحفائرى فى إسرائيل الآن ، يجد الأرض ضنينة بأى معلومة ذات شأن ، فالتاريخ كعلم لا يعرف عظيما أقام لإسرائيل مملكة باسم (شاؤول) ، ولا يعلم بشأن محارب ذى بأس أسس لإسرائيل قومتيها باسم (داود) ، ولم ترد فى وثائقه بالمرة أية إشارة لملك حكيم حاز شهرة فلكية باسم (سليمان) ، كما لم يسمع أبداً ولم يسجل فى مدونات مصر ولا فى مدونات الدول المجاورة ، خبر جيش الدولة العظمى وهو يغرق فى بحر تفلقه عصا ، وإطلاقا لا يدرى شيئا عن صبى جميل فتن نساء مصر وأذهلهن بجماله فقطعوا الأيادى وهن فى الهيام به ساهمات . كلا لا يعلم التاريخ من كل ذلك شيئا ولو يسيرا ، وكل ما يعلمه عن إسرائيل ، حكايات متناثرة عن شوارد قبائل من شذاذ الآفاق باسم (الخابيرو ، العابيرو) ، وإيماءة هنا ولفته هناك تتحدث بإهمال عن جماعة باسم إسرائيل سحقتها كتائب الفرعون (مِرنبتاح) ، أو ما جاء فى نصوص الرافدين عرضا عن مملكة باسم (عمرى) ، ربما ويحتمل ويظن ومن الجائز وقد تكون هى مملكة إسرائيل زمن ملكها (عمرى) وابنه (آخاب) . لكن الأسماء المعظمة المبجلة المفخمة فى التاريخ الدينى ، فلا شيىء منها البتة وقطعا فى التاريخ كعلم .

الإسرائيليون يدخلون مصر

تقول التوراة - ولا يقول التاريخ هنا شيئا - إن أول احتكاك للبدو العبرانيين بمصر والمصريين ، كان زمن الأب إبراهيم ، الذى هبط مصر مع زوجته سارة هربا من القحط الذى حل بأرض كنعان ، فحصل هناك على فضل عظيم وخير عميم ، يأتى خبره فى نص التوراة القائل عن هدية فرعون لإبراهيم : « فصنع إلى إبرام خيراً بسببها - أى بسبب سارة - وصار له

غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وإتن وجمال.. فصعد إبرام من مصر.. وكان إبرام غنيا جداً في المواشي والفضة والذهب/ سفر التكوين ١٢ و١٣».

ثم تحدثنا التوراة - ولا يحدثنا التاريخ - عن قصة الصبي الأخاذ في جماله (يوسف) ابن إسرائيل (يعقوب)، وقصة بيعه في مصر، وكيف أثبت مهارة إسرائيلية أوصلته إلى كرسي الوزارة، ليصبح الرجل الثاني في مصدر بعد الفرعون، وكيف أرسل يوسف يستدعي أهله لينعموا بخير مصر كملجأ للإسرائيليين كلما قحطت بهم الحياة ولحقت بهم المجاعات.

لكن التوراة لا تخبرنا بالسبب الذي أثار حنق الفرعون التالي على العرش، إلى حد تسخيره ضيوف مصر في الأعمال الشاقة، عقابا لهم على أمر مجهول، ونحن نعلم أن (ماعت/ العدالة/ القانون الكوني) كانت تاج القانون المصري الدائم، ومن هنا يظن أغلب الباحثين، أن الإسرائيليين لعبوا دوراً مع الهكسوس الغزاة ضد المصريين، وتعاونوا مع أعداء البلاد فحقت عليهم النقمة، وتم أسرهم مع فلول الهكسوس الأسيرة بمصر.

وبدورنا نذهب مع هذا الظن، ونحتمل دخول يوسف وأهله مصر في عهد (أسيس) آخر الحكام الهكسوس على مصر، وهو ما يلتقي مع الاسم (عزيز) الذي جاء بالقرآن الكريم، خاصة أن الآيات كانت تتحدث دوما عن حاكم مصر باسم الفرعون، عدا زمن يوسف، زمن دخول الإسرائيليين إلى مصر، ناهيك عما سجلته التوراة عن سياسة يوسف في مصر أثناء السنين القحط السبع، حيث احتكر (الميرة) جميعا في خزائنه وباعها للمصريين الذي يموتون جوعا مقابل الاستيلاء على أرضهم ثم مواشيهم ثم أنفسهم هم ليتحولوا إلى عبيد، لصالح الحاكم الهكسوسي. أما مشاعر المصريين تجاه هؤلاء الإسرائيليين فقد تبدت بوضوح في اعتبارهم الإسرائيليين نجساً يجب اجتنابه، وهو ما ورد جميعه في نصوص توراتية من قبيل: «اشترى يوسف كل أرض مصر لفوعون، إذ باع المصريون كل واحد حقله، لأن الجوع اشتد عليهم، فصارت الأرض لفرعون، أما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى مصر إلى أقصاها.. فقال يوسف للشعب إني اشتريتكم اليوم وأرضكم للفرعون.. سفر التكوين ٤٨»، وفي نفس السفر كان يوسف يقول لإخوته «جواسيس أنتم، لتروا عورة الأرض جئتم»، وكان ينصحهم دوما بالابتعاد عن المصريين «لأن كل راعي غنم رجس عند المصريين/ سفر التكوين ٤٦».

الإسرائيليون يخرجون من مصر

هذه حكاية التوراة عن الدخول إلى مصر، فماذا عن الخروج؟ تقول التوراة: إن موسى قد ولد في مصر إبان أزمة الإسرائيليين بمصر، والقصة معروفة، فقد ربى في القصر الملكي، وتبنته ابنة الفرعون وأكرمت مثواه، لكن الصبي يكبر فيقتل مصريا تعصبا لبني جلدته، فيطلبه القصاص وتطارده العدالة، فيهرب إلى مديان بسيناء، حيث يلتقي هناك برب سيناني يدعى (يهوه) على هيئة نار في عليقة، ويحمل منه أوامر صريحة لبني إسرائيل، ليخرجوا من مصر تحت قيادة موسى إلى فلسطين، وعاد موسى إلى مصر بتلك الأوامر، وبالعصا الثعبان، مع وعد إلهي يقول: «الآن تنظر ما أنا فاعله بفرعون، فإنه بيد قوية يطلقهم، وبيد قوية يطردهم من أرضه.. أنا أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم/ سفر الخروج ٦».

وتتالى الأحداث فيضرب موسى بعصاته النيل ليتحول دما، وتصير مصر خرابا، ثم يضرب بعصاته ضربات متتالية، فتمتلىء مصر بالضفادع والبعوض والذباب والطاعون والجراد مع برد وظلام، ثم يهبط الرب يهوه بنفسه لتحقيق الضربة الأخيرة بقتل أطفال المصريين، وذلك في النص «وقال موسى: هكذا يقول الرب: إني نحو منتصف الليل، أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الجارية التي خلف الرحى، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر/ سفر الخروج ١١».

وفي تلك الليلة «كان صراخ عظيم في مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت/ خروج ١٢». ولم ينس الإسرائيليون عادتهم في الخروج من مصر بالخير الوفير، فقد «فعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهبا وثيابا، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين، فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس / خروج ١٢».

ثم تأتي الضربة الحقيقية لإفناء المصريين، في رواية التوراة عن قيام ملك مصر وجيوشه بمطاردة الفارين بالذهب، حيث أدركوهم عند البحر، وهنا تحدث المعجزة الكبرى «ومد موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة وانشق الماء، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم... فمد موسى يده على البحر، فرجع البحر عند

إقبال الصبح إلى حاله الدائمة.. فدفع الرب المصريين وسط البحر/ خروج ١٤». ويتوجه الخارجون من مصر إلى فلسطين ليغزوها ويحتلوها ويقيموا لهم هناك دولة، تلك الدولة التى قيض لأحد ملوكها (سليمان) أن يحوز فى مقدسات المنطقة شهرة لا تضارع، ومع ذلك فقد قال (هـ. ج. ويلز) ونقل عنه الباحثون العرب مثل د. أحمد سوسة ود. أحمد شلبى قوله: «أما الوصف الذى اعتاد الباحثون ترديده عن اتساع وامتداد حدود مملكة سليمان، فيعده أكثر الباحثين من قبيل المبالغات التى درجت عليها دويلات تلك العصور، والحقيقة أن مملكة سليمان التى تبجحت التوراة بعظمتها كانت أشبه بمحمية مصرية مرابطة على حدود مصر، قائمة على حراب أسيادها الفراعنة.. وكان سليمان يريد أن يجارى الفراعنة فى البذخ والظهور بما هو فوق طاقاته وإمكانياته الاقتصاديه... فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب.. ولما عسر على سليمان أن يحتل أرض فلسطين الساحلية طلب معونة فرعون مصر، فأرسل جيشا مصريا صغيرا احتلها وسلمها له مهرا لابنته»، ثم يتساءل: «كيف صور كتبة التوراة مملكة سليمان فى صورة تفوق الواقع بكثير؟ فسليمان لم يكن وهو فى أوج مجده إلا ملكا صغيرا يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته، حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم» ثم يتابع قوله: «إن أمور مصر فى عهده كانت مرتبكة فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور الدولة الأشورية مرتبكة كذلك، وقد منح هذا لسليمان شيئا من الحركة والنشاط والتبسط فى ممارسة السيادة، أما ما جاء عن قصة ملك سليمان وحكمته التى أوردها الكتاب المقدس، فقد تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع، على يد كاتب متأخر شغوف بالمبالغة، فى وصف رخاء عصر سليمان، مولها بتمجيد حكمه.. وقد استطاعت هذه الرواية ان تحمل العالم المسيحى بل والإسلامى على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة، لكن الحق أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحتمس الثالث أو رمسيس الثانى أو نبوخذ نصر، فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهيئات، أما مملكته فهى رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا، وترجع أهميتها فى معظم أمرها إلى ضعف مصر المؤقت».

ماذا يقول التاريخ؟

وهكذا يتضح أن الباحثين عندما يريدون الحديث عن أحداث التوراة حديث المؤرخين،

يضطرون إلى المقارنات والاستنتاجات، بالنظر إلى أن تاريخ مصر، على كثرة ما اكتشف منه، لا يشير إلا لما ما في لمحات سريعة إلى القبائل البدوية، بينما تتحدث التوراة بالتفاصيل عن مصر وملوكها ومدنها وطبائع أهلها، مما يشير إلى معرفة واضحة من جانب الإسرائيليين بشئون مصر والمصريين، وهو أمر طبيعي تماما حيث أن وضع إسرائيل كقبائل هامشية ما كان يشغل حيزاً هاما فى المدونات المصرية، بينما كان المدون الإسرائيلي لا يستطيع أغفال مصر.

المهم أن أول ذكر لإسرائيل فى مدونات مصر، جاء في قصيدة منقوشة على لوح تذكارى من الجرانيت الأسود، أقيم فى معبد الملك (مرنبتاح) الجنائزى، والقصيدة تتغني ببطولات الملك وانتصاراته، حيث تقول: «الأمراء منبطحون أرضا يصرخون طالبين الرحمة، وليس بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه، لقد دمرت أرض التحنو (ليبيا)، وخاتى (تركيا) هادئة، وكنعان قد استلبت بقسوة، وعسقلونى تم الاستيلاء عليها، وجازر قد أخذت، وينو عام أصبحت كأن لم تكن، وإسرائيل أقفرت وليس لها بذر، وخورى (أرض فلسطين) عدت أرملة لمصر».

وقد وقف علماء كُثر مع هذا النص واعتبروه دالا على حدث الخروج من مصر، حيث ترد كلمة إسرائيل فى نصوص مصر لأول مرة، واعتبروا الفرعون (مرنبتاح) هو فرعون موسى والخروج، بينما ذهب آخرون إلى أن النص يتحدث عن حرب شنها مرنبتاح على عدد من الشعوب خارج مصر، وأنه هاجم أراضيهم وضمها إسرائيل.

هذا كل ما ورد من التاريخ التوراتى المهول فى تاريخ مصر «إسرائيل أقفرت وليس لها بذر» ويبدو أن الأمر لم يكن يستأهل الفخار به والإطالة بشأنه قياسا على أعمال الفرعون الأخرى، فاكتفى بتلك الإشارة السريعة، التى قامت عليها ألوف الأبحاث فى جامعات العالم، مقارنة بالتوراة، ولم تزل.

أما قول (ويلز) السالف، إن إسرائيل كانت مجرد دويلة رهينة لمصر، وأنها كانت تابع متقدم فى آسيا للفراعنة، فهو استنتاج يطابق أحداث التاريخ، وما ورد فى تاريخ مصر القديمة من وثائق، عن الحملات التأديبية التى كان يقوم بها الفراعنة على بدو آسيا، فى حال أى تمرد أو عصيان، مع تركهم على أحوالهم ويحكمون فقط بوال من قبل الفرعون غالباً مايكون منهم، مع بعض كتائب مصرية لمنع أى شغب.

وتتحدث التوراة عن زمن حكم (رحبعام)، بن الملك سليمان، ولم يمض على موت سليمان خمس سنوات، فتخبرنا بشأن حملة قام بها فرعون مصرى باسم (شيشق) على دولة يهوذا فى فلسطين، حيث تقول «وفى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الرب، وخزائن الملك، وأخذ كل شيء، وجمع أتراس الذهب التى عملها سليمان/سفر ملوك أول ١٤».

وهو الخبر الذى يلتقى مع الوجود التاريخى لفرعون باسم (شيشنق)، وبأخبار لحملة قام بها على فلسطين، مع جدول بالمدن التى هاجمها، لكن دون أن يذكر كلمة إسرائيل إطلاقا ولا كلمة يهوذا ولا حتى أورشليم، وهو ذات الفرعون الذى قالت التوراة، أنه كان صهر سليمان، وأن سليمان طلب منه مساعدته للاستيلاء على مدينة جازر الفلسطينية الساحلية، فأرسل إليه شيشنق بضعة كتائب مصرية احتلتها له وتركها له هدية، وقد عثر مؤخراً فى مجدو على نصب تذكارى أقامة شيشنق هناك تذكاراً لحملته على المملكة السليمانية بعد موت سليمان، وهو الأمر الذى يشير إلى أن سليمان كان تابعا مخلصا لشيشنق، كما يشير فى جانب آخر إلى عصيان ما ارتكبه ولده (رحبعام) بحق الفرعون فاستحق التأديب.

ومن المعلوم أن مصر ظلت ترعى فلسطين وتزودها بالميرة أيام القحط والجفاف، كما ظلت ملجأ آمنا لأهلها عند أى خطب أو غزو خارجى، وهو بالضبط ما حدث زمن هجوم الملك الكلدانى نبو خذ نصر على يهوذا، حيث لجأ أهلها بالآلوف المؤلفة إلى مصر، التى استقبلتهم بالترحاب زمن الفرعون (واح اف رع) المسمى باليونانية (إفريس ٥٨٧ - ٥٦٨ ق. م) أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين، وهو ما حكته التوراة فى الاصحاح ٢٥ من سفر ملوك ثانى، وتأكد بوجود جالية يهودية تعيش بعد ذلك فى جزر الفنتين جنوبى أسوان بمصر.

وتحكى لنا التوراة عن معركة بين مصر وأشور وقعت فى بلاد الشام، مما يشير إلى خروج الجيوش المصرية للدفاع عن بلاد الشام ضد غزو آشورى، وتقول التوراة أن ملك إسرائيل (يوشيا) اعترض طريق الفرعون نخاو ليمعنه عن نجدة سوريا، فاضطر الفرعون إلى قتل الملك الإسرائيلى، كما اضطر بعد ذلك لأسر ابنه (يهود أحاز) الذى تخابر مع الآشوريين، وتم ترحيل الملك الإسرائيلى (يهو أحاز)، إلى مصر، وهى رواية سفر الملوك الثانى بالإصحاح الثالث والعشرين، ولا نجد فى مدونات التاريخ نظيراً للرواية، لكنا نجد ما

يصادق عليها، حيث تم العثور على لوح عليه نقش ورسم وكتابة عن شخص باسم (يوده ملك) وترجمتها (ملك يهوذا)، وتعود إلى زمن الفرعون تخاو، وهو ما جعل المؤرخون يتأكدون أنه بعينه الملك الإسرائيلى الأسير (يهود أحاز).

وبينما كانت التوراة تصف مصر بأنها «جنة الرب أرض مصر» حيث الراحة والهدوء والرخاء والدعة، نجد أيوب النبى يحلم بأيام مصر «قد كنت مضطجعا الآن ساكنا، كنت نمت مستريحا، مع ملوك ومشيرى الأرض، الذين بنوا أهراما لأنفسهم/ أيوب ٣»، وفى سفر الخروج نجد الإسرائيليون يعانون الجوع بسيناء، فيحتجون على موسى معبرين عن ندمهم لترك أسر مصر قائلين: «ليتنا كنا بمصر، جالسين إلى جوار قدور اللحم»، وهى كلها الأمور التى تفسر ما استقر فى نفوس الإسرائيليين تجاه المصريين، متمثلا فى نبوءات ترد لمصر الجميل.

نبوءات التوراة لمصر

فى الأزمنة الأخيرة لإسرائيل، زمن أنبياء إرميا وإشعيا، وقبل زمن من تدمير الهيكل على يد طيطس الرومانى وتشتيتهم فى بقاع العالم، وقف أنبياء إسرائيل على عتبات النهاية، يتنبأون بعودة المجد السليمانى وقيام دولة إسرائيل مرة أخرى، وأنها حينذاك ستسود العالم، لكن قيامها كان يشترط أولاً وأخيراً خرابا تاما لمصر، وإذلالا لها، وهو ما يفصح عن التكوين النفس والعقلى ومدى التشوه الذى لحق بنفوس القوم تجاه مصر.

يقول إشعيا فى الإصحاح التاسع عشر من سفره: «وحى من جهة مصر، هو ذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر.. يذوب قلب مصر فى داخلها.. تنشف المياه من البحر ويجف النهر وييبس، وتنتن الأنهار.. والرياض على النيل على حافة النيل وكل مزرعة على النيل تيبس وتتبدد ولا تكون.. فى ذلك اليوم تكون مصر كالنساء، فترتعد وترتجف من هزة يد رب الجنود التى يهزها عليها، وتكون أرض يهوذا رعبا لمصر».

ثم يؤنب إشعيا بنى جلدته الذين يلجأون إلى مصر وفيئها فى الملمات، بقوله فى إصحاحه الثلاثين: «ويل للبنين المتمردين يقول الرب.. الذين يذهبون لينزلوا إلى مصر للمعونة.. ليلتجئوا إلى حصن فرعون ويحتمون بظل مصر، فيصير لكم حصن فرعون خجلا، والاحتماء بظل مصر عارا».

أما النبى إرميا فى الإصحاح ٤٦ ، فقد وقف يعبر عن مكنون كل إسرائيلى تجاه مصر فى قوله: «أخبروا مصر، واسمعوا في مجدل، واسمعوا فى نوف (منف) وفى تحفنحيس، قولوا انتصب وتهيأ الآن، لأن السيف يأكل حواليك.. نادوا هناك فرعون ملك مصر هالك.. نوف تصير خربة وتحرق فلا ساكن.. ها أنذا أعاقب آمون نو وفرعون مصر وآلهتها والمتوكلين عليه».

أما حزقيال النبى فلم يبخل على مصر وهو يوجه كلام الرب الإسرائيلى إلى الفرعون المصرى المقبل، بالإصحاح ٢٩ حيث يقول: «ها أنذا المليك على أنهارك، أجعل من أرض مصر خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان.. وأشتت المصريين وأبددهم من الأرض».



فلسطين وإسرائيل:

الخلل فى التوراة أم فى التاريخ؟

حدث هذا أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد، عندما أنقضّت موجات بشرية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، قادمة من جرز البحر الإيجى، كان أكبرها تلك التى اكتسحت العاصمة الحيثية (خاتوشاش/ بوغاز كوى حاليا تركيا) ودمرتها، لتتركها خرابا بلقعا إلى الأبد، ثم تزحف منها جنوبا لتقضى على (قرقميش/ جرابلس حاليا شمالى حلب)، لتحتل بعدها (أوغاريت/ رأسى شمرا الآن قرب اللاذقية)، ومن بعدها (أرواد)، لينحدر السيل الجارف جنوبا باتجاه حدود مصر الشرقية عبر سيناء، مترافقا مع جناح بحرى لمهاجمة شواطىء مصر الشمالية، مصحوبا فى الوقت نفسه بجناح ثالث هبط على السواحل الليبية ليهاجم حدود مصر الغربية، وكان ذلك الهجوم الثلاثى أكبر كماشة عسكرية تعرضت لها مصر.

ويحكى لنا (رمسيس الثالث) أحد المحاربين العظماء فى التاريخ، أنه قد تصدى بجيوش مصر لهذا العدوان الثلاثى، وألحق به هزيمة مروعة، فى ثلاث معارك برية وبحرية، وكان ذلك عام ١١٨٠ قبل الميلاد. أما علم التاريخ فقد حاول تفسير وجود عناصر من هؤلاء المهاجمين على الساحل الفلسطينى بعد ذلك، يعيشون هناك فى شكل ممالك مستقرة، بأن انكسار الهجوم البحرى الكاسح للمنطقة، الذى جاء من جزر البحر الإيجى وعاصمتها (كريت)، قد انكسر على الحدود المصرية انكساراً شديداً، لكن الفرعون المصرى المنتصر، ترك لهم سواحل فلسطين ليقيموا بها، ويكونوا من رعايا الفرعون وجنوده، وفيالقه المتقدمة فى آسيا.

أما (هيرودت) أبو التاريخ، فيقول: إن هؤلاء المهاجمين هم من حملوا اسم (اليلست)، ويضيف المؤرخون من بعد ان هيرودت اليونانى هو أول من أطلق على بلاد كنعان شرقى

(*) لم يسبق نشره.

المتوسط اسم (بلسيتا) و (بالاستين)، نسبة إلى هؤلاء الغزاة (البلست)، لتحمل بعد ذلك اسم فلسطين.

موجــات الهجـــوم

ويعلمنا علم التاريخ من وثائقه، أن ذلك الهجوم الفلسطيني القادم من كريت والجزر الإيجية، قد هجم على منطقتنا في شكل موجات متتابعة، بعد أن شكلت قبائل بحر إيجة اتحاداً قويا في نهاية ١٣٠٠ قبل الميلاد، وأن أول تلك الموجات قد اضطر مصر إلى التخلي عن مستعمراتها في سوريا وفلسطين، وأن أول الموجات قد تمكنت تماما من احتلال ساحل فلسطين في زمن قياسي.

وكان أول ذكر في وثائق التاريخ لهؤلاء (البلست)، هو ذلك الذي نقرأه في وثائق الفرعون (آمنحتب الثالث ١٣٩٧ ـ ١٣٦٠ قبل الميلاد)، ذلك الزمن الرخي الذي ضمت فيه مصر دول الشرق القديم تحت جناحيها، وتدفقت عليها الجزيات، منذ زمن الفاتح الكبير (تحتمس الثالث)، فكان عصر (أمنحتب الثالث) عصر رخاء عظيم.

وقد تلي الموجه التي وصلت زمن (امنحتب الثالث ١٣٩٧ ـ ١٣٦٠ قبل الميلاد) ذكر لموجات أخرى كان تاليها تلك الموجة التي وصلت زمن (رمسيس الثاني ١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ قبل الميلاد)، ويبدو أن المصريين قد أسروا منهم أعداداً كبيرة، حيث نجدهم بعد ذلك يعملون كمرتزقة في جيوش مصر، باسم الشردانيين (نسبة إلى جزيرة سردينيا).

وعلى نصب عثر عليه في (صان الحجر) بمحافظة الشرقية، نجد حكايات عن سفن البلست الضخمة، ونقوشا تصورهم يلبسون خوذاً ذات قرون، ويحملون دروعا مستديرة، ويمتشقون سيوفا طويلة ضخمة، وهو النصب الذي روى لنا كيف صد الفرعون (مرنبتاح بن رمسيس الثاني) هجومهم، ليردهم عن الحدود المصرية.

أما في فلسطين ذاتها، فقد نظم (البلست) أنفسهم عندما دخلوها، في هيئة ممالك صغيرة مستقلة في إدارتها، منها جرار وغزة وعسقلان وأشدود وجازر وغيرها، لكن ضمن اتحاد فيدرالي مركزه الرئيسي مدينة أشدود، أما قوتهم العظيمة فتكمن فيما نعلمه من نصوص مصر ومن التوراة، أنهم صنعوا أدوات القتال من الحديد، وأن الحديد كان عندهم مادة اعتيادية ووفيرة، حتى أنهم صنعوا منه عجلاتهم المقاتلة.

وكل هذا إنما يعنى ببساطة، القول: إن الفلسطينيين جاءوا المنطقة كعنصر دخيل، قادم من كريت وبحر إيجة، وهو أمر يشكل عموداً لأعمال بحثية كثيرة، تشكل الخلفية التاريخية للأحداث التى تجرى فى منطقتنا، منذ قيام دولة إسرائيل مرة أخرى، فى عام ١٩٤٨م.

ماذا تقول التوراة؟

إذا التاريخ قال: إن الفلسطينيين جاءوا مهاجرين من كريت إلى فلسطين، ليستقروا بها زمن الفرعون (رمسيس الثالث) حوالى عام ١١٨٠ قبل الميلاد، أى بعد خروج بنى إسرائيل من مصر بحوالى خمسين عاما، ومعلوم أن كبرى المدارس البحثية قد استقر رأيها على خروج الإسرائيليين من مصر زمن الفرعون (مرنبتاح ابن رمسيس الثانى) حوالى عام (١٢٢٩) قبل الميلاد.

ومثل ذلك التاريخ وتلك التزمينات، تستتبع عدداً من النتائج والدلالات، حيث تقول التوراة: إن الإسرائيليين قد سبق لهم أن استقروا بفلسطين قبل زمن الدخول إلى مصر بحوالى خمسة قرون، وهو ذلك الزمن الأسطورى الممتد من إبراهيم إلى إسحق إلى يعقوب المسمى إسرائيل، وأنه إذا كان الإسرائيلى والفلسطينى وافدين على كنعان، غريبين عليها، فإن إبراهيم كان داخلها الأول حيث سكن بين أهلها الكنعانيين وتكلم بلسانهم، وذلك قبل مجيىء الهجرة الفلسطينية بحوالى ستة قرون كاملة.

هذا كلام، لكن التوراة نفسها لها كلام آخر وقول آخر فماذا تقول التوراة؟.

أولا: لقد جاء إبراهيم وأسرته الصغيرة إلى أرض تسميها التوراة أرض كنعان، قادما من موطنه (أوركسديم)، وأن إبراهيم قد تنقل فى كنعان بين عدة مواضع، أهمها ذلك الموضع المعروف بمملكة (جرار) التى كان يحكمها ملك اسمه (أبى مالك)، وتصف التوراة تلك المملكة بأنها مملكة فلسطينية، وذلك فى قولها: «وتغرب إبراهيم فى أرض الفلسطينيين أياما كثيرة/ سفر التكوين ٢١».

ثانيا: يتكرر ذكر جرار بذات التوصيف فى زمن إسحق بن إبراهيم فى قول التوراة «فذهب إسحق إلى بيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار.. وزرع إسحق فى تلك الأرض فأصاب فى تلك السنة مئة ضعف... فحسده الفلسطينيون/ سفر التكوين ٢٦».

وهكذا، ومع إبراهيم أول رجل مهم فى التاريخ التوراتى، نجد مملكة باسم (جرار) توصف بأنها فلسطينية، وهو ما يعنى اعترافا من جانب التوراة، بوجود العنصر الفلسطينى فى فلسطين، قبل زمن الأب إبراهيم بزمن أبعد، يسمح بأقامتهم ممالك مستقرة، ويصبح القول: إن (هيرودت) أول من أطلق على أرض كنعان اسم فلسطين قولا مردوداً بشهادة التوراة ذاتها، أما عند خروج الإسرائيليين من مصر، نجد نصا توراتيا صريحا يسمى أرض كنعان بكاملها وليس جرار وحدها باسم فلسطين، وذلك فى قوله: «يسمع الشعوب فيرتعدون، تأخذ الرعدة سكان فلسطين/ سفر الخروج ١٥». وفى نبوءة متأخرة للنبى اليهودى (صفنيا)، نجده يخاطب تلك الأرض بلسان رب اليهود قائلا: «يا كنعان أرض الفلسطينيين، إنى أخرب بك بلا ساكن/ سفر صفنيا ٢».

وهكذا اكتسبت أرض كنعان اسم أرض الفلسطينيين زمن خروج الإسرائيليين من مصر، رغم أن الفلسطينيين كانوا عنصراً يقطن بساحل فلسطين ضمن عناصرها الأخرى، وقد حددت التوراة مساكن الفلسطينيين كمجموعة ممالك متحدة على الساحل، بترتيب يصعد من الجنوب إلى الشمال، بدءاً من غزة على حدود مصر، وذلك فى قولها: «من الشيحور الذى هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالا، تحسب للكنعانيين، أقطاب الفلسطينيين الخمسة: الغزى والأشدودى والأشقلونى والعقرونى والعويين/ يشوع ١٣»، وفى قول آخر تمزج فيه التوراة بين الكنعانى والفلسطينى نجد «وكانت تخوم الكنعانى من صيدون حينما تجيىء نحو جرار إلى غزة/ تكوين ١٠»، لكن الترتيب هنا كان من صيدا فى الشمال إلى غزة فى الجنوب.

وقد بات من المشكوك فيه عند الباحثين الآن، أن يكون الإسرائيليون الذين خرجوا من مصر، لهم علاقة بذلك الرعيل الأول المسمى بالبطاركة أو الآباء (إبراهيم، إسحق، يعقوب، الأسباط)، ناهيك عن كون مسألة البطاركة برمتها ـ كما حكتها التوراة ـ تدخل فى عداد الأساطير عند باحثين محترمين، إضافة إلى جلة محترمة من باحثين آخرين، يرون أن قصة إبراهيم والبطاركة الأوائل لون من الصياغة التى تمت متأخرة بعد الخروج لربط الخارجين بتاريخ قديم، لإلقاء تاريخ إسرائيل المقدس فى عمق التاريخ القديم، وأن كل الأمر ربما تم بعد قيام مملكة داود فى أورشليم، بتدوين إسرائيل فى خضم تاريخ أعرق، وأبعد فى القدم، من باب إيجاد موطىء قدم لإسرائيل فى التاريخ القديم للمنطقة.

مصداقية التوراة وخلل التاريخ

لكن تظهر هنا مشكلة كبرى، تثيرها مصداقية مدهشة للتوراة، من حيث تطابقها مع نصوص التاريخ الآثارية، حيث تنسب التوراة الفلسطينيين إلى أصول من جزيرة تسمى مرة (كفتور) ومرة (كريت)، وتسجل بهذا الشأن نصوصها من قبيل: «وهكذا قال السيد الرب: ها أنذا أمد يدى على الفلسطينيين، وأستأصل الكريتيين، وأهلك بقية ساحل البحر/ حزقيال ٢٥»، و «الرب يهلك الفلسطينيين بقية جزيرة كفتور/ إرميا ٤٧»، «وويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين، كلمة الرب تكون عليكم يا كنعان أرض الفلسطينيين/ صفنيا ٢»، وفى تعبير واضح لا يقبل لبسا يقول: إن بعض الهجرات تمت بفعل إلهى، يقول النص: «يقول الرب: ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر، والفلسطينيين من كفتور، والأراميين من قير؟ عاموسى ٩».

وهنا المشكلة، والخلل بعينه، فإذا كانت رواية التوراة ككتاب فى التاريخ قد تطابقت مع المكتشفات والسجلات الآثارية فى هذه المسألة، وإذا كان كليهما قد أكد قدوم الفلسطينيين من جزيرة كريت وبحر إيجة، فإن هناك خللا يتمثل فى كيف نوفق بين قول التاريخ باستقرارهم على الساحل الفلسطينى فى عهد الرعامسة، حول القرن الثانى عشر قبل الميلاد، وبين وجودهم حسب التوراة فى فلسطين قبل خروج الإسرائيليين من مصر، ناهيك عن قول التوراة بوجودهم زمن البطاركة الأوائل؟.

وبالحسابات، يقول علم التاريخ: إن الفلسطينيين قد استقروا على سواحل فلسطين بعد أن سمح لهم رمسيس الثالث بذلك، أى بعد الزمن المفترض للخروج الإسرائيلى من مصر بحوالى خمسين عاما، وبحسابات التوراة نعلم أن الإسرائيليين أقاموا بمصر ٤٣٠ عاما حسب الرواية العبرية المازورية، ويضاف إليهم أربعين عاما زمن التيه فى سيناء، يكون المجموع ٥٢٠ سنة كاملة، إضافة إلى حوالى سبعين سنة افتراضية بين إبراهيم وحفيده يعقوب، فيكون المجموع ستة قرون كاملة، هى الفارق بين تزمين المؤرخين للخروج وبين زمن الغزو البلستى التاريخى لفلسطين، وهذا إنما يعنى وجود الإسرائيليين بفلسطين قبل وصول الفلسطينيين إليها بست قرون كاملة، وهو ما لا تقول به التوراة ذاتها، أليس ذلك خللا حقيقيا؟.

والإشكالية فى محاولة إيجاد حل يتطلب أحد فرضين، فإما أن نتأخر بعصر الرعامسة ستة قرون إلى الوراء، قبل التزمين المتفق عليه حاليا بين المؤرخين، وهو ما سيترتب عليه إشكاليات كبرى، حيث سيلحق الخلل بكل تاريخ المنطقة، الذى تم تزمينه قياسا على تزمين

التاريخ المصرى، وإما أن نتقدم بزمن الخروج الإسرائيلى من مصر ستة قرون، أى يكون الخروج قد حدث عام ٦٠٠ قبل الميلاد، وهو غير ممكن علميا، لأنه سيتضارب تضاربا صارخا مع حقائق تاريخية ثابتة، وتفصيلات شتى لا تسمح بهذا الجموح فى الافتراض المستحيل.

إشكالية تبحث عن حل

نعود هنا مرة أخرى لزمن البطاركة الأوائل، وقول التوراة بوجود الفلسطينين فى ذلك الزمن الأسطورى، زمن إبراهيم وإسحق ويعقوب، لندقق النظر مرة أخرى، فنجدها إطلاقا لا تذكر أرض كنعان إلا باسم أرض كنعان، ولا ذكر لفلسطين ولا لفلسطينيين إلا عند الحديث عن مدينة واحدة بالذات هى (جرار) التى يسكنها فلسطينيون، وهو ما يضعنا أمام واحد من احتمالين: فإما أن يكون الكاتب التوراتى لهذا الجزء من التوراة - والذى كتب متأخراً بعد الألف الأولى قبل الميلاد - قد استقر فى ذهنه اسم فلسطين للدلالة على تلك الأرض، فاستخدمه فى غير موضعه من الزمن وأطلق اسم فلسطين السائد فى زمانه على أرض كانت تحمل فقط اسم كنعان فى الزمن السحيق، وإما أن تكون جرار تحديداً ووحدها دون غيرها كانت موئلا للفلسطينيين زمن البطاركة، وأن الفلسطينيين قد سكنوها كجند مرتزقة أو جالية بموافقة الفرعون، وهو الاحتمال المرجح لدينا، حيث نعلم من التاريخ أن حيا بكامله شمال شرقى مصر قد حمل اسم (الحى الجزرى) زمن الرعامسة، لسكنى الإيجيين فيه، وكانت جرار أقرب المدن الفلسطينية إلى الشيحور المصرى الواقع شرقى الحى الجزرى تماما، وقد سمى (الجزرى) نسبة للجزر، وعبدت هناك آلهة غريبة تماما على مصر، تليق بالأغراب الملتحقين بخدمة الفرعون.

والأسباب فى وضع الاحتمالين واستبعاد أن تكون فلسطين مسكونة بجنس البلست زمن البطاركة، هو كما قلنا أن التوراة كانت تصفها بأرض الكنعانيين، وأنها لم تصف أى مكان فيها بالفلسطينى سوى مدينة (جرار)، هذا إضافة إلى أن الأحداث التى رافقت زمن البطاركة لم يأت فيها ذكر الفلسطينيين إطلاقا فى أى وثيقة تاريخية، لا فى مصر ولا فى أى من دول المنطقة ولا بفلسطين ذاتها، علما أن ذلك الزمن لحقته أحداث جسام، تمثلت فى غزو الهكسوس لمصر، وتذهب جلة محترمة من الباحثين إلى أن دخول بنى إسرائيل إلى مصر قد

حدث زمن الهكسوس، وهو زمن ما كان يسمح بدخول البلست، حيث كان الهكسوس قوة كبرى تحتل مصر ذاتها وتقهرها، مع عدم وجود أى إشارة لفلسطين بهذا الإسم ولا لهجرة باسم البلست فى أركيولوجيا ذلك الزمن.

لكن التوراة من جانبها تصر زمن الخروج على وجود الفلسطينيين فى فلسطين كحقيقة واقعة، والأمر هنا ليس كما فى عهد البطاركة حديث عن مدينة واحدة، بل عن مجموعة ممالك قوية ومقتدرة للفلسطينيين بشكل لا يدع سبيلا للشك فيه، بنصوص غزيرة كثيفة ومتعددة، تحدثنا عن قراهم وأسماء زعمائهم، بل وشخصيات هامة من بنيهم، وقواد عسكريين، وشكل أسلحتهم، وحروبهم مع الإسرائيليين عند دخول الأرض، وعباداتهم، وآلهتهم، مما يشير إلى أن الفلسطينين كانوا قد أصبحوا حقيقة مسلم بها فى فلسطين، حتى أنهم أعطوا أرض كنعان اسما جديداً هو أرض الفلسطينيين، وأن ذلك قد حدث أثناء تواجد الإسرائيليين فى مصر.

محاولة حل

رغم أن آخر النظريات وأكثرها اعتماداً فى الأكاديميات العالمية، تلك التى تقول باضطهاد الإسرائيليين فى مصر زمن الفرعون (رمسيس الثانى)، وبخروجهم من مصر فى عهد ولده الفرعون (مرنبتاح)، فإننا لا نعلم كيف وجد هؤلاء السبيل (مثل بروغش وبيير مونتيه وغيرهم) كيف وجدوا السبيل إلى التوفيق بين ذلك، وبين الحقيقة التى تؤكد مجىء الفلسطينيين واستقرارهم على الساحل الكنعانى زمن (رمسيس الثالث)، أى بعد خروج الإسرائيليين من مصر حسب ذلك التزمين بحوالى خمسين عاما، بينما التوراة التى تعد لدى هؤلاء مرجعا تاريخيا أساسيا فى حسابات تزمينهم للأحداث، تقول إن الخارجين قبل خروجهم كانوا يطلقون على الطريق السينائى طريق فلسطين، وعلى كنعان كلها اسم الفلسطينيين، وأنهم عندما وصلوا إليها وجدوا الفلسطينيين قوة قائمة فى ممالك دخلوا معها حروبا طاحنة قبل أن يستقروا إلى جوارهم هناك؟.

ومن ثم لا يبقى أمامنا سوى اقتراح فرض لا ينزلق إلى الاصطدام بما استقر عليه علم التاريخ فى تزمينه للأحداث وللأسر الحاكمة فى مصر، إنما هو فرض يرجع قليلا بزمن الخروج إلى الوراء، فنحن نعلم أن أول الهجمات البلستية قد حدثت زمن (آمنحتب الثالث)

١٤٠٥_١٣٦٧ قبل الميلاد، وهنا نفترض نجاح تلك الهجمة واستقرارها على الساحل الفلسطينى، أى أننا بوضوح نستبعد الخروج زمن (مرنبتاح) ١٢٢٩ قبل الميلاد، ونرجع به إلى تلك الفترة الواقعة زمن خلو العرش بعد سقوط (إخناتون ابن أمنحتب الثالث) الذى حكم بين ١٣٦٧ و ١٣٥٠ قبل الميلاد، وهو الزمن المناسب للخروج، لأن زمن مرنبتاح كان زمن قوة مصرية تسيطر على فلسطين ذاتها، أما زمن خلو العرش بعد سقوط إخناتون فكان فترة ضعف تسمح بوقوع أحداث الخروج، ومهاجمة الخارجين لفلسطين التابعة لمصر، لكن ليجد الخارجون أن الفلسطينيين قد استقروا هناك زمن (أمنحتب الثالث) وربما قبله بقليل وأسسوا ممالكهم هناك.

وبالحسابات الافتراضية، نحن ندفع بزمن الخروج الإسرائيلى إلى الخلف إلى عام يقع قبل ١٣٥٠ قبلا الميلاد، وبإضافة زمن التيه فى سيناء وهو أربعين عاما، فإن وصول الإسرائيليين إلى فلسطين يكون قد حدث حوالى عام ١٣١٠ قبل الميلاد، وبذلك نكون قد أرجعنا زمن الخروج مئة وعشرين عاما إضافية عن الزمن المفترض لخروجهم زمن مرنبتاح، وهو ما يعنى أنهم قد دخلوا فلسطين قبل قرن من زمن الفوعون مرنبتاح.

وإن فرضنا هذا سيحل عدداً من المشاكل الكبرى فى التاريخ غير المحلولة حتى الآن، فسيحل أولا مشكلة وجود الفلسطينيين بفلسطين قبل الخروج الإسرائيلى من مصر، وثانيا سيعيد الاعتبار إلى المؤرخ المصرى (مانيتون السمنودى/ القرن الثالث قبل الميلاد) الذى أثبت مصداقية عالية فى كثير مما أورده، ومع ذلك استبعد ما ذكره عن الخروج زمن فرعون باسم (أمنوفيس) لصالح فكرة الخروج زمن مرنبتاح، استناداً إلى لوح مرنبتاح الذى يقول فيه أنه هاجم قوما باسم إسرائيل ودمر بذرتهم. وهنا بالتحديد يكمن الخلل فى رأينا، حيث نحتسب أن لوح مرنبتاح كان يتحدث عن حملة تمت بعد خروج الإسرائيليين واستقرارهم فى فلسطين، ضمن الحملات التأديبية التى كان يشنها الفراعين على مستعمراتهم، بينما (أمنوفيس) الذى ذكره مانيتو كفرعون للخروج هو النطق اليونانى للاسم المصرى (آمنحتب) وكان إخناتون يحمل اسم (آمنحتب الرابع).

هذا ناهيك عن كون ذلك الفرض يجعل الخارجين من مصر، ربما كانوا أتباعاً مباشرين لإخناتون كأول داعية للتوحيد فى التاريخ، وهو ما يفسر التوحيد الإسرائيلى بعد ذلك، إضافة إلى حل معضلة كأداء كانت تقف دوما فى وجه القائلين بالخروج زمن مرنبتاح، وتتمثل فى

أن التوراة قد أكدت أن الإسرائيليين عند غزوهم فلسطين، قد دمروا مدينة أريحا وأحرقوها بالكامل، وقد قامت بعثة حفائر بريطانية، بقيادة العالمة الأركيولوجية (ك. كينون) عام ١٩٥٠، بإجراء حفائر في مدينة أريحا للكشف عن أي أدلة، تشير لتدمير أريحا، ومدى صدق الرواية التوراتية.

وقد تأكد للبعثة البريطانية أن أريحا قد دمرت بالفعل، لكن في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهو ما شكل معضلة لأصحاب نظرية الخروج زمن مرنبتاح، لأن أريحا تكون بذلك قد دمرت قبل زمن مرنبتاح بقرن من الزمان، وقد اعتمدت البعثة البريطانية في تزمينها لدمار أريحا، على ما عثرت عليه من جعلان وكسرات فخارية تحمل أسماء ملوك مصريين، حكموا خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، هذا مع آثار الحريق المدمر، وآثار التهديم الذي تعرضت له أريحا.

ونقصد من هذا كله القول: إن العودة بزمن الخروج ١٢٠ سنة إلى الخلف، إلى فترة خلو العرش بعد سقوط إخناتون، يحل معضلة آثارية كبرى ومشكلة تاريخية حقيقية، ويتطابق موعد دمار أريحا، مع موعد دخول الإسرائيليين إليها. كما يحل لنا مشكلة مستعصية تفسر وجود الفلسطينيين بفلسطين قبل دخول الإسرائيليين إليها، ولماذا حملت كنعان اسم أرض الفلسطينيين حتى في التوراة ذاتها، لكنها لم تحمل يوما اسم أرض الإسرائيليين، وهو الأمر الذي لم يزل بعد قيد البحث في كتابنا: النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة.



قدماء العرب والإسرائيليين

رغم أن ذكر العرب فى التوراة لا يظهر بوضوح كاشف، إلا مع الأحداث التى يفترض أنها دارت حوالى عام ألف قبل الميلاد، أى مع قيام مملكة إسرائيل التى أسسها (شاؤول) ودعمها (داود)، ويعد مؤسسها الحقيقى (سليمان بن داود)، فإن ذات التوراة تذكر أموراً يمكننا أن نستنتج منها، أن العرب أحد أقدم العروق فى التاريخ، حسب شجرة الأنساب التوراتية، لكن من البداية يجب أن نقر أنهم هم أنفسهم لم يشعروا بوحدة جنسهم إلا فى المرحلة القبل إسلامية مباشرة.

وفى السفر المعروف بسفر التكوين، أول أسفار التوراة، نجد ذلك الشخص القديم المعروف باسم (عابر)، وهو ابن شالح ابن ارفكشاد ابن سام ابن نوح، وتقول: إن (عابر) هذا كان أبا لفرعين أو عرقين من البشر، (العرق العبرى) الذى جاء منه الإسرائيليون فيما بعد، وينتسب ذلك العرق (العبرى) باسمه للأب (عابر)، وعرق آخر هو (اليقطانى) نسبة إلى (يقطان بن عابر)، ثم يستطرد النص قائلا: «ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارح وأوزال ودقلة وعيبال وأبيمال وشبا وأوفير وحويلة ويوباب، كل هؤلاء بنو يقطان» (انظر سفر أخبار الأيام الأولى).

وبإعمال النظر فى أبناء (يقطان) ستجد أنها أسماء تشير جميعا إلى مواضع فى الجنوب العربى (اليمن)، ومعلوم أن أسماء المواضع كانت تسمى بأسماء أشخاص كما هى عادة التوراة. كما أن اسم (يقطان) نفسه يحيلنا إلى نطقه العربى (قحطان)، ومن ثم فإن المقصود هنا هم العرب القحطانية سكان الجنوب اليمنى. وقد رصد المؤرخون للعرب اسم (قحطان). كجد بعيد لقبائل عرب الجنوب، مقابل (عدنان) الجد البعيد لعرب الشمال.

وسيكون المعنى أن حفيد نوح المعروف باسم (عابر)، كان الأب المشترك لكل من العبريين فى جانب، والعرب الأقحاح (القحطانية) فى جانب آخر، ولنلحظ أن المفردات

(*) لم يسبق نشره.

(عابر) و (عبرى) و (عربى) تعود جميعا إلى جذر لغوى واحد، كما أن (عربى) بالقلب اللسانى تصبح (عبرى).

الخط العبرى فى الجزيرة

ويمتد خط النسل من عابر حفيد نوح ليصل إلى إبراهيم الخليل، وتوضح التوراة أن إبراهيم قد أنجب ولدين هما: إسماعيل وإسحق، وأن أسحق أنجب ولده يعقوب المعروف باسم إسرائيل، وعنه تناسل الإسرائيليون، بينما على الجانب الآخر أنجب إسماعيل أولاداً يحملون أسماء واضحة العروبية، منها قيدار، وتيماء، ودومة (دومة الجندل)، ونبايوت.. الخ.

ومن ثم سنجدنا فى جزيرة العرب، بإزاء خطين لعرقين منفصلين، عرق أصيل فى الجنوب هو العرق القحطانى، والذى أطلقت عليه كتب السير والأخبار الإسلامية لقب العرب العاربة، أى العرب الأصيلة فى العروبية، وعرق آخر جاء عبر إسماعيل (العبرى) شقيق إسحق وعم إسرائيل وابن إبراهيم، ونحن نعلم من كتب الأخبار الإسلامية، أن إسماعيل كان أب العرب الشمالية (من الحجاز فما نحو الشمال) المنعوتة بالعرب العدنانية، ومعلوم أيضا فى ذات المأثور أن العرب العدنانية ليست أصيلة العروبية، إنما اكتسبت العروبية اكتسابا بنزوحها إلى الحجاز قادمة من الشمال، لذلك أطلق عليها التراثيون المسلمون لقب (العرب المستعربة) أى التى استعربت ولم تكن من الأصل عربية، والمطالع لمأثورنا الإسلامى التاريخى، سيجد اتفاقا واضحا على أن إبراهيم وولده إسماعيل لم يكونا من العرب، إنما وفدوا على أرض العرب أغرابا عنها، وأنهما كانا يتحدثان السريانية، وبمعيشة إسماعيل بين العرب اكتسب اللسان العربى(!!).

ولعله من الواضح سواء فيما أوردته التوراة، أو أوردته كتب السير الإسلامية، أن كليهما ليس إلا رجع صدى لأيام خوال وذكريات قديمة، تشير لعنصر عربى أصيل هو العنصر القحطانى، وعنصر غريب وافد هو العنصر العدنانى، وأن الأول كان يسكن الجنوب اليمنى، بينما استقر الثانى شمالا فى الحجاز، وهو الأمر الذى يلتقى مع الواقع الجغرافى للجزيرة المنفتحة شمالا على ما جاورها، تستقبل هجرات وتدفع بأخرى، وهو ما يعنى ثانيا أن سكان الجزيرة الأصلاء دوما خلال التاريخ البعيد، هم العرب الذين عرفوا باسم العرب اليقطانية أو القحطانية.

لكن الغريب في الأمر جميعه، أن يصبح حديث التاريخ المطول عن العرب العدنانية المستعربة، وساعد على ذلك قربهم أو انفتاحهم على الحضارات المجاورة (جغرافيا)، وهي الحضارات التي تركت مدونات سجلت لنا بعض ما يتعلق بعرب الحجاز العدنانية، حيث نجد في نصوص التوراة أن من ولد إسماعيل كان (قيدار) و(نبايوت)، ويبدو أن (قيدار) هذا سكن شمالا على تخوم الحضارات القديم، بينما استقر (نبايوت) في أرض الحجاز، وقد رصدت نصوص بلاد الرافدين، وبخاصة نصوص الملك (أشور باني بعل) قصة صراع حدث بينه وبين قبيلة (قيدار)، كذلك رصدت التوراة صراعا آخر حدث بين ملوك دولة يهوذا والقيداريين، مما يشير إلى قيدار كقوة لا يستهان بها آنذاك، ويبدو أن القيداريين قد اشتغلوا بما آدر عليهم ربحا كثيراً جعل منهم قوة، ومضربا للمثل في الفخامة، وهو ما يؤخذ من سفر نشيد الإنشاد بالتوراة، المنسوب لسليمان، والذي تصف فيه شولميت (سلمى بالعربية) نفسها، بقولها تجملا: «أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم، **كخيام قيدار**، كشقق سليمان»، فساوت في الجمال بين خيام قبيلة قيدار العربية وبين شقق أو قصور سليمان المعروفة في التراث الديني بالفخامة إلى حد الأسطورية.

أما (نبايوت) فهو ما سجلته كتبنا الأخبارية باسم (نابت بن إسماعيل)، واحتسبته الأصل الحقيقي للعرب العدنانية التي استقرت في الحجاز، وكثر ذكره في أشعار العرب مما يشير إليه كحقيقة واقعة، ونموذجا لذلك شعر (عمرو بن مضاض الجرهمي) الذي يسجل صراعا حدث بين العرب القحطانية ومنهم قبيلته جرهم، وبين العرب العدنانية، ويشير إلى انتصار مؤقت للقحطانيين اليمنيين استولوا بموجبه على سيادة الحجاز بحيازة الكعبة المكية، وللاختصار نورد بيتين من ذلك الشعر القائل:

وكنا ولاة البيت من نابت	نطوف بذلك البيت والخير ظاهر
ونحن ولينا البيت من بعد نابت	بعز، فما يحظى لدينا المكاثر

ولا تفوتنا هنا ملحوظة أساس، فنحن نعرف عن اليمن القحطاني أنه عرف الكتابة ودونها فيما يعرف بالخط المسند، لكن استمرار الغرابة، وللتاريخ أفاعيله، أن اللغة العربية الحالية لم تتطور عن أصول عربية قحطانية أصيلة، إنما تطورت عن الخط النبطي الذي وجد مدونا في مملكة الأنباط على حدود الجزيرة الشمالية، وهو ما يوعز بارتباط ما مع (نابت) أو (نابط) أو

(بنايوت) ابن إسماعيل العبرنى المستعرب، فعربيتنا الحالية هى الخط التطورى عن خط نابت أو الخط النبطى المستعرب وليس العارب.

أما الصراع بين العرب العارية والعرب المستعربة، فيبدو أنه قد استمر طويلا، حول مكة بالذات، باعتبارها أهم محطة تجارية على الخط التجارى العالمى القادم ببضائع الهند وإفريقيا من اليمن إلى أرض الحضارات الشرق أو سطية، كما يبدو أن العرب الأصلاء ظلوا على انتصاراتهم وعدم نفريطهم للمستعربة حتى زمن (قصى بن كلاب)، الذى أقصى آخر قبيلة عارية يمنية عن مكة، وهى قبيلة خزاعة، ليقرّش عرب الشمال المستعربة تقريشا، أى يجمعهم ويؤلفهم ويوحدهم، ويأخذوا سمت السيادة العروبية فى زمنه، وما تلى ذلك من أزمان.

لكن ما لا يفوت المدقق هنا، أنه قبل زمن تلك الأحداث بأزمان، ترقى إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، كان عرب الجنوب القحطانية، الحمر أو الحميرية، قد اندفعوا بهجرة كبرى من الجنوب نحو بوادى الشام ليستقر فرعهم المهاجر على سواحل المتوسط الشرقية بطول الساحل السورى اللبنانى الفلسطينى، والذين عرفوا هناك باسم الكنعانيين أو الفينيقيين، وذلك قبل ظهور الفرع الإبراهيمى بكل خطوطه أصلا، وأن ذلك الفرع الإبراهيمى عندما هبط فلسطين تكلم بلسان كنعان، أو بشفة كنعان كما قرر سفر إشعيا بالتوراة، لكن اللسان كان قد تغير بمرور الزمن والمكان، وهو مايعنى أن التطور التالى للعربية عن العربية العدنانية النبطية أو النابتية، كان بضاعة عربية ردت للعرب، بعد تحولات، ومفردات كثيرة جديدة دخلت المعجم العربى الأصلى، جعلت الفارق بيّنا شاسعا، لكنه إشارة للأصل، ما دمنا نتحدث عن الأصول، ومن وجهة نظر أخرى يمكن القول أن ذلك جميعه كان إثراء للغة العرب.

أصول العرب العدنانية

هنا لا يملك الباحث إلا أن يقف مدهوشاً أمام الترميزة الإسرائيلية التى تربط العنصر الاسماعيلى العدنانى بالعنصر العبرانى الإسرائيلى بصلات قرابية، وتعود بكليهما إلى أصول أولى واحدة، وحتى يمكن بدء المحاولة لفك الرموز، يجب البحث عن هجرة حدثت، كان اتجاهها قادما من دول الحضارات المجاورة لبوابة الجزيرة المفتوحة من الشمال، وأن تلك الهجرة لسبب أو لآخر قد اتجهت نحو عمق الجزيرة لتستقر أولا فى شماليها، بينما يوغل

آخرون من المهاجرين إلى الحجاز وما حواليه. ويشرط أن تكون تلك الهجرة قد تمت قبل عام ألف قبل الميلاد بمدة مناسبة، تسمح بظهور قبائل قيدار التى ذكرها سليمان وأسفار الكتاب المقدس التى تحدثت عن أحداث بداية الألف الأولى قبل الميلاد.

وهنا سنجد أمامنا ثلاث احتمالات ترتبط بهجرات حدثت على التوالى، الأولى هى هجرة الهكسوس إلى المنطقة واحتلالها، واحتلال مصر ضمن مناطق أخرى، أما الثانية فهى خروج الهكسوس من مصر فى هجرة مضادة عند طردهم منها، ثم تأتى الثالثة فى خروج بنى إسرائيل وبقايا أسرى الهكسوس من مصر أيضا، وقد حدثت الهجرات الثلاث فى زمن متقارب وعلى التوالى، ويكاد الفارق بين الهجرات الثلاث يذوب عندما نعلم أن هجرة أساسية إلى داخل مصر ومنها إلى الخارج كانت لعنصر واحد هو الهكسوس، وأن هجرة بنى إسرائيل بدورها لم تكن غريبة على الهكسوس، فهم فيما تحت أيدينا من وثائق - ليس هنا مجال مناقشتها - أحد البطون القرابية لهؤلاء الهكسوس.

وقد سبق لنا وناقشنا مصدر الهجرة الهكسوسية فى كتابنا (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول)، وأعدناها إلى المنطقة الكاسية الواقعة على الفرات الأعلى عند بحيرة فان (أرمينيا حاليا)، وأنهم الذين احتلوا العراق باسم الكاسيين، واحتلوا مصر باسم (هـ - كاس) أو (الهكسوس) بأداة التعريف العبرية أو العربية الشمالية (هـ). وقد كان الهكسوس عدة بطون وأفخاذ تزّعمهم عنصر من بينهم، وقد دخل بنو إسرائيل فى زمرتهم آخر سنين حكمهم فى مصر، وكانت الصلات القرابية والثقافية واللغوية مبرراً كافيا ليرتقى أحد الإسرائيليين سدة وزارة المال والخزانة فى مصر، وهو ما تمثله قصة يوسف بن يعقوب فى التوراة. ومن بين عناصر الهكسوس تلك القبيلة التى حملت لقب (قاطعو الرقاب)، والتى كتبت بالمصرية (سا - جاز) (هـ كاس) أو (هـ كاز) ويبدو أنها كانت القبيلة الزعيمة التى أعطت لجموعهم اسم الهكسوس، وربما كان الدكتور لويس عوض محقا فى ربطة ذلك فى إشارته إلى أنهم هم من أكسب الحجاز اسمه، بعد طردهم من مصر.

وربما عن لنا أن نضيف هنا، أن الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر بعد ذلك، متأثرين بعقيدة إخناتون التوحيدية، وعبادة إله أوحد كتبه المصريون (آتون)، وكتبه الإسرائيليون (أدون) أى السيد/ الرب، ربما كانوا هم أصل كلمة (عدن) فى العرب العدنانية، حيث أن (أدون) أو (أدن) يمكن ببساطة أن تنطق (عدن) بقلب الهمزة عينا، وهو أمر وارد فى

الساميات، وربما أحلنا هبوط هؤلاء التابعين لعدن أو أدن جنوبا نحو جزيرة العرب، إلى الصراع الذى دار فى قادش على حدود سيناء الشرقية، بين الخارجين من مصر، والذى لا شك أدى إلى انفصال اتجه بموجبه كل فريق وجهة تخالف الآخر، فاتجه أحدهم نحو فلسطين، بينما اتجه الآخر نحو الحجاز وهو الأمر الذى يفسر لنا ذلك المدهش فى عمل على فهمى خشيم فى كتابه (آلهة مصر العربية)، وهو الكتاب الذى قدم جهداً، للتدليل على أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة ليستا تؤمتين، بل هما لغة واحدة، وقدم لنا معجما وافراً رائعا حقا، وهو ما يجعلنا نظن أن تلك الهجرة التى حدثت من مصر، بعد أن عاش المهاجرون فى مصر نحو أربعة قرون، اكتسبوا فيها عقائدها ولغتها، هى تلك التى عرفت بعد ذلك بهجرة العرب العدنانية إلى جزيرة العرب، خاصة وأن التوراة قد أشارت بما لا يدع مجالا للشك، أن لفيفاً عظيما من المصريين، قد خرج مع الخارجين، وهم من نظنهم الاتباع المخلصين لعبادة (أتن) أو (عدن) الإله الواحد، وهم من نظنهم كانوا الطرف الثانى فى صراع قادش مع الطرف الإسرائيلى الذى عبد (يهوه) إله البراكين والثيران فى سيناء، وأنهم هم من اتخذ سبيله جنوبا إلى جزيرة العرب ليحملوا اسم العرب العدنانية، احتمالات نرجحها، وهى قيد البحث المطول بين أيدينا الآن، فى كتاب: (النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة)، ولا نعلم الآن هل سيؤيدها البحث أم سينفيها.

أما النبى إبراهيم نفسه فقد كان من المنطقة الكاسية التى قدمت منها هجرة الهكسوس إلى مصر، وبالتحديد من الولايات الأرامية أو الأرمينية، لذلك كان يعقوب (إسرائيل) يردد دائما «أراميا تائها كان أبى» وهو التعبير الذى يشير إلى حركة انتقالية واسعة للأب إبراهيم ونسله فى المنطقة.

وبعد، لا يغرب عن بال قارئنا أن كل هذا الحديث عن ذلك الموغل فى التاريخ القديم، لا علاقة له بدولة إسرائيل الحالية، فلا علاقة البتة بين الشراذم المؤتلفة الآن فى إسرائيل، والتى تجمعت من أنحاء مختلفة وأوطان شتى، لا يجمعها سوى العنصرية الدينية، وبين قبيلة بنى إسرائيل التاريخية من بنى يعقوب، إن الموجودين الآن فى إسرائيل ليسو عنصرا ولا جنسا واحداً، إنهم فقط مجرد يهود. وعلاقة أى فرد منهم بأبطال التاريخ الإسرائيلى مثل موسى أو إبراهيم، لا تزيد ن علاقة مسلم من بلاد الصين بنبى الإسلام.

معارك فكرية



هل بنى الفراعنة الكعبة؟!
تصحيح مغالطات

دأب د. سيد كريم على مطالعتنا بمجلة الهلال، بنظريته حول علاقة الديانة المصرية القديمة بديانات البدو الساميين، وبخاصة عقائد أهل جزيرة العرب، وهو رأى بحد ذاته يتسم بكثير من الصحة والوجاهة. وقد ذهبت كثير من المدارس العلمية إلى القول بتأثير مصر القديمة فى عقائد جيرانها، وألف أصحابها فى ذلك مؤلفات شتى، ولنا فى ذلك مؤلف خاص حول عقيدة الخلود المصرية، بحسبانها النبع الأصيل لعقيدة الخلود، التى ظهرت بعد ذلك فى ديانات حوض المتوسط الشرقى، بعنوان (رب الثورة: أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة).

لكن التحفظ الأساسى على كتابات د. كريم يتأسس من البداية، على طريقة المعالجة، ومدى التزامه بشروط البحث العلمى ومنهجه، وعلى مدى صدق مقدماته التى كثير ما أدت إلى نتائج أكثر بطلانا منها. ولما كانت معالجة كل موضوعات السيد الدكتور المنشورة، إطالة لا حاجة إليها، لأنه يدور باستمرار حول فكرة واحدة وهدف واحد، فقد تخيرنا أخطر هذه الموضوعات، وأكثرها شمولا لأفكاره المكررة فى مختلف كتاباته، وهو المعنون بـ «قدماء المصريين وبناء الكعبة»[1].

والغريب إنه رغم خطورة هذا الموضوع فقد مر مرور الكرام، ولم نسمع أو نقرأ عليه تعقيباً، على حد ما نعلم، مما أعطى السيد الدكتور الضوء الأخضر للإستمرار والمثابرة.

وواضح من البداية أنى لن أكون مجاملا، وفق حسابات بسطة تماماً، أولها أن ميدان البحث العلمى، ميدان لا يصح فيه لفارس تجاوز شروط الفروسية، وقواعد اللعبة، لتحقيق قصب السبق. وأعتذر عن استخدام تعبير (اللعبة)، فى حديثى عن العلم وشروطه، لأن الموضوع برمته كان عند د. كريم مجرد لعبة. وثانى هذه الحسابات هو أن القارىء أمانة،

(*) نشر بالعدد ٨١ من مجلة القاهرة الصادر فى ١٥/٣/١٩٨٨.
(١) د. سيد كريم: قدماء المصريين وبناء الكعبة، مجلة الهلال، فبراير ١٩٨٢.

والكلمة أمانة، وأول شروط البحث العلمى هى الأمانة. ورغم بساطة الحسابات، فإنها لم تترك لنا بصرامة حقوقها (وهى لوجه الحق، حق، وأحق أن تتبع) أى فرصة للمحاباة أو المجاملة.

موجـــز الأمــــر

ويقوم مقال د. كريم على فكرة أساسية تسلطت عليه، مفادها: أن المصريين القدماء، قد اكتشفوا مبدأ التوحيد فى العقيدة الإلهية، منذ بداية الأسرات الفرعونية الحاكمة، وربما قبلها، ومن ثم قام يبنى على فكرته قصة ملخصها: أنه عندما قامت الثورة الكبرى فى مصر القديمة ضد الملك، وضد الكهنة ورجال الدين، فى نهاية الأسرة السادسة الفرعونية[٢]، هرب كهان مدينة (منف) - ويزعم الكاتب أنهم قوم موحدون - إلى الجزيرة العربية، حيث اكتنوا هناك بالكنية (بنى مناف)، أو أهل منف، بينما أطلق عليهم الفراعنة اسم (جرهم) أى مهاجرى مصر، وأن النبى إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) عندما ترك سريته (هاجر)، مع رضيعها (إسماعيل) فى جزيرة العرب، ووجدت نفسها وسط أعراب لا تعرف لغاهم، لجأت إلى قبائل (جرهم) المصرية، الذين آووها، وأمكنها التفاهم معهم. وكان (بنو مناف أو الجراهمة) قد أقاموا فى هذا المكان بيتاً للرب هو (الكعبة)، على غرار كعبتهم المصرية التى تركوها فى منف وتعرف حاليا بـ (هرم ميدوم)، ثم يلقى القول بذكاء: «وليس هناك من شك فى أن زيارة جميع الأنبياء إلى الكعبة، ابتداءٍ من سيدنا إبراهيم إلى إسماعيل وشعيب وموسى، قد بدأت جميعها بعد زيارتهم لمصر، وتفهم عقيدة التوحيد وإيمان المصريين بالبعث والحساب والآخرة وخلود الروح»، ثم يزيد فيقول: إن إشارة النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) أنه خيار من خيار، من خيار قريش، وأن قريشاً من كنانة، فإن كنانة لم تكن قبيلة فى جزيرة العرب كما كنا نتصور، إنما هى (مصر الكنانة)، وأن النبى (صلى الله عليه وسلم) يشير بذلك إلى أن أسلافه إنما كانوا مصريين.

والعجيب فى أمرى مع د. كريم، أنى ألتقى تماما معه فى القول بهجرة مصرية إلى جزيرة العرب، كانت سبباً فى نشوء اتجاه دينى هناك. وقد عالجت هذا الأمر فى بحث

(٢) يفترض د. كريم أن الثورة المصرية الأولى فى العصور القديمة قد حدثت إثر انهيار الدولة القديمة أى بعد سقوط الأسرة السادسة، سيراً مع الافتراضات الشائعة، ولنا فى ذلك اجتهاد يعود بزمن الثورة إلى ماقبل ذلك، بل ونعتبر أن هذه الثورة كانت سبباً فى سقوط الدولة القديمة، وليست نتيجة لها، ارجع إلى كتابنا (أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة) صادر عن دار مدبولى الصغير للنشر، وقد ناقشنا فيه مسألة التوحيد باستفاضة بخاصة فى الفصلين الأولين.

خاص، كنت أود إرفاقه بهذا التعقيب لولا أنه سيضيف مساحة يضيق بها المتاح فى عدد واحد، إلا أن أول ما يزعج أى عارف بتاريخ مصر هنا، هو قول د. كريم: أن الثورة المصرية ضد الملك والكهنة فى نهاية الأسرة السادسة، هى التى أدت إلى هجرة أصحاب (منف) إلى جزيرة العرب. وقوله بصريح العبارة أنهم أصحاب عبادة الإله (رع). ومصدر الإزعاج هنا هو أن منف كانت مقرا لعبادة الإله (فتاح) وليس (رع)، وإن الإله (فتاح) قد توارى فى الظل مع مدينته (منف) بعد أن قام كهنة الإله (رع) بانقلاب دينى وسياسى فى الوقت ذاته، واستولوا على الحكم فى نهاية الأسرة الرابعة، وأسسوا الأسرة الخامسة الحاكمة، واستمروا فى الحكم فى الأسرة السادسة. وكانت مدينة الإله (رع) المقدسة، هى مدينة (أون) عين شمس الحالية، وليس مدينة (منف).

وبذلك تكون الثورة الشعبية التى قامت ضد الملوك والكهنة، قامت ضد ملوك وكهنة الإله (رع) فى (أون) وليس فى (منف)، ويكون الإله (رع) إله مدينة (أون) وليس إله مدينة (منف)، مما يشير إلى خلل خطير فيما قدمه السيد الدكتور لقارئه، أما إن أراد صدق المراد، فإن هجرة أهل (منف) تكون قد سبقت الثورة الشعبية بحوالى ثلاثة قرون أو أكثر، عندما حدث الصدام بين (منف) و(أون)، أو بين أتباع (فتاح) وأتباع (رع)، الذى انتهى باستيلاء (رع) وأتباعه على سدة الحكم.

ومن هنا، فإذا كنا نلتقى مع السيد الدكتور فى أمور، فإنا نخالفه فى أخرى، وهى ليست مخالفة لمجرد المخالفة، إنما سيراً مع صحيح الأمور وتاريخيتها. أما أشد تحفظاتنا فهى تتعلق بمدى التزام الكاتب ـ أى كاتب ـ بالحياد والموضوعية وتحرى الحقيقة، بحيث لا يميل مع هواه كل الميل، فيفسر النصوص على الرأى الخاص ليؤكد فكرته. ومن هنا، وتأسيساً على ذلك، سنناقش ما كتبه د. كريم بمعيار واحد، هو مدى التزام الصدق العلمى وشروط تحقيقه.

الآلهة المصرية

لقد كان جميلا من د. كريم أن يحاول اكتشاف جديد، يضيفه إلى مجموعة إبداعات وكشوف المصريين القدماء، فقام يختار (مبدأ التوحيد) ليضعه من بين أول الكشوف التى وصل إليها المصريون فى (منف)، منذ بداية الأسرات وقيام الدولة المركزية، أى منذ حوالى خمسة آلاف عام مضت، وبذلك يؤكد فى موضوعه أنهم كانوا أساتذة عرب الجزيرة فى

ذلك، عبر الأنبياء الذين زاروا مصر وتعلموا فيها التوحيد، ثم عادوا يعلمونه فى جزيرتهم، وعبر الهجرة الكبرى لكهان (منف) بعد الثورة إلى الجزيرة.

والسيد الدكتور لا شك - بمقصده - يريد أن يرفع أكثر من شأن قدامى المصريين وينزع عنهم شبهة التعدد فى العبادة. وهو فى ذلك يبرهن على وفاء لمصر، وحب نادر المثال مشكور، لكن البحث العلمي شيء، ومعانى الحب والكره والوفاء أو عدمه، شيء آخر، لا مكان لها فى قاموس البحث العلمى، ولعله لم يغب عن بال السيد الدكتور أن مصر العظيمة بأفضالها على الإنسانية، وبكشوفها فى مجال الفكر والتحضر، ليست بحاجة إلى محاولات جديدة، كأن تكون أصل التوحيد الإبراهيمي، خصوصاً أن المصدر الأقدم عن رواية النبى إبراهيم ورحلاته وعبادته (أقصد التوراة، وكانت المصدر الوحيد فى ذلك حتى مجيىء الإسلام) ليس فيها ما يشير إلى عبادة واحدة، ولا تشير التوراة فى قصتها عن النبى إبراهيم وعهده إلى إله واحد، بل إلى (إلوهيم) أى مجموعة الآلهة. ولم نعرف عن النبى إبراهيم أنه كان موحداً إلا عندما جاء القرآن الكريم، وأوضح أن إبراهيم النبى هو أصل التوحيد الحنفى.

نعم ولا شك أن القول بكشف المصريين لهذا المبدأ الدينى الذى يمركز العبادة فى ذات واحدة، ينسب لهم قصب السبق فى أمر هو من الفتوح المبينة. لكن المشكلة أن ذلك لم يحدث، وإن كان قد حدث فلم يحدث إلا بعد ذلك بقرون فى عهد إخناتون على ما يزعم البعض. هذ إضافة إلى أن د. كريم لم يكن موفقاً كل التوفيق وهو يحاول ذلك.

ولعل أول ما يعترض مقولة د. كريم، القائلة: إن أهل (منف) فى الأسرة القديمة أول الموحدين، هو أن المصريين القدماء لم يعرفوا التوحيد بالمعنى المطلق الذى عرفناه فى الإسلام، (الذى يقصده د. كريم) طوال تاريخهم الدينى الطويل، فكانت الآلهة تربو على المئات، (آلهة أقاليم، وآلهة مدن، وآلهة عواصم، وآلهة للدولة، وآلهة لقوى الطبيعة، وآلهة للملوك، وآلهة الشعب) تنطبع بوجه عام بالشكل الطوطمى الممثل فى رأس الحيوان على الجسد الآدمى. وكان واضحاً أن المصريين قد توقفوا عن تطوير شئون الآلهة، ولم تشكل المسألة بالنسبة لهم قضية شاغلة، بعد أن انصرفوا إلى أمرين: الأول هو البناء السياسى والحضارى وتأمين الحدود عسكريا والتقدم العلمى الدنيوى والثانى: هو التجهز لعالم آخر مقبل يجازى فيه الإنسان على ما أتاه من أعمال فى دنياه. وكان هذا المبدأ الثانى بدوره مسألة

حضارية ملحة، حيث يقوم التعامل الاجتماعى بمقتضاها على أسس خلقية تضمن للمجتمع سلامته وتماسكه وأمنه، كى ينصرف أكثر إلى شئون الارتقاء بدولته وبحياته الأرضية، هذا إضافة إلى العامل البيئى الذى ارتبط به التعدد وسنناقشه بعد قليل.

ولعل د. كريم لم يقصد بالتوحيد ما عرفه المصريون بإله الدولة، فهو لم يكن بالمرة توحيداً إنما اعتراف بسيادة (إله الدولة) على بقية الآلهة الاقليمية. تدعيما لمركزية الحكم ليس إلا، وحتى هذا الإله السيد كان يتغير مع تغير الدولة الحاكمة، فهو بداية كان (حور)، ثم فى الدولة القديمة (فتاح)، ثم (اتوم رع)، ثم فى الدولة الوسطى الإله آمين أو (آمون) المندمج برع، بل وكان هذا الإله السيد يدخل باستمرار كضلع أكبر فى أسرة ثالوثية (أب وأم وابن). وهو أمر طبيعى يتسق وفكر الإنسان فى المراحل الأولى من تطوره، عندما كان يتصور الإله على شبهه ومثاله، ويسلك مثل سلوكه، ويتزوج، وينجب، ثم يدخل هذا التثليث فى تتسيع، حتى كان لكل مدينة تثليثها وتتسيعها الخاص، ولم يكن الإنسان فى باقى أنحاء المعمورة أكثر توفيقاً من ذلك. فرغم استفادة اليونان والرومان من علوم الشرق وبخاصة مصر، وكان يفترض فيهم ارتقاء أكثر سيراً مع سنة التطور، ولما ورثوه من تراث ثقافى عن مصر، فإنهم فعلا تقدموا وكونوا إمبراطوريات عظمى، وأضافوا للإنسانية رصيداً جديداً، ومع ذلك كانت ألهة الأولمب بالمئات إضافة إلى كم هائل من مغامرات الآلهة. كان يتلى هناك بكرة وأصيلا.

لكن يبدو أن د. كريم قد رأى فى التعدد لدى المصريين مثلبة ونقيصة، تعيب بقية علومهم وفنونهم، فأراد أن ينزههم عنها، وغاب عنه أن ذلك كان أمرا طبيعياً سواء كان آلهة بالمئات، أم تثليثا أو تتسيعاً. أم تسبيعا كما حدث لدى الرافديين من قدامى الساميين، ولم يكن له أى أثر مباشر فى تخلف اجتماعى أو حضارى بل كانت مصر رائدة فى كافة الميادين العلمية، بينما كان الآخرون فى بداءة بداوتهم ينعمون (من الأنعام) أو على الأصح يتمرغون، أيا كانت ادعاءاتهم، ولعله يعلم أن العالم المتقدم اليوم - سواء فى الغرب الذى يعتقد بالتثليث، أو فى الشرق الذى يدين بالاشتراكية العلمية - يسمى العالم المتقدم، لإنجازاته فى العلوم الدنيوية، ولو قسناه بمنطق د. كريم، لكان أشد العوالم تخلفاً. أو يصبح واجباً عليه إثبات أن الأمريكان والسوفيت موحدين!! وهو أمر لا شك عسير.

التوحيد والتعديد

وكانت فكرة التوحيد في مصر فكرة طارئة، وحالة واحدة ونادرة، حدثت فيما يزعم بعض الباحثين، إبان حكم الفرعون الشاب (إخناتون)، وانطفأت سريعاً ولم يمضي عليه في الحكم سبعة عشر عاماً، وانقضى أمرها وأنتهى، بعد ثورة قضت على حكمه، ولم يعرف مصيره بعدها. ويذهب د. كريم وراء هذا المذهب ـ وهو في ذلك معذور ـ لأن ذهابه كان وراء الرأى السائد والاتجاه الغالب بين الجمهرة ثم هو يضيف إلى حديثه عن التوحيد (الإخناتوني) لوحة جميلة للفرعون يسجد إماما وخلفه صفوف الساجدين. ولكن الذى لم يلحظه د. كريم وهو يدلل باللوحة على معنى التوحيد، أن السجود معروف في غالبية الأديان، لدى عبّاد مظاهر الطبيعة والوثنيين، وليس سمة خاصة بطقس الصلاة لدى الموحدين وحدهم، والعجيب في أمر إخناتون (وليس بعجيب) أن تفرغه لعقيدته لم يجن على دولته الإمبراطورية سوى الآنهيار، بعد أن انصرف عن شئون دولته الدنيوية، وما تحتاجه من فنون سياسية وعسكرية وإدارية إلى تصوفه وغيابه عن واقع دولته في غيبوبة غيبية، وبعد أن ترك له أجداده إمبراطورية تمتد من الجندل الرابع جنوباً في العمق الأفريقى، إلى تركيا وأرمينيا شمالا، إلى إيران شرقاً. فقد حلّت بركات الفرعون الشاب بعد أن تفرغ لشئون الدين، وصم أذنيه عن نداءات الاستغاثة التى كانت تصله من الحاميات المصرية في بقاع الأمبراطورية تباعاً، والتى حفظتها لنا رسائل تل العمارنة. تجأر بطلب العون، ضد الثورات الإقليمية التى أخذت تنهش جسد الإمبراطورية وتقتطعه جزءاً فجزء، وصاحبنا لاه في دروشته الغيبية عن غرور الدنيا، حتى عادت مصر من بعده تنكمش داخل حدودها الدولية مرة أخرى[٣].

لكن الأعجب من كل هذا هو الإصرار على أن (أخناتون) كان موحداً توحيداً مطلقاً، وهو أمر يثير الشك، فمن يذهبون هذا المذهب. من أصحاب الرأى الذين تابعهم د. كريم، لأن التدقيق في منمنمات هذه العقيدة وفسيفسائها، يكشف أن كل أشعار إخناتون وأناشيده، تشير إلى اعتقاده الجازم أنه هو شخصيا ابن الإله (آتون)، وأن فيه قد حلّت

(٣) لايخلو مصدر تناول مصر القديمة إلا وأسهب في الحديث عن دور إخناتون في ضياع الإمبراطورية، ومثالاً لذلك مصر الفراعنة لجاردنر، والحضارة المصرية لجون ولسون، وفجر الضمير لبرستد، ومصر والشرق الأدنى القديم للدكتور نجيب ميخائيل وغيره كثير.

قدرات هذا الإله وبركاته[٤]، كما أن هناك شواهد قاطعة على تقديس الثور المنفى فى مدينة إخناتون، التى أطلق عليها اسم (أخت آتون)[٥].

أما الشك فمدعاته عندنا هو أن إخناتون قد تربى فى طفولته خارج بلاده مصر عند أخواله الساميين فى بلاد ميتانى[٦] (كانت أمه سامية، ترجم اسمها عن المصرية تاى، ونرى صدق الترجمة ضى أو ضياء)، وأنه عاد إلى مصر عند موت أبيه ليتولى الحكم. ومن هنا كانت جنسيته مصرية، أما ثقافته فسامية. ويبدو أن ذلك هو الدافع الخفى الذى دفع الباحثين للتغاضى عن عبادة الثور فى أخت أتون وتأليه إخناتون لنفسه، وإغفالهم المتعمد لذلك، بحسبانهم الساميين أصحاب الإكتشاف التوحيدى، بينما كل ما فعله (إخناتون) فى رأينا هو محاولته تسييد إله سامى غريب على مصر، اعتاد عبادته فى متيانى هو المعروف باسم (أدونيس)[٧]، أو باللسان المصرى الأرق (أتونيس)، وأصله (آدون) أو (آتون).

(٤) من النماذج التى يزهو فيها إخناتون بنبوته للإله آتون (على سبيل المثال):

لقد خلقت الناس
ليعيشوا من أجل ابنك
الذى خلق من أطرافك
ذلك الملك الذى يعيش فى الحقيقة

أو

طالما أبى آتن يعيش
فإنى سأقيم اخت آتن
لأبى آتن

أو وصف وزير خارجيته له بقوله:

أنت الذى بشكل الإنسانية
ويهب للأجيال حياتها
ثابت ثبات السماء
التى يعيش فيها آتن

ارجع إلى فليكوفسكى: أوديب وإخناتون، ترجمة فاروق فريد، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربى، ص ٥٨ : ٦٠.

(٥) يقول جاردنر: «وهناك إشارة غريبة جاء فيها أن عجل منف فى هليوبوليس يجب أن يدفن هو كذلك فى أخت آتون، وهى دلالة أخرى على اعتماد الآتونية الجديدة على واحدة من أقدم العبادات فى مصر، وكان وضع خراطيشه بجوار خراطيش آتون تدل على أنه كان لاينفر إطلاقاً من ادعا نصيب من ألوهية أبيه المقدس». ارجع إلى سير ألن جاردنر فى كتابه مصر الفراعنة، ترجمة د. نجيب ميخائيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٨٧، القاهرة، ص ٢٤٨ و٢٥٥.

(٦) عن تربية إخناتون فى ميتانى. ارجع إلى فليكوفسكى فى المصدر المشار إليه آنفاً.

(٧) عن الإله أدونيس. ارجع إلى موضوعنا (إلهة الجنس والزهرة ـ آفاق عربية، عدد ٩ ـ ١٩٨٢ بغداد) وإلى موضوعنا (البعد الأسطورى للشيطان فى التراث الشرقى) مجلة فكر للدراسات والأبحاث، العدد ١٠، القاهرة.

ويبدو أن المصريين قد رأوا في ذلك خيانة لآلهة البلاد الوطنية التي عادة ما كانت ترتبط بمعنى المواطنة وبالوطن ذاته، ومن ثم كانت عبادة آتون خيانة عظمى، استوجبت الثورة على البدعة الوافدة، التي لم تكن ثورة من وثنيين مصريين متخلفين، على ديانة راقية بدوية سامية موحدة، كما حاولوا تصوير الأمر، واستحق إخناتون بعد ذلك أن يلقبه مواطنوه (مجرم أخت آتون)، أما تلاميذ المدارس فقد ظلوا زمانا يتدربون على كتابة مواضيع إنشاء عن (الخائن من أخت آتون)[8].

ولعلي أكون مخطئا، وربما أكون مصيباً، عندما أطرح تصوري لمسألة التوحيد والتعدد في التاريخ الديني، مرتبطة بالظرف البيئي، لكنه اجتهاد شخصي يصح قبوله أو رفضه، ويقوم هذا التصور على الفصل والتفريق بين البيئة الزراعية النهرية، والبيئة البدوية الصحراوية، ففي البيئة الزراعية تتعدد أشكال الطبيعة ومظاهر الحياة تعدداً ثريا هائلا، (أنهار دافقة، شلالات، أحجار جامدة، شجر، طيور، حيوان نافع، حيوان ضاري، كائن ضخم قوي، حشرة ضعيفة، موسم خصب، موسم جفاف، أصوات وضجيج من كل نوع، سيمفونية نعرفها نحن أهل الوديان الخصبة، تضج بالنقيق والعواء والثغاء والتغريد والهدير).

وفي المقابل نجد البيئة الصحراوية ضنية بالشكل واللون والصوت، مظاهر الحياة محدودة جداً وتكاد تنعدم، فالصحراء تترامى أطرافها دون طارىء جديد، فهي رتيبة الوقع متشابهة دائما، مشهد واحد باستمرار، ولون واحد باستمرار، أصفر مسترخي يتمطى في كثبان متلوية، وزمن هادىء التوقيع، نادر المفاجآت، والإيقاع الدائم تثاؤب وقيلولة في صمت ممتد أبدا. ومن هنا نزعم أن العامل البيئي أدى دائما بالبدو إلى نظرة مصبوغة بالتوحد والوحدانية، مقابل أثر التعدد الهائل للحياة وصخبها في الحياة النهرية الزراعية، مما دعى إلى اقتراب البدوي من معنى الواحد مقابل المتعدد عند المزارع.

ومع ذلك عندما كانت تتعد المظاهر، كان البدوي يعدد، فهو مرة يعبد ألتيس، ومرة يسجد للصخر، ومرة يثور البركان فسيجد للبركان مرتعدا، لكنه كان التعدد البسيط السهل، بما لا يقارن بمظاهر بيئة المزارع الضجوج الخجوج المتغيرة المتلونة دوما، وما كان أسهل أن يكشف البدوي قيمة خروفه، وأهمية القمر في ليل الصحراء الصامت المفزع، فيقرن بين قرني الخروف وقرني الهلال، فيسجد عابدا، ويهتف الباحثون: مهللين لقد تم التوحيد، وأصبح الخروف قمرا، في أقنوم واحدا!!.

---

(٨) «ظل جيلان بعد إخناتون يشيران إليه: العدو من اخت آتون»، جاردنر، المصدر السابق، ص ٢٦٢ .

مغـالطـــــات

ويبدو أن د. كريم لم تتقبل نفسه أن تكون هاجر مجرد جارية، منحها فرعون مصر للنبى إبراهيم ليتسرى بها، على ما جاء فى التوراة. ولا نعلم هل كان ذلك ترفعا بها عن ذلك، أم ترفعا بالنبى عن معاشرة الجوارى؟ وكليهما كان واقعا فى العهود الخوالى. فلم يكن هناك حرج على الأنبياء والمؤمنين من إتيان ملك اليمين والتسرى بالجوارى والإماء. لكن د. كريم يعامل الماضى بذوق الحاضر، فيؤكد أن هاجر كانت إحدى أميرات البيت المصرى المالك، فى الأسرة الثانية عشر الفرعونية، حوالى عام ١٨٩٠ ق.م، بالتحديد والتدقيق والتمحيص والتفحيص المبين. ثم لا يعطينا أى أفادة بالمرة عن مصدر هذا اليقين، ولا من أى مصدر أثارى أو آركيولوجى استقاه! ونؤكد له، ولقارئنا الذى نحترمه ونحترم وقفته لمطالعتنا، أنه ليس هناك مصدر أثارى واحد يقول ذلك. ولم يعثر حتى الآن على وثيقة مصرية واحدة تشير إلى النبى إبراهيم وإلى زيارته مصر، لا من قريب ولا من بعيد، ولا بالرمز، ولا بالاشارة، ولا حتى بنص يحتمل التأويل، كما لم تشر النصوص المصرية إلى دخول اليهود مصر زمن النبى يعقوب، مع ولده النبى يوسف ولا حتى لموسى، ولا لرحلة الخروج الشهيرة فى التورارة، وهو أمر أثار حيرة الباحثين طويلا حتى اليوم، وكتب فى ذلك مصنفات شتى لعلماء أجلاء. لم يستطع واحد منهم أن يعطى مثل جزم د. كريم الواثق القطعى هذا. ونحن بالطبع لا ننكر أن ما جاء فى قصص الأنبياء وزيارتهم لمصر قد حدث، لأن ذلك أمر يعد لدينا بدهية تتأسس على إيمان راسخ بالكتب السماوية، لكن ما ننكره هو الادعاء بما لم تكشف عنه آثار مصر حتى الآن، وما نستنكره هو أن يقدم لنا د. كريم ذلك فى صيغة التقرير، فى حين كان يجب عليه تقديمه فى صيغة التقدير، كرأى وتقدير شخصى، وحتى الرأى الشخصى لا يلقى على عواهنه دون توثيق أو مبررات كافية.

ثم يجازف الدكتور مجازفة مفزعة حقا، تصيب الباحث بهلع شديد، فيرفق بموضوعه لوحة فرعونية تصور شخصيات توضح سيماهم أنهم من البدو الساميين، وسبق لى أن لاحقت هذه اللوحة فى المصادر، فلم أجد عليها تعليقا أكثر من كونها شخصيات بدوية سامية فى مصر. لكن الأخ الدكتور يعلق بالقول الجهير: سيدنا إبراهيم عليه السلام، لوحة اكتشفت فى حفريات مدينة منف حيث زار معابدها، وتزوج الأميرة المصرية هاجر عام ١٩٨٠ ق.م، وهكذا، وببساطة يتصورها هينة، هان معها عقل القارىء، عندما يلقمه الأقصوصة وهو يطالع

بحسن نية وثقة، ليؤكد فكرة، هى لوجه الحق جميلة، لكنها لوجه الحق أيضاً قد صيغت بأسلوب أقل ما يوصف به أنه نوع من الـ (فهلوة) وغير جميل.

ولا يقنع د. كريم بذلك، إنما يتمادى، فيعرض لنا صورة لهرم (ميدوم) الواقع غربى مدينة الواسطى (تبعد عن القاهرة ٩٠ كم جنوباً)، المعروف بالهرم الكاذب لضآلة الكشوف فيه، مقارنا بلوحة للكعبة المكية، مع التعليق على صورة هرم (ميدوم) بالقول: «كعبة منف، هرم ميدوم الكاذب، بناه الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة، بنى قبل الهرم الأكبر كرمز لإله التوحيد رع، كان ثالوث معبوداته آليت وعيزت ومنى». ولا ندرى كيف ساغ له أن يتحدث عن توحيد وتثليث فى آن معا بل وتربيع بأضافة كبيرهم (رع). ثم يضيف معقبا: «عندما وصل بنو مناف أو جرهم إلى أرض مكة، أقاموا بينا للرب مماثلا لمعبدهم الجنائزى بمنف، الذى يطلق عليه حالياً هرم اللاهون، الذى بناه الملك (سنفرو) مؤسس الأسرة الرابعة ليكون كعبة للتوحيد».

والآن خلط د. كريم الأوراق جميعاً: فاصطلاح (المعبد الجنائزى) شىء، و(الهرم) شىء آخر. و(هرم منف) شىء، و(هرم اللاهون) شىء ثان. و(هرم ميدوم) شىء ثالث فهرم اللاهون يقع قرب هوارة من أعمال مدينة الفيوم الحالية، وهرم ميدوم علمنا أنه يقع قرب مدينة الواسطى، وكليهما غير هرم منف المعروف بهرم سقارة المدرج الذى بناه الملك (زوسر)، مؤسس الأسرة الثالثة حوالى عام ٢٨٠٠ ق.م[٩].

وما يبدو لنا الآن هو ان د. كريم عمد إلى خلط الأوراق كلها بسرعة خاطفة. وهو عالم بما يفعل تحقيقاً لهدف مقصود، هو أن ينقل هرم (ميدوم) إلى منف ليصبح هو الهرم (المنفى) بدلا من هرم سقارة، وذلك عبر ورقة ثالثة هى هرم (اللاهون)، بحيث يصبح هرم اللاهون هو (الجوكر)، الذى يصرف انتباه المشاهد (آسف: أقصد القارىء) عن الورقتين الأخريين فى الثلاث ورقات (هرم ميدوم بالواسطى وهو المقصود وعليه العين، هرم سقارة وهو هرم منف الحقيقى وهو المطلوب نسيانه، وهرم اللاهون بالفيوم وهو الجوكر المستخدم لإرباك الصيد: أسف: أقصد القارىء) وقبل أن يفيق القارىء لما حدث، يمد يده يريد ورقة الهرم المنفى، فيطالعه هرم ميدوم بدلا من سقارة، فيسلم القارىء بعد أن تحول الأمر إلى (فزورة) محيرة، فينسى سقارة ولا يذكر سوى ميدوم، ويقدرة قادر يتنقل هرم ميدوم إلى منف، وينتهى دور

(٩) انظر الموسوعة الأثرية العالمية، الهيئة العامة للكتاب، ص ٤٤٩.

هرم اللاهون عند هذا الحد بعد انتفاء الحاجة إليه ويدور عقل القارىء فى الطريق المرسوم له بعد أن أصابه الدوار (ويقتنع بأن الذى عدى البحر ولم يبتل، العجل فى بطن أمه) !!. ويحقق الدكتور ما يريده. وما يريده هو ميدوم بدلا من سقارة هرما لمنف، لا لشىء إلا لأن صورة هرم ميدوم تشبه الكعبة، وهو شبه لا يمكن لمسه فى الواقع، إنما يمكن تمريره عبر صور مطبوعة غير واضحة ملتقطة عن بعد، تزيد فى ضبابيتها عوامل الطبع أو الطبخ، ومع الطبخ لا يأكل القارىء ملبن إنما يأكل مقلب.

وهرم (ميدوم) مصاطب تهدم أعلاها، إضافة إلى أنه أقرب إلى التكعيب، وكان للعوامل الجوية وللتعرية أثرها فى تآكل الطبقة الملساء من صفائح الجير الأبيض التى تشكل كسوة للأحجار، وقد حدث التآكل على شكل شريط عند الثلث الأعلى من الهرم، فبدا لعيون د. كريم شبيها بالشريط الذى يحيط بالثلث الأعلى من الكعبة، وهو عمل فنى حديث جدا قام به المصريون المحدثون المسلمون، عندما كانت مصر ترسل للكعبة كسوتها، وكان الغرض من هذا الشريط غرضاً جمالياً فنياً بحتاً، كتبت عليه آيات من القرآن الكريم ليس أكثر، ولم يكن أصيلاً فى بناء الكعبة ذاتها. ومن هنا قام د. كريم بمجازفته الهائلة ليقول: إن الكعبة أنشأها أهل منف المهاجرين فى الحجاز على غرار كعبتهم المنفية (هرم ميدوم) الذى ليس أصلا فى منف، إنما فى الواسطى، ولا هو بكعبة، إنما مثوى لجسد الملك (والمصادفة الطريفة هنا أنى من مواطنى مدينة الواسطى أصلا، وحلى لى أن أزور غرفة المدفن الملكى مجددا، عند معالجة الموضوع، وكتبت هذا الجزء وأنا جالس فى استراحة هرم ميدوم أطالعه عن كثب، أقلب أمره وأتساءل: هل ظلمه د. كريم أم أنصفه؟ لكنى على أية حال لم أجازف بقراءة الفاتحة على روح الملك).

رمسيس يؤمن أخيراً

وطوال موضوعه يقدم د. كريم الفكرة الجميلة، ثم لا يلقيها فى صيغة الإحتمال أو الظن، إنما يؤكدها! وحتى يكسب لها ثقة القارىء، يقدم لها الدعم من نصوص آثارية، لكنه للأسف يتدخل فى النصوص، ويردف بها ما ليس فيها، ويقّولها ما لم تقل، ليكتسب لرأيه ثقة القارىء المسلم، وهو ما فعله مع الحكيم (آيبوور) ذلك الحكيم المصرى العظيم، الذى بلغت حكمته

(١٠) جيمس هنرى برستد: فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، ص ٢٠٧.

وشهرته حدا دفع (برستد) إلى وصفه بالنبى[١٠]، وهو إذ يختار رجلا محل ثقة واحترام مثل (آيبوور)، يقول: «ويضيف آيبوور كيف هرب أهل منف إلى الصحراء الشرقية وجنوب الوادى»، ثم يردف مستمرا كما أن الحديث لم يزل لأيبوور «وعبروا البحر إلى الجزيرة العربية، حيث أطلق عليهم هناك اسم بنى مناف أو منف» ؟! وهكذا ورغم جمال فكرته واحتمال صدقها، يدمر الأمر كله بنسبه كلام للرجل الحكيم، هو منه برىء.

وحتى يزيدنا السيد الدكتور تحسراً على جمال أفكاره، وإمكان إثبات صدقها بالأسلوب العلمى، يضيف من عندياته القول: إن فرعون موسى المعروف بأنه رمسيس الثانى (وبالمناسبة هذا فرض مررته الكتابات الصهيونية ولم يتأكد صدقه العلمى)، كانت له زوجة مؤمنة موحدة، فأرسلت مع قائد الجيش المصرى الذى كان بدوره مؤمنا موحداً، كسوة إلى الكعبة، صنعت خصيصاً لهذا الغرض، وقد حدث هذا الأمر سراً بالطبع، لأن زوجها رمسيس الثانى كان كافراً أثيما (ولا يغيب عن القارىء أنه هو الفرعون الذى ترك لمصر أهم الأعمال المعمارية والفنية العظيمة وصاحب غزوات وفتوحات تحسب لمصر كلها)، وهكذا يكون المصريون قد بدأوا صناعة كسوة الكعبة وإرسال المحمل للحجاز من ألوف السنين، ولا مانع أن نتخيل هنا (ليلى مراد) تلبس تاج القطرين، وتغنى على صوت الدفوف وهى تودع قائد الجند: (يا رايحين للنبى الغالى، هنيالكم وعقبالى) ؟، وندخل مع د. كريم إلى تمثيلية رمضانية، يتسلط فيها فرعون الجبار، وتلتقى فيها الزوجة الملكية سرا بأخيها فى الإيمان، قائد الجند المغوار، ويتعاهدان عند أستار الكعبة فى حب الله، وحتى تأتى النهاية السعيدة. فإن حبكة الدكتور كريم الدراماتيكية استلزمت أن يخالف حتى النص الدينى، ويؤكد أن رمسيس الجبار قد أكرمه الله بالإيمان بعد أن رأى معجزة فلق البحر بالعصا، فنجا من الغرق والحمد لله.

ثم وفى نهاية موضوعه، يقول بذكاء أريب: «.. وبعد، فهذه مجرد أراء تاريخية قد يصح بعضها، ويخطىء بعضها، ولكن فى قراءتها فائدة» وبذلك يعتذر مقدما لمن يكتشف أمرا فيؤكد أنها (مجرد آراء)، والرأى يحتمل الصواب والخطأ، لكنه ينثنى للقارىء العادى المستسلم ليكمل عميلة الحقن قائلا: أنها مجرد آراء، ولكنها (تاريخية)، حتى يثبت الأمر عنده، ثم يصيب هدفا ثالثاً (سيرا على سنة الثلاث ورقات) فيحقق لنفسه أهم صفات العالم وهى التواضع، متصوراً ذلك يعفيه من المآخذ.

ولوجـه الحق فـلا شـىء خـاص بيننـا وبين الرجل إلا الحـرص على القـارىء الذى يتلقى المعلومة بحسن نيـة وثقـة فى الكاتب، والحرص على سيـادة المنهج العلمى وشـروط البـحث العلمى دون الأشـخـاص، خـاصـة فـى ظروفنا الحـاليـة، ومـحـاسبـة من يتـخـطاه حـتى لو كـان الغـرض نبيـلا وجـميـلا، فـالغـاية لا يمكن أن تبرر الوسيلة خـاصـة فى مـجـال البـحث العلمى. ونحن أشد ما نكون حاجة إلى الصدق العلمى، فإن ذهب بدوره، فكل إذن إلى ضياع.

ومـرة أخـرى أكرر للسيد الدكتور أنه ليس من الضرورى أن يكون التوحيد هو المجد الذى يجب أن تكون مصر قد اكتشفته، فمـجد مصر لا ينكره إلا حـاقد أو متـجاهل أو كليـهمـا، وهو إنكار لا يشكل أيـة قيمة، لأننا نعلمه اعترافا بدواخلهم، وعـجزا فى طوايا ضمـائرهم، وقصورا فى هممهم، وشللا قعيدا فى تاريخهم، هذا إن كان لهم تاريخ.



عفاريت التراث.. وتراث العفاريت

في يوم ٦/٨/٩٤، احتفلت في غرفتي رقم ٤٣٧ بالجناح التاسع بمستشفى الهرم، برفع أهم الممنوعات: القراءة، واستعدت نظارتي العزيزة ـ بسعادة غامرة، وفتحت صحيفة أهرام ذلك اليوم، بعد انقطاع دام حوالي الشهر عن القراءة لتستوقفني مرثية الصديق (عزت السعدني) على أيام زمان وحضارة زمان، عندما كنا جوهرة التاريخ ودرة الزمان والمكان، وإمعاناً في الاحتفال المقام على شرف النظارة والسماح بالقراءة رأيت مشاكسة الرجل، بمناقشة سريعة لما قال في مقاله «زنوبيا.. امرأة بألف رجل» لكن طبيعة العلم غالبة، فانجرف مني المقال من المشاكسة إلى مرثية كاملة على حال الأمة، رفع الله عنها الغمة.

امرأة بألف رجل

لفت نظري العنوان بداية، وأدهشني تخصيص (زنوبيا) بتلك المقارنة أو المفارقة، وهي لا شك تستحق أن توصف بكونها تساوي ألف رجل، لكن صياغة العنوان، التي تبدي الدهشة من أمر (زنوبيا)، جعلتها تبدو كما لو كانت حالة نادرة في التاريخ، وخارجة على القاعدة وعلى المألوف. بينما تاريخنا، بل تاريخ الإنسانية جميعاً، يمتلىء بإناث تعدل الواحدة منهن آلاف الرجال، رغم سيادة المنظومة الذكورية، والتفوق السيادي للذكر. بل أنك ستجد اليوم كثيرات تعادل الواحدة منهن آلاف الرجال، عالمات متخصصات، يضفن إلى رصيد البشرية العلمي كل يوم، بينما هناك رجال لا يستحق أحدهم أن تضعه في رتبة بني الإنسان.

ومع ذلك؛ فإن شهادة واحد من هؤلاء الذكرات، تعدل شهادة اثنتين من عالمات الذرة، وما زالت المهندسة أو الطبيبة أو المحامية، تساوي نصف بائع الملوخية أو أحد صبيان بائعي الباطنية(؟!) ولا نفهم عن عالمة الانثروبولوجيا أو البيولوجيا، سوى أنها عورة يجب أن تستتر وأنها للسيد الذكر مجرد متاع، ثم نقف نتساءل لماذا نحن في ضياع؟ إنه السؤال الزائف زيف الوهم الذكوري، والخيانة الذكورية للمرأة (كأم وكزوجة وكشقيقة وكابنة وكصديقة وككاتبة

(*) نشر في ١٤ سبتمبر ١٩٩٤ بصحيفة الأهالي، القاهرة.

وكعالمة وكمناضلة وكحبيبة، وكجمال خصيب تتصحر بدونه الأرض الخضراء)، إنه السؤال الملتوى الملتف الهارب من السؤال الحقيقى حول حجم الخيانة الذكورية للتاريخ نفسه، ولا ريب أننا بحاجة إلى صدق كاف لنمتلك جرأة طرح السؤال الحقيقى دون خجل.

والمسألة بالأساس مسألة منهج، فالعنوان المندهش يدلل بوضوح على مدى تكريس منهج الثبات المسبق فى عقولنا، الذى كرس فى داخلنا نظرة دونية تبخيسية للمرأة، حتى لو أظهرنا التقدمية، إنه منهج الذكورة البدوى.

زنوبيـــا والجـــن

يحكى الأستاذ عزت السعدنى، أنه ذهب إلى مدينة زنوبيا (تدمر) فأبهرته عظمة البناء وفنون الهندسة وروعة التخطيط حتى ردد قول أهالى المنطقة «إن الجن من أعوان سيدنا سليمان عليه السلام، هم الذين بنوا وشيدوا تدمر العظيمة، ومعابدها وأسواقها وحماماتها ومسارحها». وهذه آفة أخرى من آفات منهجنا فى التفكير، أودت بنا إلى ما نحن فيه، فى قاع العالم مع الجن والشياطين، فالحديث نموذج أمثل لمنهج تفكير جماهير أمتنا العريضة الغليظة (والعدد فى الليمون كما تعلمون)، لكن المصيبة أعظم، حيث أن ذلك ليس حديث العامة، بل أصبح حديث الخاصة، والأنكى أنه حديث كتبنا التراثية، التى تملأ أرفف المكتبة العربية، ويوصف أصحابها بأنهم علماء الأمة(؟!)، وستجد فى كل صحفة من تلك المصنفات شتى أنواع العفاريت، ورتبهم، ودياناتهم، وصفاتهم، ودورهم فى بناء كل ألوان المعمار العظيم فى الحضارات القديمة. وهو ما يحمل دلالات واضحة على تهافت منهج عاجز عن التفسير يلجأ إلى منطق المعجزة، ويكشف عن عدم تصور أى بدائل، وعن مدى كسل ذلك العقل لإيجاد تفسير سليم، فأى نموذج معمارى عظيم الشأن، يستدعى على الفور مقاولين ومهندسين مهرة من السعالى والغيلان وشمهورش وجمهورش وطراطيش(؟!) فالبدوى فى تفرقه القبلى، لم يكن يتصور أبداً، إمكان قيام الإنسان بمثل تلك الأعمال الهائلة، وهو ما قيل فى بناء سور الصين الذى بناه ذو القرنين والجن من أتباع سليمان، كما قيل فى قصور بابل وحدائقها المعلقة، وإن ثبت عدم وصول جن سليمان إلى وادى النيل، فلا شك إذن أن بناة الكرنك والأهرام، كانوا عمالقة الأجسام، حتى يتمكنوا من ذلك الإنشاء الهائل. إنها عقلية الدونية والقزمية والكسل والاسترخاء، بل والتكاسل عن مجرد تصور بشر يقومون بتلك الأعمال

العظيمة، فالعظمة ليست للإنسان الغر المفتون إنها دوما لذلك القابع وراء الطبيعة، للجن والعفاريت! ثم إن الأمر على المستوى الاجتماعى، يعبر عن فرقة أصيلة، وقبلية متجذرة، وعقلية لا تعرف التوحد فى وحدات سياسية كبرى تقوم بالمشاريع الضخمة، وتكاتف البشر فى توحد منتظم متين.

لماذا دائماً سليمان؟

أما الملحوظة التى يجب ألا تفوتنا، فهى حديث المقال الموقن بما قال، فالبناء لجن سليمان، وتكسير الإله البابلى مردوك على يد النبى إبراهيم و.... الخ. وهو ترديد لحديث مأثورنا التراثى المفرط المبالغ كثيرا لتهاويل، لكن كان لسليمان وجنه دوما الدور الأعظم، سليمان بالتحديد وبالذات.

والمعلوم أن (سليمان) هو المؤسس الحقيقى لدولة إسرائيل فى فلسطين، حوالى عام ألف قبل الميلاد، والغريب هو ذلك الإيمان الثابت فى العقل بصدق ما جاء عنه فى المأثور، والأعجب هو استمرار ذلك الإيمان حتى الآن، لينسب للإسرائيليين كل الأمجاد رغم تحولات الزمان، ودخول بلاد الحضارات القديمة إلى الدائرة العروبية، ثم مزيد من التبدلات وما يحدث اليوم بقيام دولة إسرائيل فى فلسطين مرة أخرى، بعد أن دمرها لنا الرومان، فى سالف الأزمان.

إننا لا نقرأ التاريخ، بل فقدنا الذاكرة التاريخية، بل والحس الوطنى والقومى، وبقى المأثور وحده يرفع يده بعلامة النصر فوق رؤوسنا (؟!) فلم نر المتغيرات، لأن الثبات هو المبدأ، والمبدأ هو الثبات، الحركة تخيفنا، والتغيير يرعبنا، والسؤال يبهتنا، والجديد بدعة، وكل بدعة ضلالة، إذن فليحيا الثبات على المبدأ، وليكن الإسرائيليون هم بناة حضاراتنا القديمة جميعا كما يزعمون، أقصد كما نزعم نحن، ما دمنا نؤمن بعفاريت التراث، ونحمل على أكتافنا تراث العفاريت(؟!) وإذا كان جن سليمان قد قاموا بكل تلك الإنجازات، فهل يهون عليهم شفاء مرضى هذا الزمان؟ ثم نتساءل لماذا تنتشر كتب العفاريت على أرصفة الشوارع وفى المكتبات؟.

ويبدو أن صديقنا أراد تأكيد ما سمعه عن الإنجازات الجنية للعفاريت السليمانية، فأورد ما جاء فى كتاب (روبرت وود) - وللحقيقة أنا لا أعلم من هذا الوود - حيث قال: «أنه قد جاء فى

التوراة ما يفيد أن سيدنا سليمان هو الذى بنى تدمر، وأطلق عليها اسم بالميراء، هذا رغم الفارق الزمنى الكبير بين زمن زنوبيا وزمن سليمان.

بهذا المنطق يجب علينا أن نؤمن إيمان العجائز بفضل الإسرائيليين الذين فضلهم الله على العالمين، وأن نؤمن بهم كتاريخ لنا، وهو الحادث وفق تلك المنظومة المأسورة (آسف أقصد المأثورة)، بحيث تربعوا داخلنا منذ سنين طويلة مضت، منذ حفظنا قصص إسرائيل وبنى إسرائيل المؤمنين، وقصص الكافرين من أجدادنا الفراعين، لننقلب نحن على تاريخنا الحقيقى، ثم نتحدث اليوم بوجل عن الغزو الثقافى الإسرائيلى؟ ألا يستحق الأمر أن نقول: عجبى!!.

تاريخ العجول

ويقول الأستاذ السعدنى، أنه قد رافقه فى رحلته إلى تدمر، السيد (خالد الأسعد)، الذى وصفه بأنه «حجة فى الآثار التدمرية»، وأن هذا الحجة قد أفاد صديقنا علما نافعا بقوله: إن المعبد هناك كان لعبادة إله باسم (بل)، وكان من الأوفق لو قال له اسمه بالعربية أو الحقيقى بالسامية القديمة، فاسمه العربى هو (بعل)، لكن المرافق الحجة قرأه فى كتب الأفرنج، ومعلوم عدم احتواء الأحرف اللاتينية على حرف العين، مما أسقطها من لسان رجل الآثار. ومعلوم أن (بعل) كان إله المطر والخصب والصواعق، ولم يزل الفلاح المصرى يطلق على النبات الذى سقته السماء بمطرها لقب (البعلى). وهو ذات الإله الذى انتقلت عبادته إلى جزيرة العرب،، على يد (عمرو بن لحى الخزاعى) فيما تزعم كتب السيرة ليعرف هناك باسم (هبل)، بعد إضافة (هـ) أداة التعريف فى العربية الشمالية القديمة، ومع إضافة الهاء سقط حرف العين بقوانين اللسانيات نتيجة وجود الهاء المفخمة فنطق (هبل) بدلا من (هبعل).

أما ما جاء بالموضوع عن عبادة إلهين آخرين فى تدمر هما (يرحبول) و(عجلبول)، وتفسير الأستاذ السعدنى بأنهما إلها الشمس والقمر، فهو ما يحتاج إلى تقويم، فكلا الإلهين بعلى، فالمذكور باسم (يرحبول) مركب من ملصقين هما (يرح) و(بعل)، وكان القمر يسمى (يرح وأرح) ومنه أخذ اسم (أريحا) أى القمرية، كما كان ينطق (يرخ وأرخ) ومنه أخذت كلمة (التاريخ) باعتبار القمر رمزاً لدورات الزمان، وبعل المرأة ربها وسيدها، وعليه فمعنى

(يرحبول) هو السيد أو الإله القمر، وعليه يقاس أيضاً (عجبلول)، فهو الإله العجل، ولا عجب، فقد قدس الأقدمون العجل أو الثور، حتى لقب الملوك أنفسهم بلقب (ثور) تشبها بالآلهة القوية، الآلهة الثيران، وقد قرن الثور أو العجل بعبادة القمر، بالمقارنة بين شكل الهلال وشكل قرني الثور، وما بنيهما من تشابه، فكان الهلال هو ثور السماء الإلهي، ومن ثم فإن (يرحبول) إنما يرمز للقمر عندما يكون بدراً، أما عجلبول فيرمز للقمر عندما يكون هلالاً، لقد كانت عبادة قمرية، ذات دلالة عروبية. ولم تزل للهلال قدسيته، فالشهور قمرية، والتاريخ قمرى، والصيام قمرى، والزمن العربى كله قمرى، كله يرحبول، كله عجلبول، بمنهج الثبات على المبدأ.

حكايـة المنهـج

ما الذى دفعنى وأنا على سرير المرض إلى كتابة ما كتبت الآن؟ لقد بدأ الأمر بمشاكسة صديق من باب المداعبة التى لا تفسد قضية الود، لكن يبدو أن موضوعه قد نكأ الجراح واستدعى استنفارا داخليا إزاء كل النماذج التى تملأ أرفف المكتبة العربية، وأزقف العقل العربى، وبالطبع صحفنا الغراء، تكرر وتردد بثبات وبيقين، تزيد وتضيف، من ذات الرصيد إلى ذات الرصيد، ولا تضيف إلا مزيداً من المعلومات المتحفية إلى معلومات حجرية، وتتنافس فى ذلك مع التلفاز الميمون، لينافسوا جميعا الرصيد الأصيل فى «دوجمته» وثباته عند الأصول، وإن أرادت المعاصرة والتحدث بحداثة، رددت معلومات مغلوطة، مغلفة بأسلوب حكائى مزوق، دون النظر إلى ما تفعله فى عقول الناس، ثم نسأل أنفسنا: لماذا الأصولية؟ لماذا الإرهاب؟ إنها النتيجة الأخرى لذات المنهج! أسئلة يكمن وراءها الثبات على المنهج الأوحد، فكل شىء واضح لكنا لا نريد أن نرى، فقط هذه هى المسألة!.

لذلك كله انتهزت فرصة ذلك المقال، لأملأ فراغ الوقت لحين استكمال المشوار العلاجى الطويل، لأنه فتح كل الجراح دفعة واحدة، وتحدث فى صميم همومى، وبقدر ما كان (روتين) وزارة الصحة مزعجا بل وبشعا، بقدر ما كان (روتين) التاريخ ثابتاً ساكناً مترهلاً نائماً يرنّم تشخيرة واحدة رتيبة. وبقدر ما شعرت بطعن ألم المرض فى قلبى، بقدر ما لم يعد بالإمكان تحمل مزيد من الطعن فى رأسى وآمالى وأحلامى فى مستقبل هذا البلد وتلك الأمة.. إنهم يقتلون أحلامنا يا سادة!!

المنهج يا سادة، «الدوجمة» المسبقة، واليقين القطعى، وغياب العقل النقدى، والتكاسل

المخيف عن بذل الجهد، يفرش ظله السحرى على حياتنا ليفسد علينا كل شيء، الرؤية الاستاتيكية للتراث، التى لا تربطه بواقع، بقدر ما تعتبره شيئاً فضائياً جاء من فراغ، رغم تزلزل كل البنى التحتية التى قام فوقها، حقاً نحن أغرب أمة أخرجت للناس. نخلط التراث، بمسلمات ما أنزل الله بها من سلطان، بالحكى الشعبى، بالتاريخ الحقيقى مع تزييف نموذجى ليلتقى بالمأثور الدينى، كما نفعل فى حكاية العلم والإيمان التليفزيونى لنرضى فى النهاية الإيمان التليفزنونى، ونرضى أنفسنا التى تركن للسكون والترهل، ويرضى المتاجرون بمصير الأمة بما ربحوا.

وأثناء ذلك نسقط دون وعى فى شباك التاريخ الإسرائيلى، لنكتب لهم، نيابة عنهم، أمجد التاريخ، ونسب أسلافنا وبناة حضاراتنا الكبرى بأقذع سباب اخترعه الإنسان، وهو النموذج الذى مثله هنا بناء جن سليمان لمدينة تدمر! وهو نموذج بسيط إزاء الكم الهائل المتراكم على أرففنا من زاد لا تنفد خزائنه، وهو التراكم الذى يجعلنا نتخذ من المأثور مرجعية ومقياسا ومعياراً لكل شيء، ونزنقه حشراً فى كل أمر، ومثله ما جاء فى المقال المذكور أن (بعل) هو الإله البابلى (مردوك)، وأن (مردوك) قد تم تكسيره على يد البنى إبراهيم.

هكذا ببساطة نلقى القول، فقط لأن إبراهيم كسر أصناماً كما جاء بالقرآن الكريم، ولأن بعض المؤرخين قالوا أنه عراقى الأصل، ولأن مردوك كان أحد آلهة العراق، فلا بد إذن أنه لم يسلم من فأس إبراهيم(؟!) بالله ماذا يمكن أن يفعل مثل ذلك الكلام بقلبى المريض؟ إن قولا كهذا كى تثبته أو تنفيه، عليك أن تكرس له من عمرك سنوات، وعندما تكون أى دراسة من دراساتى قد استغرقت من عمرى زمناً، وأعملت المرض فى قلبى، فإن إلقاء القول هكذا على الناس، وفى ظروفنا، ومع حالتى، يصبح قتلا حقيقياً.

مرة أخرى إنه منهج الترديد، وأقول لصديقى الذى لا أشك فى نواياه: إن البحث عن المعرفة الصادقة هدف إنسانى وعظيم، والبحث الذى يسعى لتحقيق مطامحنا الوطنية والقومية لا شك أعظم، لكن كى يكون الأمر بحثاً، وكى يثمر نتائج لا تدفعنا إلى مزيد مما نحن فيه، فحاجتنا أكبر للتخلص من أوهام المنهج الثابت الأوحد، حتى لا نتصور أننا ندافع بإخلاص عن قوميتنا، ونقع فى التعصب القبلى، لنصحو يوماً ونكتشف أننا داخل القبيلة الإسرائيلية، وسبط من أسباطها، خاصة فى هذه الأيام، التى بدأ فيها التاريخ يردد صداه، كسه على رؤوسنا.. سلام.. سلام. وعليكم السلام.

الرد اليسير على توراة عسير

(كمال الصليبى)، أصبح اسما مطروحا فى المنتديات الثقافية، ومتواتراً فى هوامش البحوث التى تتناول تاريخ القبائل الإسرائيلية، أو ما تعلق بها من أبحاث فى المجتمع أو الدين أو الاقتصاد أو السياسة. وعلى مستوى الانتشار أخذ اسم (الصليبى) موقعه من غرابة النظرية التى يطرحها فى مولفاته. وعلى مستوى البحوث العلمية أخذ مكانه من باب تثمين مضطر للنظرية، سواء بالاتفاق أو الاختلاف، لما قدمه الرجل من جهد وقرائن على نظريته، الأمر الذى يجعل من فساد الرأى التغاضى عنها، عند بحث شأن من شئون الجماعة الإسرائيلية.

ونظرية (الصليبى) تذهب - عموما وبإيجاز - إلى احتساب القبائل الإسرائيلية، قبائل عربية قحة، سبق أن عاشت فى جزيرة العرب فى الأزمة التوراتية القديمة وبالتحديد فى منطقة عسير غربى الجزيرة، وأن جميع الأحداث التى قدمتها التوراة كمادة تاريخية وثائقية عن بنى إسرائيل من فجر تاريخهم، إنما حدثت جميعا فى بلاد عسير العربية، وكانت أهم براهين الباحث وقرائنه، ومكمن قوة نظريته قد جمعت تقريبا وحشدت فى كتابه الأول The Bible Come From Arabia، المترجم عن الأصل الألمانى Die Bible Kam aus dem Lande ASIR، وقد ترجمت النسخة الإنجليزية إلى العربية تحت عنوان: «التوراة جاءت من جزيرة العرب».

وقد أَتبعَ الباحث ذلك الكتاب بكتابين آخرين وإن كانا أقل تماسكا وأدنى فى الدرجة وفى قدرة الإقناع عن كتابه الأول، قدمها للتخديم على نظريته الأساس التى ضمنها كتابه الأول، ومن ثم جاءا على قدر واضح من الهزال والضعف والتعسف، أولهما بعنوان (خفايا التوراة) والثانى بعنوان (حروب داود)، لذلك سيكون مناط حديثنا هنا مادته الأساس وملاطة الخرسانى من كتابه الأول (التوراة جاءت من جزيرة العرب).

والدكتور (كمال الصليبى) يعمل رئيسا لدائرة التاريخ بالجامعة اللبنانية، فهو أستاذ درّس

(*) نشر بالعدد ١٢٧ من مجلة القاهرة فى يونيو ١٩٩٣، القاهرة.

مادة التاريخ - فيما علمنا - لأكثر من ثلاثة عقود متصلة، ويبدو لنا أنه قد ركن إلى قناعة تنضح بها سطور العهد القديم من الكتاب المقدس، عند حديثها عن الرب التوراتى (يهوه)، وهى القناعة التى لا تهتز أمام الصفات التوراتية ليهوه، بأنه لم يكن أكثر من بركان، أو على الأقل أن البركان كان أبرز رمز تجلى فيه، وهو البركان الذى توجه إليه الخارجون من مصر بقيادة موسى النبى، فى جبل باسم (حوريب)، ويذكر مرات باسم جبل (سيناء). فإن المتوقع تماما أمام التفاصيل التى تحدثت عن صفات (يهوه)، أن نجد ذلك الجبل البركانى فى شبه جزيرة سيناء، لكن المشكلة التى واجهت الجميع، هى تأكيدات جاءت تؤكد أن سيناء لم تعرف البراكين إطلاقاً طوال تاريخها.

وربما كان من الأوفق الرجوع إلى بعض نماذج صفات الرب (يهوه) فى التوراة، والتى كونت القناعة بالرب البركانى لدى (صليبى) - ومن أن يذكرها - ولدى كثير من الباحثين، ولدى كاتب هذه السطور، ومن تلك النماذج:

* وكان الرب يسير أمامهم نهاراً فى **عمود سحاب**.. وليلا **فى عمود نار** (خروج ١٣/٢١).

* وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح، أنه صارت **رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل**.. وأخرج موسى الشعب لملاقاة الله.. وكان جبل سيناء كله يدخن، من أجل أن الرب قد نزل عليه بالنار، **وصعد دخانه كدخان الآتون، وارتجف كل الجبل جداً**.. ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل (خروج ١٩/ ١٦ - ٢٠).

* الرب إلهك هو نار آكلة (تثنية ٤/ ٢٤).

* على الأرض أراك **ناره العظيمة**، وسمعت كلامه من وسط النار (تثنية ٤/ ٣٦).

* يمطر على الأشرار **فخاخا**، ناراً وكبريتا وريح السموم (مزمور ١١/ ٦).

* **فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال**، ارتعدت لأنه غضب، **صعد دخان من أنفه ونار من فمه** (مزمور ١٨/ ٦ - ١٢).

* صوت الرب يقدح **لهب نار**، صوت الرب **يزلزل** البرية (مزمور ٢٩/ ٧).

* وكان منظر مجد الرب **كنار آكلة على رأس الجبل**، أمام عيون بنى إسرائيل (خروج ٢٤/١٧).

وهنا، لن يجد أى مهتم بدراسة التاريخ الإسرائيلى سوى التسليم ببركانية الإله، ثم التسليم أيضا بالمأزق الشديد المحير، إزاء ما أفادنا به الباحثون أن شبه جزيرة سيناء لم تعرف البراكين طوال تاريخها. ويبدو أن المأزق ظل علامة استفهام مؤرقة لصليبى، حتى تصادف وطالع كتبا تفصيلية، لجغرافية شبه جزيرة العرب، أشعلت لديه فكرة جديدة تماما، يمكن أن يكون فيها الخروج من المأزق الذهنى الملحاح، وأسئلته الحائرة المؤرقة. حيث وجد تطابقا مدهشا بين مواضع أسماء كثيرة بجبال عسير- وهى جبال بركانية عموما- وبين الأسماء التى وردت فى التوراة، للمواضع الجغرافية القديمة فى تاريخ إسرائيل التوراتى. وعندما قام بعملية تدقيق لإحداثيات تلك المواضع، انتهى إلى يقينه الذى وضعه فى شكل كشف خطير بحق، يؤكد أن كل الأحداث التوراتية إنما جرت فى جبال عسير، وأن الإسرائيليين عرب أقحاح، وأنهم لم يدخلوا إطلاقا مصر الفرعونية، ولم يخرجوا منها قط، وأن هناك مغالطة تاريخية هائلة، أدت إلى هذا الخطأ التاريخى العظيم فى معارفنا، وأنه مما يدعم وجود تلك المغالطة، هو غياب أى دليل وثائقى مباشر فى مدونات مصر القديمة، يشير إلى دخول الإسرائيليين إليها أو خروجهم منها، أو إقامتهم فيها. ومن هنا شمر الدكتور الصليبى عن همته بإعادة النظر فى الجغرافيا التوراتية محاولا إثبات أن جميع الأحداث التى جرت والمواقع التى حدثت بها تلك الأحداث، لم تقع لا فى مصر، ولا فى فلسطين، ولا فيما بينهما (سيناء)، بل وقعت جميعا بلا استثناء فى مرتفعات عسير بجزيرة العرب، معتمدا على تحليل لغوى مقارن، طابق فيه بين المواضع الجغرافية التى أوردتها التوراة، وبين مقابلها فى غربى جزيرة العرب.

أســاس الكتــاب

وكان أهم تبرير قدمه (صليبى) لمذهبه ونظريته، هو ما جاء فى قوله: «ففى حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضة للنقاش الحاد، فإن جغرافية هذه الروايات استمرت معتبرة من المسلمات، والحقيقة الساطعة، هى أن الأراضى الشمالية للشرق الأدنى، قد مسحت وحفرت من قبل أجيال متوالية من علماء الآثار، من أقصاها إلى أقصاها، وأن بقايا العديد من الحضارات المنسية قد نبشت من تحت الأرض ودرست وأُرخت، فى حين أنه لم يعثر فى أى مكان كان على أثر يتعلق مباشرة إلى أى حد بالتاريخ التوراتى. وأكثر من ذلك، فإن التوراةالعبرية تذكر الآلاف من أسماء الأمكنة من قلة قليلة، تماثلت لغويا مع أسماء أمكنة

فى فلسطين».. وحتى فى الحالات القليلة التى تحمل فيها مواقع فلسطينية أسماء توراتية، فإن الإحداثيات المعطاة فى النصوص التوراتية للأماكن التى تحمل هذه الأسماء، فى إطار الموقع، أو المسافة المطلقة، أو النسبية، لا تنطبق على المواقع الفلسطينية.. وسجلات مصر والعراق القديم، قد قرئت على ضوء النصوص التوراتية، والتى أجبرت على إعطاء مؤشرات جغرافية أو تاريخية، تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين»[1].

ومن هنا أسس الباحث عمله بالركون إلى تلك السلبيات التى طرحها، حول التاريخ التوراتى وتاريخ المنطقة المدون، ميمما وجهه شطر عسير، بادئا بتحديد منهجه ومواد عمله فى مقدمة كتابه بقوله: «وأساس الكتاب هو المقابلة اللغوية بين أسماء الأماكن المضبوطة فى التوراة بالحرف العبرى، وأسماء أماكن تاريخية أو حالية فى جنوب الحجاز وفى بلاد عسير». ثم يحدثنا عن الصدفة التى جعلته يعثر على عالم التوراة القديم (المفقود) فى جزيرة العرب بقوله: «لقد كان الأمر عبارة عن اكتشاف تم بالصدفة، كنت أبحث عن أسماء الأمكنة ذات الأصول غير العربية فى غرب شبه الجزيرة العربية، عندما فوجئت بوجود أرض التوراة كلها هناك، وذلك فى منطقة بطول يصل إلى ٦٠٠ كم، وبعرض يبلغ حوالى ٢٠٠كم، تشمل ما يسمى اليوم (عسير) والجزء الجنوبى من الحجاز، وكان أول ما تنبهت إليه أن فى هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة تشبه أسماء الأمكنة المذكورة فى التوراة، وسرعان ما تبين لى أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة فى ذهنى، أو جلها، ما زال موجوداً فيها، وقد تبين لى أيضا أن الخريطة التى تستخلص من نصوص التوراة فى أصلها العبرى، سواء من ناحية أسماء الأماكن، أو من ناحية القرائن أو الاحداثيات، تتطابق تماما مع خريطة هذه الأرض الموصوفة فى التوراة، مع خريطة الأرض - بين النيل والفرات - التى اعتبرت حتى اليوم أنها كانت بلاد التوراة.. وهنا قدم الاستنتاج المذهل نفسه بنفسه، فاليهودية لم تولد فى فلسطين بل فى غرب شبه الجزيرة العربية وليس فى أى مكان آخر.. ويجب البحث عن الأصول الحقيقية لليهودية، فى ثنايا الاتجاه فى منحى التوحيد فى عسير القديمة»[2].

---

(١) كمال الصليبى: التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العملية، ط ٢، بيروت، ص ٥٠: ٥٢.

(٢) نفسه: ص ٢٧، ٢٨.

مشـكلة اللغـة

وهنا كان على (الصليبى) أن يبدأ - بالطبع - من مشكلة اللغة، ليجد ما يشير إلى أن اللغة العبرية القديمة (وهى أيضا اللغة الكنعانية بإقرار الكتاب المقدس) وكذلك اللغة الآرامية، وكلتاهما: العبرية والآرامية، كانتا لغة إبرام (إبراهيم). فاللغة الأصلية لآله وأسلافه هى اللغة الآرامية، واللغة التى اكتسبها بهبوط (كنعان) أو أرض التوراة القديمة هى العبرية/ الكنعانية. لقد وجد صليبى - فيما يزعم - كلتا اللغتين، وبالطبع وبالتبعية كلا الشعبين، الآرامى والعبرى (وبالضرورة الكنعانى)، فى بلاد عسير العربية. ولأنه قرر أن يعمل على أساس المقابلة اللغوية لأسماء الأماكن، فقد جاء اكتشافه لوجود تلك الشعوب ولغاتها فيما جاء بسفر التكوين ٣١/٤٧ - ٤٩ عن الميثاق الذى تم بين يعقوب (العبرى)، وخاله لابان (الآرامى)، وهو الميثاق الذى أقيم بموجبه شاهد تمثل فى كوم من الأحجار، أطلق عليه لابان بلسانه الآرامى (يجر سهدوثا)، وأطلق عليه يعقوب بلسانه العبرانى (جلعيد والمصفاة). وقد وجد صليبى أن تلك الأسماء ما زالت تطلق حتى اليوم على ثلاث قرى صغيرة متجاورة، فى منحدرات عسير البحرية، فى منطقة «رجال ألمع» غربى أبها، وهى: قرية الهضبة وهى فى الآرامية (يجر)، وقرية (الجعد) وهى عند الصليبى المقابل، لاسم (جلعيد)، ثم قرية (المصناف) التى هى بقلب الصاد (المصنفاة)[٣].

وعليه يذهب إلى نتيجة يؤكدها، وهى أن المملكة الإسرائيلية، قد تأسست فى غرب شبه جزيرة العرب، بين أواخر القرن الحادى عشر، وبين مطلع القرن العاشر الميلادى، قياسا على تاريخ هجرات الفلسطينيين والكنعانيين من عسير إلى فلسطين، بضغط افتراضه قد حدث من قبل الإسرائيليين عليهم فى عسير، وهناك أطلق المهاجرون إلى فلسطين أسماء مواطنهم القديمة فى عسير، على مقار استيطانهم الجديدة بفلسطين، وهو ما يفسر لنا التشابه بين أسماء المواضع الجغرافية الفلسطينية، وبين أسماء المواضع التوراتية، وهى الظاهرة المرتبطة بالهجرة فى كل زمن وفى كل أنحاء العالم، فالمهاجرون يحنون دوما إلى الوطن الأصلى، فيطلقون على مواضع مهجرهم الجديد أسماء البلدان والأقاليم والجبال والأنهار التى تركوها فى مواطنهم الأولى[٤].

---

(٣) نفسه: ص ٣١.
(٤) نفسه: ص ٢٦، ٣٨.

وإعمالا لنظريته، يرى الدكتور صليبي، أن جميع الهجرات المصرية التي تم تجريدها على فلسطين، كانت في حقيقتها موجهة ضد بلاد عسير غربي جزيرة العرب، وبخاصة حملة (شيشانق الأول) الفرعون المصري ضد مملكة يهوذا، في أواخر القرن العاشر قبل الميلاد. كذلك الحملة الثانية التي قادها الفرعون (نخاو الثاني) في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، حيث كان البابليون قد حاولوا السيطرة على عسير، مما أدى إلى صدام حتمي بين المصريين والبابليين في عسير، ومن ثم فإن وقعة (كركميش) التي وردت في العهد القديم (أخبار الأيام الثاني ٣٥/ ٢٠، إشعيا ١٠/٩، إرميا ٤٦/٢)، لم تجر في داخل الأراضي التركية، وأن موقع (كركميش) ليس (جرابلس) الحالية كما ذهب المؤرخون، إنما وقعت المعركة بين جيوش الأمبراطوريتين: المصرية والبابلية قرب مدينة (الطائف) جنوبي الحجاز، حيث الدليل عند الصليبي يقوم في قريتين: الأولى تحمل اسم (القر) والثانية تحمل اسم (قماشة) ويجمعهما يصبحان (قرقميش).

بل ويذهب السيد الدكتور إلى أن الحملات المصرية الأبكر، التي تعود بتاريخها إلى الألف الثانية قبل الميلاد، والمفترض علميا أنها كانت موجهة لاحتلال مواضع بعينها في فلسطين وبلاد الشام، إنما كانت في حقيقتها موجهة ضد (عسير)[٥]، والدليل الدامغ على ذلك، هو أنه لو كان داود وسليمان وقتذاك هما السيدان الفعليان لدولة كبرى في فلسطين، تسيطر على الإقليم الاستراتيجي الذي يفصل مصر عن العراق، كما هو الافتراض الشائع، لأشارت إليهما السجلات المصرية والآشورية المتعاصرة. بينما لا نجد في تلك السجلات أيا كانت سياسية أو عسكرية، أية إشارة لهذين الاسمين، بخاصة في أخبار غزوات مصر وآشور على فلسطين.

ثم يقدم لنا تفسيره لوجود الإسرائيليين، والديانة اليهودية في فلسطين، بأنه أمر حدث متأخراً عن الأحداث الكبرى في التاريخ التوراتي القديم، وأن الأمر كان ناتجا عن التدخلات المصرية المستمرة والدائبة في بلاد عسير، مما أدى إلى انقسام مملكة سليمان الكبرى في غربي جزيرة العرب، ونشوب الحروب بين شقيها المنفصلين: يهوذا وإسرائيل. وما تبع ذلك من غزوات الآشوريين والبابليين، التي انتهت بتصفية (سرجون الثاني) الأشوري لمملكة إسرائيل عام ٧٧١ق. حيث احتل عاصمتها (السامرة) التي هي عند صليبي قرية (شمران) الحالية بعسير، ثم تبعه (نبوخذ نصر) الكلداني البابلي ليقضي على مملكة يهوذا سنة

(٥) نفسه: ص ٣٦، ٣٨.

٥٨٦ ق. م، حيث ساق الآلاف منها إلى بابل أسرى، وعندما قامت مملكة فارس الإخمينية أفرج (قورش) عن الأسرى، فعادوا مع عائلاتهم إلى عسير، ولكن ليجدوا أن كل شيء هناك قد أصبح خرابا، فعاد أغلبهم إلى فارس والعراق، وتوجه التيار الرئيسى نحو فلسطين ليقيم هناك بينما دخلت ـ فى زحمة الأحداث ـ الأصول العربية لبنى إسرائيل فى غيابات النسيان، وساعد على ذلك الغياب التحول الذى طرأ على اللغة بحلول القرن السادس قبل الميلاد، حيث ماتت اللغة العبرية/ الكنعانية، وحلت محلها اللغة الآرامية فى كل مكان، وظهرت اللغة العربية كمنافس للآرامية، فتغلبت فى النهاية بحلول القرون الأولى من العصر المسيحى(٦)، هذا بينما كان يهود الجزيرة العربية يتحولون نهائيا إلى اللغة العربية، وهى التحولات التى توافقت مع نسيان كامل للأصول العبرية القديمة فى عسير العربية(٧).

نماذج لغوية مقارنة

بطول كتابه لاينى الدكتور صليبى ولا تفتر همته، عن دعم ما ذهب إليه بنماذج لأسماء الأماكن التوراتية، وما عثر عليه مقابلا لها فى خريطة عسير العربية وفق تلك النماذج التى وضعها جميعا غربى الجزيرة، وحسب تخريجاته اللغوية المقارنة، يمكن تقديم النماذج الأساس الآتية:

- أرض جاسان التى سكنها بنو إسرائيل بمصر، هى قرية (غثن) بعسير.

- مدينة رعمسيس هى (مصاص).

- فيتوم هى (آل فطيمة)(٨).

- سكوت هى (سيكة) بالطائف(٩).

- مصر ليست مصر الفرعونية، إنما هى (مصر) فى وادى بيشه، أو (المضروم) فى مرتفعات غامد، أو هى (آل مصرى) فى منطقة الطائف. ولو احتججنا بأن مصر التوراتية كان يحكمها فرعون، فإنه يرد بأن كلمة فرعون تلك مأخوذة من اسم قبيلة (فرعا) الموجودة

(٦) نفسه: ص ٣٩، ٤٤.
(٧) نفسه: ص ٤٦.
(٨) نفسه: ص ٥٣.
(٩) نفسه: ص ٢٠٢

الآن فى وادى بيشه[١٠] (وبالطبع منذ أكثر من ثلاثين قرنا دون أن تتحرك رغم أنها قبيلة بدوية) . ونهر مصر الوارد فى التوراة مصحوبا بأحداث عظيمة حول شأنه، ليس سوى واد جاف اسمه (وادى لية)، وأن التوراة لم تسمه وادى مصر، إلا لأن هناك تقع قريه فى حوضه باسم (المصرمه)[١١]، ثم لم يكن خروج بنى إسرائيل من مصر، وعبورهم البحر المعروف فى التوراة باسم (بحر سوف)، بالعصا المعجزة ثم عبورهم الأردن بالدوران حول دول آدوم وموآب وعمون، لفتح فلسطين، كل هذا لم يكن سوى عبور جبال السراة بمنطقة الطائف إلى الليث[١٢].

- الدول الكبرى التى وردت فى المدونات المصرية كما وردت فى التوراة تقع بدورها فى جبال عسير، فمعلوم أن مملكة (دمشق) الآرامية كانت الحد الشمالى لدولة إسرائيل الفلسطينية، ومن هنا وجب نقلها بدورها إلى عسير، لتصبح قرية (مسقو) فى ناحية العارضة شرقى أبو عريش[١٣]، و (مجدو) الفلسطينية، أعظم فتوحات تحتمس الثالث الفرعون المظفر، إنما هى قرية (قصوى) فى منطقة القنفذة[١٤]، أما بلاد لبنان بمدنها وقراها وجبالها وأرزها، لم تكن فى الحقيقة سوى (لبينان) شمال اليمن بجوار نجران[١٥].

- ودولة (ميتانى)، بجيوشها وملوكها وحضارتها وتاريخها، والتى حدثنا جدول الفرعون (شيشانق) عن هزيمتها وإخضاعها لسلطان مصر، فهى لا تقع فى أقصى الشمال السورى، إنما هى (وادى مثان) بالطائف. وأن كل ما فعله (شيشانق)، هو أنه استولى هناك على مجموعة قرى متناثرة بذلك الوادى. ولما كانت النصوص المصرية تشير إلى (ميتانى) باسم ثان هو (نهارين)، لوقوعها بين نهرى دجلة والفرات فى أقصى اتساعهما، داخل الأراضى التركية، فقد رأى الدكتور صليبى أن ذلك خطأ فادح، حيث وجد فى وادى مثان بالطائف قرية باسم (النهارين)، بل أن حديث الفرعون (شيشانق) عن هزيمته لجيوش دولة آشور تفسير خاطىء من المؤرخين، لأنه إنما هزم جيوش قرية (يسير) الحالية (؟!) بمنطقة رابغ فى تهامة الحجاز[١٦]. أما الإشارات التوراتية لنهر (الفرات) فإنها كانت تعنى واديا باسم

(١٠) نفسه: ص ١٤٨.
(١١) نفسه: ص ٢٦٠.
(١٢) نفسه: ص ١٤١.
(١٣) نفسه: ص ١١٦.
(١٤) نفسه: ص ١١٩.
(١٥) نفسه: ص ١٥١.
(١٦) نفسه: ص ٢١٩.

(أضم) حيث توجد بجواره قرية باسم (الفرت)[١٧]، أو ربما كان واديا آخر باسم (خارف) بجوار تنوقة شمال أبها[١٨]، وللقارىء أن يختار ما يحلو له.

- وللقارىء أيضا أن يختار أو (يحتار) بين أثنى عشر اسما لاثنى عشر موقعا لقرى تقابل اسم (إسرائيل) الدولة، منها على سبيل المثال: السراة، آل يسير، يسير، أبو سرية.. الخ[١٩].

- كذلك المدن الواردة بالتوراة باعتبارها مدنا فلسطينية، إنما تقع بكاملها فى جبال عسير. فبئر سبع لا تقع جنوبى فلسطين، لأنها هى قرية (الشباعة) قرب خميس مشيط[٢٠]، وكذلك (جرار) لا تقع على الساحل فى أقصى جنوب فلسطين، لأنها هى قرية (القرارة)[٢١]، وقادش هى (الكدس)، و(شور) المفترض أن تقع بسيناء، هى (آل أبوتور) فى وادى بيشه[٢٢]، وميناء (يافا) ليس على ساحل المتوسط، لأنه هو (الوافية) قرب خميس مشيط، والزرقا ليست شرق الأردن، لأنها هى (الزرقة) فى جيزان[٢٣] أما حصن صهيون بأورشليم، فليس سوى قرية (قعوة الصيان) فى مرتفعات رجال ألمع غربى أبها[٢٤]. كذلك بقية المدن الفلسطينية المشهورة، التى يتم نقلها جميعا إلى عسير، فتصبح (بيت إيل) هى (البطيلة) فى سراة زهران[٢٥] وبيت لحم تصبح (أم لحم) فى منطقة الليث[٢٦]، وحبرون المصطلح على أنها الخليل الحالية جنوبى فلسطين، يتم وضعها فى قرية (الخربان) فى منطقة المجاردة[٢٧].

- والمدن الفلسطينية الخمس على الساحل، المشار إليها فى التوراة بالأقطاب الخمسة، تصبح عنده كالتالى:

* غزة = (عزة) فى وادى أضم[٢٨]، وفى موضع بعيد فى كتابه تصبح (آل عزة) فى بلحمر جنوبى النماص[٢٩]، ثم فى صفحات أخرى أكثر بعداً نجدها منسوبة إلى قبيلة (خزاعة)[٣٠].

* أشدود = السدود فى رجال المع.

* عسقلان أو أشقلون = شقلة بجوار القنفذة.

---

(١٧) نفسه: ص ٢٦٠.
(١٨) نفسه: ص ٢٧٦.
(١٩) نفسه: ص ١٩٦.
(٢٠) نفسه: ص ٩٦.
(٢١) نفسه: ص ٩٧.
(٢٢) نفسه: ص ٩٨.
(٢٣) نفسه: ص ١٢٠.
(٢٤) نفسه: ص ١٧٨.
(٢٥) نفسه: ص ٢٠٠.
(٢٦) نفسه: ص ٢٠٢.
(٢٧) نفسه: ص ٢٠٣.
(٢٨) نفسه: ص ٢٥٣.
(٢٩) نفسه: ص ١٠٠.
(٣٠) نفسه: ص ١١٦.

* جت = الغاط فى جيزان.

* عقرون = عرقين فى وادى عتود بين رجال ألمع وجيزان[٣١].

ـ وسكان فلسطين القديمة، ومنهم العبرانيين، إنما كانوا فى الحقيقة سكان قرية (آل غبرانى) فى ظهران الجنوب[٣٢]، والكنعانيون كانوا سكان قرية (القنعة) القديمة، لكن ربما كانوا من قرية أخرى هى (قناع)[٣٣]، وصيدا ليست على الساحل اللبنانى لأنها هى قرية (آل زيدان) فى مرتفعات شهدان فى أراضى جيزان الداخلية[٣٤]، وجبل حوريب المقدس بسيناء، يقع فى الحقيقة قرب قرية (خارب) فى وادى بقرة[٣٥].

ـ وأسماء أسباط بنى إسرائيل جميعا تقع بدورها فى جبال عسير، كالتالى:

* رأوبين نسبة لقرية (اعربيان) فى سراة زهران مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.

* شمعون نسبة لقرية (الشعنون) جنوب جيزان مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.

* يهوذا نسبة لقرية (الوهدة) فى رجال ألمع مع مواقع محتملة نختار من بينها.

* دان نسبة لقرية (الدنانة) مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.

* نفتالى نسبة لقرية (آل مفتله) مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.

* جاد نسبة لقرية (الجادية) فى سراة غامد مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.

* أشير نسبة لقرية (وشر) فى جيزان مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.

* يساكر نسبة لقبيلة (يشكر) الحالية (؟!) مع قبائل أخرى محتملة نختار من بينها.

* زبولون نسبة لقبيلة (الزبالة) مع قبائل أخرى محتملة نختار من بينها.

* يوسف نسبة لقرية (آل يوسف) فى بلسمر مع قرى أخرى محتملة نختار من بينها.

* بنيامين وهو الاسم الذى أطلقه الشعر الجاهلى على أهل اليمن[٣٦].

* (وربما كانت القرى والقبائل المذكورة ـ بالعكس ـ نسبة للأسباط).

(٣١) نفسه: ص ٢٥٣.
(٣٢) نفسه: ص ٢٣٨.
(٣٣) نفسه: ص ١٠١.
(٣٤) نفسه: ص ٩٩.
(٣٥) نفسه: ص ٧٠.
(٣٦) نفسه: ص ٣٠١ : ٣٠٤.

المنهـــج والنظريـــة

هذه بإيجاز نظرة سريعة على أطروحة (كمال الصليبى)، لا تغنى ـ بالقطع عن قراءة الكتاب، كما لا تعبر ـ باليقين ـ عن الجهد المبذول بإخلاص فى هذا العمل الثرى، والذى أبهر مثقفينا إلى الحد الذى لم يلتفتوا فيه إلى مجرد إعادة التصنيف ونموذجاً له ما قدمناه، وكان كفيلا وحده بهذا الترتيب وبالقراءة والدراسة المقارنة، أن يبدل أسباب الدهشة، بل وطبيعة الدهشة.

وقد اختار الرجل مع براعته، منجهه المخلص بتواضع جم، رغم ما وضح من ممكناته العظيمة فى مجال اللغة تحديداً، وإن ذهب فى مواضع أخرى إلى الاعتداد الشديد. إلا أن المشكلة الحقيقية التى تواجه عمله بالكامل، وباعترافه هو نفسه فى مقدمة كتابه، هى أنه لم يأخذ علم الآثار باعتباره على الإطلاق، وحين تناول بعض المدونات التاريخية القديمة، كان ينزعها من سياقات عدة ترتبط بها، ليدعم بها رؤيته فى شموليتها، محتجا بأن المسح الآثارى لمناطق غربى الجزيرة لم يتم بعد بشكل تام، كما لو كانت نظريته قد ثبتت وانتهى القول بشأنها فعلا، ولم يبق سوى التنقيب وراءه، لنجد هناك تحت الرمال عالم التوراة القديم برمته، وهو التصريح الذى أكده دوما فى أكثر من حديث صحفى. وفى المقابل أهمل الرجل تماما أثاريات المنطقة، فى مصر والرافدين والشام، ومدوناتها. وهو ما يمكن أن ينطق بالكثير كما سنرى .لذلك كانت خطورة عمله القاصمة لأساسه، هو أحاديثه التى أهملت تماما جميع النظريات الأخرى حول التاريخ التوراتى، مع إهداره المطلق للجانب التاريخى الوثائقى، حتى داخل الكتاب المقدس ذاته باعتباره وثيقة تاريخية، وبخاصة المرتبط منه بمصر وفلسطين.

وكان اعتماده على المقارنات اللغوية وحدها، وفى حدود أسماء الأشخاص والمواضع ثم حذفه للحركات والضوابط، التى دخلت على المأثور التوراتى فى القرن السادس الميلادى من قبل أهله، كنتاج ملاحظته لبعض الأخطاء فى التصويت والإعراب، وهو ما حور بعض المعانى، ونحن نثق فى قدرته المتبحرة فى هذا الجانب، لكن المأخذ هنا أنه أعاد النص التوراتى الهائل برمته إلى أصله غير المتحرك، لأنه اقتنص خطأ هنا وفلته هناك، فى بضع كلمات أدى تصويتها إلى تبديل معناها ـ على ذمته ـ ضمن حوالى نصف مليون كلمة تشكل ذلك المأثور، لكنه استمر على دربه غير هياب، فقام بتسكين كل الأحرف، ليعيد هو تحريكها بما يوافق حركته بين المواضع التى رآها أهلاً للتطابق معها فى بلاد عسير.

ولو ألقينا نظرة سريعة فيما عرضناه هنا، سنجد (الدكتور صليبى) يحل كل المشكلات الهائلة، التى حارت فيها أفهام العلماء لقرون، حلا نهائيا تاما مانعا، بمجرد إيجاد الصلة أو التطابق بين اسم موضع ورد بالتوراة، واسم موضع عثر عليه فى خرائط جزيرة العرب الغربية، مثلما فعل فى تأكيده أن أهل عسير كانوا يتكلمون العبرية، وإلى جوارهم مباشرة كان هناك قوم آخرون يتكلمون لغة أخرى هى الآرامية (؟!)، فقط لأن كوم الأحجار الشاهدة على ميثاق يعقوب العبرى، وخاله لابان الأرامى، المسمى بالآرامية (يجر سهدوثا) وبالعبرية (جلعيد والمصفاة)، يتطابق كأسماء مواضع، مع قريتين عثر عليهما على خريطة رجال ألمع باسم (مزعة آل شهدا) و (الجعد).

ثم أنه لم يلتفت قط ألى أنه من الممكن افتراض العكس، وسيكون هو الافتراض الصحيح علميا وتاريخيا، حول فرضه أن الأسماء التوراتية الموجودة بفلسطين أطلقها هناك المهاجرون من عسير كذكرى لموطنهم القديم. بمعنى أن العكس ممكن أيضا وأكثر علمية، فتصبح الأسماء الواردة بجزيرة العرب ومشابهة لأسماء توراتية، ناتجة عن هجرة إسرائيلية من فلسطين إلى جزيرة العرب، وهو ما نعلمه نتيجة هجوم (آشور) و(كلديا) على فلسطين، ومن بعدهم هجوم (طيطس) الرومانى عليها وتدمير الهيكل وتشتيت بنى إسرائيل، الذين انحدر أغلبهم جنوبا ليشكلوا فيما بعد يهود شبه الجزيرة العربية الذين تناثروا فى مواضع عدة أشهرها خيبر ويثرب واليمن هذا بالطبع إذ سلمنا له بصدق بعض، وليس كل، مقابلاته اللغوية لمواضع الأمكنة وأسمائها.

أما الأشد غرابة فهو اعتماده أسماء موجودة اليوم بالجزيرة لمواضع وقبائل، يراها هى ذات الأسماء التوراتية، بعد مرور أكثر من ثلاثين قرنا، كانت كافية لتبديل أسماء المواضع التى ذكرها عشرات المرات، ونسيان قديمها وهو أمر معلوم، ومعلوم أيضا أن أسماء المواضع عادة ما تتغير بتغير سكان المنطقة. وهو أمر دائم التكرار فى بلاد البداوة القبلية أكثر من المناطق المستقرة، وذلك للسعى وراء الكلا والتحرك للإغارة أو هربا من الإغارة، هذا ناهيك أنه قال بنسيان العالم كله للأصل العسيرى العربى للإسرائيليين فى عسير، بعد أسر فى بابل لم يدم لأكثر من نصف قرن، فما باله يرى جزئيات وتفاصيل أجدر بالنسيان، خلال قرون طويلة، يراها باقية شاهدة على الأصل العسيرى للتوراة القديمة وأهلها فى بلاد العرب.

وفى موضع آخر من كتابه يلتفت إلى نقاط ضعف يحاول تبريرها، فهو يشير إلى

النصوص الأسطورية التي وردت في التوراة، وضرب منها مثلاً بقصة (الطوفان)، التى تحتاج غمراً مائيا وبلاداً ممطرة ونهرية كأرضية للحادثة، وهو ما لا يتطابق مع حال جزيرة العرب، ليؤكد لنا أنه لا يمكن التأكد أين ولدت مثل تلك الاساطير؟ ومن استعارها؟ ومن أصحابها الأصليين؟ ولكنه لا شك يعلم أصولها المصرية والعراقية والشامية، وسر انتقالها إلى الكتاب المقدس وظروف ذلك! وسبق لنا أن قدمنا في ذلك بحوثا نشرناها في كتابنا (الأسطورة والتراث)[٣٧] يمكن للقارىء الرجوع إليها، وهو ما لا يمكن أن يتطابق بحال، مع ما ذهب إليه الدكتور الصليبي.

ثم في موضع آخر يجد شاهداً أركيولوجياً لا يقبل دحضا، يتمثل في (الحجر الموآبى)، الذى عثر عليه شرقى البحر الميت، بلاد موآب القديمة، ويتحدث فيه (ميشع) الملك الموآبى عن حروبه مع إسرائيل، فيتحايل على الأمر برمته، ويقول أن النصب قد أقامه (ميشع) فى تلك المنطقة التى حددتها التوراة شرقى فلسطين بعد أن هاجر من عسير بعد حروبه مع إسرائيل فى عسير (؟!).

ويتمادى فيبالغ ليرى أن حملات المصريين جميعا، على البلاد التى كان مظنونا أنها فلسطين وبلاد الشام وجنوب تركيا، إنما كانت جميعا على شبه الجزيرة العربية، وتحديداً ضد عسير، بما فيها حملتا (شيشانق) و(نخاو) المدونتان فى التوراة وفى النصوص المصرية القديمة، كذلك حملات البابليين والآشوريين اتجهت بدورها جميعا إلى بلاد عسير، وترك العالم الإمبراطورى بقاع الثروة والخصب، والموقع الفلسطينى الشامي الاستراتيجى العالمى، ليتصارع جميعه فى بلاد عسير، ولأجل عيون قرى عسير(؟!) وهو أمر نافر تماما ومتكلف، ناهيك عن فقده لأى مصداقية أركيولوجية أو وثائقية إضافة لمخالفته للمدونات القديمة التى تحدثت عن تلك الحملات الإمبراطورية!

نعم لا يكابر أحد أو يجادل فى أن المصريين قد اخترقوا بلاد العرب، وأنشأوا هناك مستعمرات متقدمة، لضمان السيطرة على الطريق التجارى البرى الذى ينقل بضائع الهند وأفريقيا الشرقية إلى عالم الشرق الأوسط القديم، وهو أمر سبق أن قدمنا عليه قرائن فى أعمالنا المنشورة (انظر مثلا: النبى إبراهيم والتاريخ المجهول)، لكن أن تكون دولة إسرائيل القديمة قد قامت هناك، وأن كل الصراعات الإمبراطورية قد دارت هناك من أجل تلك الدويلة

(٣٧) سيد محمود القمنى: الأسطورة والتراث، دار مدبولى الصغير، القاهرة، ١٩٩٢.

والتى سيقل شأنها أكثر فى حال نقلها من موقعها الاتسراتيجى بفلسطين، إلى جبال عسير، فهو الأمر الذى يصعب قبوله تماما.

وما يجعل أمر عسير هنا، (عسيرا) تماما، هو قول (الصليبى) أن الحملات المصرية جميعا لم تكن متجهة من مصر إلى حوض المتوسط الشرقى (فلسطين، سوريا، تركيا، العراق)، بل دوما إلى عسير، حيث أن هناك مراجعات شاملة قد جرت للروايات القديمة بهذا الشأن، خصوصاً المدون المصرى منها. وهى إن لم تقطع بأمر موقع أو آخر، فهو أمر طبيعى تماما فى دارسة القديم لكن هناك من الشواهد ما يكفى لضمان سلامة تحديد خطوط سير تلك الحملات. فإن نجد ـ كمثال ـ نصبا لرمسيس الثانى على مصب نهر (الكلب) بمواجهة البحر المتوسط، بين بيروت وجبيل، يتحدث عن حملته الأولى على بلاد الشام سنة ١٢٩٧ ق.م، فإنه سيكون دلالة لا تقبل جدلا ودليلاً شاهداً يكمل أى نقص فى المعلومات المدونة حول تلك الحملة، وخط سيرها[٣٨].

ومثله عندما تتحدث النصوص عن استيلاء (رمسيس الثانى) على بيروت وجبيل، فنحن نصدقها، بهذا الشاهد الأثرى، ولا نذهب مع (صليبى) إلى فيافى الجزيرة العربية البلقع لنبحث هناك عن (لبينان)، بل نصدق تماما أن (رمسيس الثانى) قد غطى بحملته نصف الشاطىء الشرقى للمتوسط بتلك الحملة الصغيرة، ثم لابد أن نصدق مرة أخرى، لوجود عناصر أخرى ترتبط بالحادثة، لأن الحملة كانت إنذاراً للملك الحيثى (ما تتيوالى) سنة ١٣٠٦ ـ ١٢٨٢ ق.م، ليكف عن تدخلاته فى سوريا، ودواعى التصديق، هى الحرب التى خاضها (رمسيس الثانى) بعد ذلك مع الملك الحيثى ملك تركيا القديمة، فى موقعة قادش على نهر العاصى السورى، والتى انتهت بتوقيع اتفاق سلام من نسختين، نسخة بالمصرية ونسخة بالحيثية، وقد تم العثور على كلتا النسختين واحدة فى مصر، والثانية فى (بوغازكوى) العاصمة الحيثية القديمة فى داخل تركيا، وهو السلام الذى لجأ إليه الملك الحيثى، سعيا وراء مصلحة التفرغ لحماية بلاده، أمام جيرانه (الآشوريين) وقوتهم المتصاعدة، فى بلاد الرافدين الشمالية، وليس فى قرية (أبى ثور) فى بلقع عسير.

(٣٨) من باب التبسيط نحيل إلى كتاب صغير للدكتور سامى سعيد الأحمد: الرعامسة الثلاثة الأوائل، دار الشئون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨، ص ٣٣.

وشواهد أثرية أخرى

وإذا كانت قرية (النهارين) في وادى مثان بالطائف، هى (نهارينا) المذكورة فى مدونات مصر، للإشارة إلى دولة الميتانيين، فماذا سنفعل فى تلك الحال باللوحة التذكارية التى أقامها (تحتمس) فى كركميش (جرابلس الحالية على حدود تركيا الجنوبية). والتى يحكى فيها عن انتصاراته هناك، وأخذه الأسرى بأعداد غفيرة، وعن احتفال الملك فى رحلة العودة بنجاحه فى المعركة، وكان احتفاله بصيد الأفيال، حيث اصطاد فيلا ضخما من مستنقعات (نى) قرب (أباميا) السورية. ولو حتى غضضنا الطرف عن اللوحة التذكارية. التى ربما نقلها شخص ما، فى زمان ما، من قرية النهارين فى وادى مثان بالطائف، ليضعها فى نهارينا دولة الميتانى، كما حدث للحجر الموآبى (؟!)، فماذا عسانا نفعل بالفيل الذى اصطاده الملك فى مستنقعات أباميا؟ وهو أمر معتاد فى سوريا القديمة، لكنه لم يكن موجودا إطلاقا فى تلك العصور بجزيرة العرب، ولا فى العصور التالية، والفيل الوحيد اليتيم الذى عرفته جزيرة العرب، جاء بعد ذلك بقرون طوال قادما من بلاد الحبش، فى حملة الفيل المشهورة على مكة.

أما مدونات بلاد الرافدين، فلم تبخل بالتدوين، ولضرب المثل فقط نجد الملك (تجلاتبليزر الأول) الآشورى، يحكى فى مدوناته، أنه غزا سوريا ووصل إلى الساحل الفينيقى، وأخذ الإتاوة من المدن الفينيقية (أوراد، وجبيل، وصيدا)، وقد قتل فى ميتانى عشرة أفيال ضخمة، وبالتحديد فى منطقة حاران، كما اصطاد أفراس البحر من المياه قرب ارواد[٣٩].

وبالطبع ما كان بالإمكان حدوث ذلك فى بوادى العرب عند (آل زيدان التى يقابلها بصيدا) فى أراضى جيزان، وعليه لا يمكننا بالطبع التسليم بأن حملة (تحتمس الأول) لتثبيت حدود الدولة المصرية على نهر الفرات، بواسطة نصب تذكارى أقامه على الضفة اليسرى للنهر، بعد ما تجاوزه قرب كركميش[٤٠]، لا نستطيع أبداً أن نسلم أن تلك الحملة إنما قطعت كثبان جزيرة العرب الرملية، مئات الأميال لضرب قريتى (القر) و(قماشة)، هذا إذا غضضنا الطرف عن النصب التذكارى، أو افترضنا انتقاله هو الآخر من القر وقماشة إلى الضفة اليسرى لنهر الفرات.

(٣٩) أيضاً للتبسيط لغير المتخصص، نحيل إلى كتاب طه باقر: الوجيز فى تاريخ حضارة وادى الرافدين (وهو ليس وجيزاً على أية حال)، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ١، ص ٤٩٢.

(٤٠) يوسف سامى اليوسف: تاريخ فلسطين عبر العصور، دار الأهالى، دمشق، ١٩٨٩، ص ٤٠.

وسيادته، عندما يؤكد لنا أن مصر كانت هى (المضروم) ، فى مرتفعات غامد، أو (آل مصرى) فى الطائف، وأن مدينة (رعمسيس) التى عاشوا فيها بمصر حسب نص التوراة، إنما هى قرية (مصاص) ، وأن بحر (سوف) الذى عبروه إنما كان مرتفعات (السراة) نجدنا مشدوهين تماما، إزاء النص المصرى الذى جاءنا فى شكل تقرير قدمه (بينيبس) كاتب البلاط الفرعونى، لرئيس قلم الكتاب بالقصر (آمنموبى) ، ويحكى فيه عن مدينة (رعمسيس) ، ونقتطع منه ما يعنى الموضوع هنا، فى قول (بينيبس) :

ـ إن الكاتب بينيبس يرحب بسيده الكاتب آمنمونى.
فى حياة وفلاح وصحة
لقد وصلت إلى مدينة بيت رعمسيس محبوب آمون
ووجدتها فى غاية الازدهار..
لديها مؤن وذخيرة كل يوم
بركها تزخر بالسمك، وبحيراتها بالطيور، حقولها يانعة بالبقل
وشواطئها محملة بالبلح
ومخازنها مفعمة بالشعير والقمح
....
وشيحور تنتج الملح..
وسفنها تروح وتجىء إلى الميناء
....
إن مستنقعات زوف تنبت لها البردى
وشيحور تمدها باليراع......
وشباب عظيمة الانتصارات يلبسون حلل العيد كل يوم...
ويقفون بجوار أبوابهم وأيديهم مثقلة بالأزهار.
وبالنبات الأخضر من بيت حتحور[41] .

(٤١) سليم حسن: الأدب المصرى القديم، مطبوعات كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، ديسمبر ١٩٩٠، ج ١، ص ٣٨٤ : ٣٨٩. (نص الرسالة كاملاً) .

والمثال هنا يوضح أن مدينة (رعمسيس) ميناء، مليء بالخيرات مما يشير إلى الأراضي الخصبة، وأنها القريبة من موضعين بحريين هما (شيحور) و(زوف)، إضافة لمنطقة خصيبة باسم (بيت حتحور). والتوراة تقول لنا: إن بني إسرائيل عاشوا بمصر في مدينة باسم (رعمسيس)، وأنهم عبروا بحرا باسم (سوف/ زوف)، وأنهم عبروا البحر في منطقة باسم (بي حيروت) وهي بالنص (بيت حتحور) أما (شيحور) فهو موضع يتردد في التوراة كمكان بمدينة رعمسيس، كانوا يشربون منه هم وبهائمهم، فهل نهمل كل ذلك، ونلقيه جانباً، لنذهب إلى عسير مع صليبي؟ وهل لم يطالع استاذ التاريخ المتخصص مثل تلك النماذج التي نضرب منها مجرد أمثلة سريعة لقارىء غير متخصص لا نريد أن نثقل عليه؟.

ولا يفوتنا. أنه في حديثه عن حملة الفرعون (شيشانق) على مملكة (سليمان)، بعد وفاة سليمان بأربع سنوات فقط، والتي حدثتنا عنها التوراة، وذكرت أن شيشانق قد هاجم أورشليم بفلسطين ونهب كنوز الهيكل، فقد وقف (الصليبي) مع نقطة هامة، وضعها ضمن رصيده لرفض أن تكون فلسطين هي محل تلك الحملة، لتأكيد أن تلك الحملة كانت على عسير، وتلك النقطة - وهي جديرة بالاعتبار حقا - أنه بمراجعة جداول (شيشانق) الذي ذكر فيها عدد وأسماء المدن التي استولى عليها، مع الدول التي أخضعها للسلطان المصري، لم يأت على ذكر أورشليم إطلاقا بين تلك الأسماء التي ذكرها في جدوله! لكن الدكتور صليبي وهو يمسك تلك الفجوة لينقل الحملة بكاملها إلى عسير، بيد أنه قد تغافل تماما عن دليل حاسم يؤكد دخول شيشانق أورشليم، وهو النصب التذكاري الذي عثر عليه مؤخراً بمجدو في فلسطين، ويتحدث بوضوح عن هجوم شيشانق على أورشليم[٤٢]، وهو ما يملأ ذلك الفراغ الساقط في جدوله الذي اعتمده (صليبي).

التوحيد العسير

وإذا كان أستاذ التاريخ المتخصص، قد ترك الجانب التاريخي برمته، ليتعامل مع اللغة وحدها لإثبات نظريته، فهو الأمر الغريب، أما الأغرب فهو تأكيده أن التوحيد اليهودي في العبادة، قد نشأ في ذلك العصر الموغل في القدم (حوالي ١٢٠٠ ق. م فيما يذهب إليه)، بين تلك القبائل التي قطنت عسير، وهو أمر إضافة لعسر قبوله، فإنه يخالف منطق التطور

(٤٢) سامي اليوسف: سبق ذكره، ص ٦٩.

التاريخى وشروطه المجتمعية والاقتصادية والسياسية، حسبما تعلمنا فى فلسفة التاريخ، وقوانين الحراك الاجتماعى عبر بقية المنظومات على سلم الارتقاء التاريخى. فنحن نقبل مثلاً ما أخبرنا به علم التاريخ عن الفرعون (آمنحتب الرابع) أو (إخناتون)، كأول داعية لفكرة توحيد الآلهة فى إله واحد، فى تاريخ الفكر الدينى، (وبالمناسبة فإن الصليبى يؤخر اخناتون زمنيا عن موسى)، وقبولنا للتوحيد عند (إخناتون)، ناتج قراءة تفيد بنضوج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية آنذاك، حيث كانت الأوضاع قابلة لظهور ذلك الطارىء وتلك الطفرة، فقد تحولت الدولة المصرية المركزية إلى امبراطورية كبرى تضم تحت جناحيها دول شرقى المتوسط، وغذى نموها الاقتصادى ذلك التراكم الثروى الذى تدفق من بقاع إمبراطورية على مصر، والنضوج التجارى، مما أدى لوضوح طبقى بين المعالم، أما الإتاوات والضرائب والجزى التى تراكمت مع اتساع الإمبراطورية، فقد أدت إلى إفراز فوقى ينزع نحو سيادة إله واحد يرعى مصالح الطبقات السائدة ودولتها الإمبراطورية.

ولما كانت تلك السيادة تتمثل فى شخص الفرعون وتتماهى فى سيادته، فإنه سيكون مقبولاً أن تظهر فى مصر فكرة إله يرعى مصالح الطبقة السائدة، ويعبر عن سيادتها، وسيكون مقبولاً أيضا انتشار ذات الفكرة التوحيدية لدى الفئات المطحونة التى تريد إلها لا يفرق فى توزيع الأرزاق. ومن ثم سيكون مقبولاً بالتالى أن تتأثر جماعة (موسى) فى مصر بظروف مصر، رغم أن نظامها القبلى شوه الفكرة وقصرها على توحيد إله القبيلة الإسرائيلية، بمعنى الاعتراف بآلهة الشعوب والقبائل الأخرى. لكن مع عدم توقير أى إله آخر سوى إله بنى إسرائيل، أما أن تقفز فكرة التوحيد فجأة دون بنية تحتية تسمح بها فى جزيرة العرب، فى ذلك الزمن العتيق، فى وسط قبلى متشرذم لا يسمح، ولا تسمح معه قوانين التاريخ التى لا شك يعلمها الاستاذ الصليبى جيداً، بظهور ذلك التوحيد، حتى لو كان توحيداً ابتدائياً، لأنه الأمر الذى يجافى منطق العلم بالكلية.

لكن الأستاذ هنا لا يرى الوسط قبليا متشرذما، بل دولة قامت هناك، أقامها شاؤول وداود وسليمان، ويرى فى ذلك دليله الأقوى، الذى رفض بموجبه تفسير العلماء لسجلات التاريخ التقليدية فى مصر وآشور، باعتبارها تتحدث عن فلسطين، حين قال أنه لو كانت دول الإمبراطورية تتعارك فى فلسطين، لدونت أسماء هؤلاء الملوك (شاول، داود، سليمان) وهو ما لم يحدث، ونتيجته الحتمية أن هؤلاء الملوك لم يتواجدوا بفلسطين، دون أن يفطن سيادته أن

الحجة مردودة عليه. فإذا كانت تلك الحملات الإمبراطورية موجهة ضد مملكة إسرائيل اليهودية في عسير، وكان (صليبي) صادقا في مذهبه، فإن الطبيعي أن تذكر نصوص مصر والرافدين أسماء هؤلاء الملوك الذين حكموا في عسير، وهوأيضا ما لم يحدث، ويتعادل الموقف، ثم يرجح لصالح فلسطين.

هذا ناهيك عن كوننا لو اعتمدنا أسلوب الأستاذ الباحث في المطابقة لأسماء المواضع والأماكن والأشخاص، مع نصوص التوراة. أو حتى مع نصوص لدولة ما، لأمكن أن نكتشف ببعض التعسف وليّ التفاسير، أن مصر كانت في فلسطين، وأن فلسطين كانت في سيناء، وأن الدول الفينيقية كانت في شمال أفريقيا وأسبانيا، دون مشاكل كثيرة، كما يمكننا ببساطة أن نضع جزيرة العرب في صعيد مصر حيث حلت هناك القبائل العربية مع الفتح الإسلامي وأعادت التسميات، والأمر كله يعود إلى حركة الهجرات القديمة وإعادة تسمية المواضع وهو الأمر الذي أشار إليه الصليبي بنفسه، وهو الأساس الذي بنى عليه عمله بالكامل، وهو الأساس الذي لا يعول عليه إطلاقاً، لبناء مثل تلك النظرية التي طرحها، والتي تتسم بغرابة وخطورة هائلة، لا تتناسب وأدوات البحث المستخدمة في سبيل إثباتها.

أما الدافع الذي نظنه كان بداية الخيط في اندفاع الصليبي، هو اسم جبال (عسير) متقاطعاً بالميتاتيز (القلب اللغوي) مع جبال (سعير) التي ذكرت التوراة ونصوص مصر أنها كانت جبال ودولة تقع ما بين خليج العقبة، وبين البحر الميت، أي على حدود سيناء الشرقية مع بادية الشام. وقد تحدثت التوراة عن (سعير/ بلاد أدوم)، باعتبارها دولة مستقلة عن فلسطين، وعن دولة إسرائيل عموماً، ودخلت في حروب مع دولة إسرائيل مرات، وفي تحالفات مرات أخرى، أي أنها لم تكن ذات دولة إسرائيل، لكن الدكتور (الصليبي) عمد إلى نقل إسرائيل الدولة، وفلسطين الأرض بكاملها إلى جبال (سعير) في دولة (آدوم)، ثم نقل جبال (سعير) إلى بلاد العرب محتسبا إياها جبال (عسير)، وأن الأمر لا يعدو قلبا لسانيا كما في (زوج/ جوز) وهوالمثال الذي ضربه بكتابه للتدليل على نظريته، بينما تم إلغاء دولة (آدوم) التي قامت في جبال (سعير) على حدود مصر، والتي تحدثت بشأنها نصوص مصر في إبان حديثها عن حملات مصر التأديبية للدولة المشاغبة المجاورة، كما أفاضت في الحديث عنها نصوص التوراة حتى آخر سفر فيها.

هذه لمحات سريعة موجزة مقتضبة، لم نقصد بها النقد المفصل والتوثيق الكامل، فمثل

ذلك الرد الناقد يحتاج إلى كتاب قد لا يقل حجما عن كتاب الصليبى نفسه، وهو ما يخرج الآن عن دائرة همومنا، فقط رأينا فى ضوء الحماس الغريب فى أوساط مثقفينا للصليبى، إن هناك واجبا علينا للتوضيح والتبيان ليس إلا، ولعل قارئنا قد لاحظ أننا لم نحاول أن نسقط على الرجل أى اتهامات سياسية، لقوله بعروبة الإسرائيليين أو تكفيرات دينية لإنكاره عبور البحر بالعصا المعجزة أو نعوت بالخيانة القومية، كما حدث فى بعض صحفنا العربية الغراء، فتصوروه ينظر لمطلب جديد لإسرائيل بالعربية السعودية، وهو نقد يعبر عن خصاء ذهنى ونفسى وشلل فى القدرات، وعدم ثقة لا بالذات ولا بالوطن، إضافة إلى أننا نرفض أى تعامل من منطق الإدانة والتكفير، فهو المنطق الأعرج الذى انتهى بنا إلى مقلب نفايات الأمم.

حتى لانفسد تاريخنا..
قليل من العقل وبعض من الضمير

تحت عنوان رئيسى (بلاغ إلى شيخ الأزهر والمفتى وعلماء الإسلام)، وعنوان فرعى (وزارة التعليم تفترى على أمير المؤمنين عثمان بن عفان)، نشرت صحيفة إسلاموية ما أسمته تحقيقاً تقول: إنها تكشف فيه بالوثائق افتراءات الوزارة على عثمان، وتبرئتها لليهودى (ابن سبأ) من دم عثمان! وأن الوزارة فى أحد كتبها المدرسية اتهمت الخليفة باللين وتقريب أهله من بنى أمية واختصاصهم برعايته، فكان أن طالبت وفود الأمصار الإسلامية عثمان بعزل ولاته، وانتهى الأمر بمقتله، وهو ما أدى إلى الفتنة والانقسام فى صفوف المسلمين، ولم تنس الصحيفة الهمز من الدكتور (بهاء الدين) والغمز من قناته، وبإشارتها إلى أن تلك الافتراءات جاءت مع مجىء الوزير الحالى. ثم ترد على ما أسمته افتراءات بما رأته حقيقة تم إغماض العين عنها، والحقيقة هى أنه «فى عهد سيدنا عثمان كانت الشريعة مطبقة والحدود مقامة والإسلام الذى يوجه حياة الأمة.. وصارت الدولة الإسلامية أعظم دول العالم.. وعم الرخاء وكثر المال على عهد عثمان حتى بيعث جارية بوزنها».

إذا كانت الدولة الإسلامية قد أصبحت أعظم دولة فى العالم زمن الخليفة عثمان، وأن الرجل قد طبق الحدود وأقام الشرائع وحكم بالإسلام، ففيم قتل إذن؟ ثم تساؤل أكثر براءة: هل عصمت المؤسسة الإسلامية البلاد من الفتن والتمزق وقتل رأسها وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ومع منهج التقديس المفرط، الذى يتحول بالبشر غير المعصومين إلى قدسية العصمة، لا يجد دعاته سوى البحث عن سبب خارج إطار الأحداث الموضوعية، فما دامت الشريعة مطبقة، والحدود مقامة، والدولة فى أوج قوتها، وأهل ذلك الزمان هم من الصحابة الأجلاء، فليس هناك إذن من سبب واضح، وأن ضرب تلك القوة التى شرعت أسباب الأمان والتوحد يحتاج إلى شىء أسطورى يملك قدرات خرافية، يتلبس لبوساً شيطانياً، ولا بأس هنا أن

(*) نشر فى ١٥/٣/١٩٩٥ بصحيفة الأهالى، القاهرة.

يتم اختياره من اليهود المبغضين، ليصبح هو المحرك الخفى وراء الأحداث الكبرى فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية بغرض إجهاض الإسلام، حيث تمكن ذلك الشيطان اليهودى من إقناع الصحابة بالتحريض على عثمان، ثم قتله تلك القتلة المهينة. ثم تحريضهم بعضهم على بعض، ليقتلوا بعضهم بعضاً، ويتقاذفوا التهم، ويترامو بالكفر والفسوق، ويصبح ذلك الهلامى الغامض الشيطانى الهائل (ابن سبأ) تفسيراً سهلاً يريح نوازعنا التى تنزع إلى تنزيه الصحابة، والتى تدفعنا لتكوين رأى فى الصحابة هو أحسن من رأى الصحابة فى أنفسهم، ونستبعد - كدأبنا دوما فى كل نكساتنا - الأسباب الحقيقية للكوارث التى تحيق بنا، ونبحث دوما عن مؤامرات تحاك هنا وهناك يقودها حزب الشيطان لأمة الإسلام، خير أمة أخرجت للناس.

ثم لا نسأل أنفسنا: كيف تمكن شخص متفرد من فعل كل ما حل لدولة الإسلام وهى فى أوج قوتها؟ وهى تلتزم كافة الفروض والسنن مما يعنى - حسب منهجهم - أنها تحت رعاية الله مباشرة وحمايته؟ وأمر (ابن سبأ) بهذا التصور يجعل الأمة أمة هزيلة ضعيفة مترنحة، يستمع أهلها للوشايات، كلهم آذان، يسارعون إلى الفتنة مع أول همسة، وبينما (ابن سبأ) ينشر ما يخالف كل مفاهيم الإسلام، أى أنه بات معلوم الأمر مشهور الكفر، فإن الصحابة يستجيبون له من فورهم، فينقسمون شيعا، ويقتلون بعضهم بعضا (؟!) وهو ذات المنهج الذى لا زال يمارس حتى اليوم، فلا نرى فى كبواتنا أسبابها الحقيقية، ولا نعترف بهدوء بتلك الأسباب، إنما نبحث عن سبب خارجنا، وأن تلك الأسباب شياطين عظيمة القدرة والشأن تبغى تخلفنا ودمارنا، غير مدركين أن انتصار الأعداء الدائم ليس إلا نتيجة لذلك التخلف أصلا.

وعم الرخاء

يقول بلاغ الصحيفة الإسلاموية «عم الرخاء وكثر المال بشكل لم يسبق له مثيل.. وقال المؤرخ الشهير ابن سيرين: كثر المال فى عهد عثمان حتى بيعت جارية بوزنها»، دون أن يلتفت صاحب البلاغ أبداً إلى الظروف الاجتماعية زمن عثمان والتى أدت إلى نشوء طبقة ثرية عظيمة الثراء من قريش، ومن البيت الأموى - بيت عثمان - تحديداً، وأن ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه بعض أصحاب الحظوة والمحاسيب، هو ما قصده بالرخاء وكثرة المال، وهو الثراء الذى رافقه إسراف وصل حد السفه والتهتك، فبيعت جارية بوزنها، خاصة إذا ما وضعنا بالحسبان الوظيفة التى ستؤديها تلك الجارية (؟!) فمع كل المغازى والأموال والسبايا

التى تدفقت على المدينة مع حركة الفتوح، ظل هناك نفر من الناس فى حالة جشع وتهتك وصل بهم إلى المزايدة على الجارية المليحة لتباع بوزنها ذهبا، وهو الذهب الذى كان متفرقاً يوماً فى بهيمة لفلاح مصرى بسيط، وفى محصول حنطة لعراقى يعيش فى الأهوار، وفى بعض الشياة لشامى يرعى فى البوادى، ليجمع جميعه ويصب فى كفة ميزان تقف على كفته الأخرى جارية حسناء.

وكتب التاريخ الإسلامية والسير والأخبار ثرية بالأمثلة التوضيحية لأصحاب العقول، ومن تلك النماذج ما حدث عندما أطلق عثمان يد أخيه فى الرضاع (ابن أبى سرح) فى البلاد المصرية، وأرسل مما جمع فى مصر إلى عثمان غنائم وأموالا عظيمة، وكان قبله عليها (عمرو بن العاص)، الذى سبق وجبى بدوره من مصر جباية مرهقة، لكن جباية (ابن أبى سرح) كانت أعظم وأكثر إرضاءً للخليفة، مما دعاه أن يأتى بعمرو بن العاص ويسأله معرضاً بأمانته: «هل تعلم يا عمرو أن تلك اللقاح قد درّتْ بعدك؟»، فما كان من عمرو إلا أن أوضح ما آلت إليه أمور مصر بهذا الاستنزاف برده البليغ: «وقد هلكت فصالها!!».

فهل نعجب من كثرة المال فى عاصمة الدولة وهكذا كانَ الحال؟ أم نعجب ممن ترك إرثا - من الصحابة - يربو على الخمسين مليونا، أو ممن ترك ثروته ذهبا يقطع بالفؤوس، أم نعجب وسط كل تلك الأموال من حال الرعية، خاصة فى البلدان المفتوحة؟! أم من أرقاء الحال من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عاصمة الدولة الثرية، حيث كان (أبو ذر الغفارى) يدور بها يندد بالأثرياء، متحدثاً بلسان الفقراء، ثم أخذ يحتج على عثمان ويندد بأعطياته الضخمة لأهله من بيت المال، وبأعطياته لمن أراد تألفه من المعارضين لسياسته، لينتهى أمره بالنفى إلى (الربذة) ليموت فيها غريبا معدما، وأيضا حيث كان (عمار بن ياسر) الذى أعلن احتجاجه على المنح التى يأخذها تجار مكة الطلقاء، ووقف إلى جوار أباذر يدافع عن قضية الفقراء، فأمر عثمان بنفيه بدوره إلى الربذة، فاعترض الإمام على، فأمر بنفيه بدوره، لولا احتجاج الصحابة على عثمان بقولهم: أكلما غضبت على رجل نفيته، ولم يتم نفى عمار. وفى موقف آخر اعترض عمار على أخذ عثمان للجواهر القادمة من الأمصار وتحليته بها لبناته ونسائه، فرد عثمان: لنأخذ حاجاتنا من هذا الفىء وإن رغمت أنوف أقوام، فقال عمار بن ياسر: أشهد الله أن أنفى أول راغم، فرد عليه عثمان بسب قبيح قائلا: أعلىّ يا ابن المتكاء تجترى؟ ثم أمر الجند بضربه حتى غاب عن الوعى، ولم يهدأ عمار بل حمل كتابا من

بعض الصحابة يلوم عثمان ويعظه، فشتمه عثمان وضربه برجليه وهما فى نعل قاس، فأصاب الصحابى الجليل العجوز بالفتق.

بنو أمية وعثمان

ولعله من المعلوم أمر الصراع الذى كان يدور خفية حينا، وعلنا جهاراً أحياناً أخرى، بين أبناء العمومة من البيتين الهاشمى والأموى، قبل الإسلام وبعده، وبتولى عثمان الخلافة آثر قريشاً دون الأنصار، مما ترك فى مدينته معارضة لا يستهان بها فهى مدينة الأنصار، ثم آثر الأمويين بشكل خاص، وهو الأمر الواضح بكتبنا الأخبارية، ودونه المسلمون الثقات دون انزعاج، لكنه أزعج صاحب البلاغ المذكور إزعاجاً شديداً، فهل علم صاحبنا أن عثمان قد رد عمه الحكم بن العاص وأهله للمدينة، رغم أن جميع المسلمين كانوا يعلمون أن النبى أمر بطرده منها، بعد أن كان يمشى وراء النبى يسخر منه ويقلد حركاته ويتجسس عليه فى بيته، ترى ماذا يترك تصرف عثمان هذا فى نفوس المسلمين؟ خاصة وهم يرونه يأوى عدو النبى ويسبغ عليه مالا كثيرا، ثم يولى ابنه الحارث سوق المدينة ويسبغ عليه بدوره، ثم يجعل مروان بن الحكم وزيراً ومستشاراً. ثم يرونه يولى عدواً آخر للنبى صلى الله عليه وسلم هو (ابن أبى سرح) أخى عثمان من الرضاعة أمر مصر، بينما المسلمون يقرأون قرآنا نزل بتكفير ابن أبى سرح وذمه، فكان ابن أبى سرح يقول: سأنزل مثلما أنزل الله، ولما اعتصر الرجل مصر أرسلوا وفداً لعثمان يشكون (ابن أبى سرح)، فعاقب الشاكين وضرب أحدهم فقتله، ثم يرونه يولى أخاه لأمه (الوليد بن عقبة) ولاية الكوفة، وهم يعلمون كيف غش النبى صلى الله عليه وسلم، وكيف كفر بعد إسلام؟ ويذهب الوليد إلى الكوفة ليصلى بالناس وهو سكران، ثم يقر معاوية بن أبى سفيان الأموى على دمشق والأردن، ثم يضم إليه ولاية فلسطين وحمص ليملك بعدها الشام جميعاً، ويوطىء لمملكة الأمويين الوراثية العضود من بعده!! هل كان الناس مع هذا كله بحاجة إلى (ابن سبأ) أم كان ابن سبأ وراء هذا كله؟ أم نعترف بهدوء ولو مرة واحدة بخطأ حساباتنا فى قراءة التاريخ؛ أم نحن أكثر رؤية من (ابن الأشتر) الذى أرسل من الكوفة لعثمان بعد تولية الوليد ثم سعيد الأمويين يقول: «من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطىء الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره.. احبس عنا وليدك بسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك والسلام».

المحرضون الحقيقيون

بعد تلك الأحداث التى تدافعت على صفحات الزمن العثمانى، بكتب السير والأخبار، وما انتهت إليه من نتائج حتمية صبت الأمر كله بيد البيت الأموى المنتصر، يصر دعاة القداسة لغير المعصومين، على البحث عن أسباب خارج التاريخ، ويهرولون وراء شيء اسمه (ابن سبأ) يمسكون بتلابيبه ليجعلوا منه شخصا فريداً فذاً عبقرياً، تغلب قدراته حكمة الأمة جميعاً، وتدهم الصحابة ولم تزل آثار النبوة باقية بينهم، ليظهروا مسلوبى الإرادة والعقول، وهو الأمر الذى يزرى بتلك الأمة إن صدقناه، ويبعدنا عن بحث الأسباب الموضوعية لأحداث تاريخنا، مما يجعل ذلك المنهج فى التفكير قائماً يفرش ظله السحرى على حياتنا دون أن نلتفت إلى الأسباب الحقيقية لكبواتنا، ونطمئن إلى أوهامنا سادرين فى السمادير ونحن نهوى إلى قاع الأمم، بينما نظرة ناقدة فاحصة لكتب الأخبار تكشف ببساطة أن رواة الأخبار المتقدمين، لا ذكر لابن سبأ عندهم، فلا تجده عند ابن سعد فى طبقاته الكبرى، على كثرة ما بها من دقائق السرد وتفاصيل الأحداث والشخصيات، كما لا تجده أيضاً معلوماً من البلاذرى، وهما أهم المصادر بشأن فتنة عثمان، وكان أول ما ذكره الطبرى عن رواية لسيف بن عمرو (؟!) ويأخذها عنه المؤرخون من بعد، ممن ذهبوا مذهب صاحب البلاغ، لإيجاد تفسير يرضى هواهم فى تنزيه الصحابة وتقديسهم.

وبصدد قصة عثمان جمع أهل السير والأخبار تقريبا أهم الأسباب الموضوعية التى أدت للفتنة، والتى ذكرنا طرفا منها، وكانوا موضوعيين أكثر من أصحابنا هذه الأيام، ناهيك عن إشارتهم بالتلميح تارة وبالتصريح أطواراً، للمحرضين الحقيقيين، ونماذج لذلك ما رأيناه فيما سبق، أضافة إلى كون عثمان قد استعدى ضده نفراً من الناس ذوى التأثير البالغ، فقد استعدى (عمرو بن العاص) عندما غمزه فى ذمته وهو أحد دهاة العرب الكبار، ثم سار هو وولاته سيرة خشنة مع أهل الأمصار، وهو ما استنفرهم كما استنفر حاسة الحق والإنسان داخل الصحابة فى المدينة، ومعلوم أن ثورة المصريين كانت بسبب اشتداد الولاة عليهم، مع عامل آخر، حيث نجد محرضين حقيقيين لا وهميين، مثل محمد بن أبى حذيفة، ومحمد بن أبى بكر الصديق، اللذين تركا المدينة وذهبا إلى مصر تحديداً، ليحرضوا الناس على الثورة، ثم انضم إليهما بعد ذلك عمار بن ياسر.

ثم جاءت قمة الأحداث عند جمع المصحف وإبقاء صحف وإحراق أخرى، مما أدى إلى

معارضة الصحابى الجليل حبيب رسول الله (ابن مسعود)، وتنديده بما يفعل عثمان بآيات الله، حتى أمر عثمان بإخراجه من المسجد وضربه حتى كسرت أضلاعه، ثم حدد إقامته بالمدينة، حتى حصب عثمان مع الحاصبين من ثوار مصر وأهل المدينة وهو على المنبر.

وفى كتبنا الإخبارية لا تبدو المدينة بمعزل عن التمرد والإحتجاج بل نجد المدينة ذاتها والصحابة أنفسهم هم أساس المعارضة المنكرين لسياسة عثمان؛ بل تجد صهر عثمان (عبد الرحمن بن عوف) الذى سبق ورشح عثمان للخلافة، وقد أصبح من كبار المعارضين لعثمان، وكان يحرض على قتله، وهو أحد رجالات الهيئة التى رشحها عمر بن الخطاب للخلافة، وهو بذلك ليس خارجاً فبقية رجال تلك الهيئة كانوا على ذات الحال، ولهم مواقف مشابهة، فطلحة ابن عبد الله شارك بنفسه فى حصار عثمان كذلك سعد بن أبى وقاص شارك فى الثورة، أما الزبير بن العوام فقد اكتفى مع منح وأعطيات عثمان الجزيلة بالنصح له، أما على فكان معارضا للخلفاء الثلاثة على سواء، وقاوم عثمان أكثر من مرة خصوصاً بشأن الأموال التى كان يأخذها من بيت المال، وسبق وعلمنا رأى أبى ذر وعمار بن ياسر.

فأين ابن سبأ من هذا؟.

ومن المفترى بالله عليكم؟.

محمد الغزالى وسقوط الأقنعة!!

الشيخ محمد الغزالى منزعج هذه الأيام بشدة، ممن ناقشوا موضوع (الردة) بعدما افصح عنه الشيخ فى محاكمة القتيل (وليس القاتل)، وبعدما ردوه عليه على المستوى الفقهى والتشريعى، خاصة وأن الشيخ كان رمز الهزيمة النكراء فى المناظرة التى جرت أمام الدكتور فرج فوده، وأن الشيخ ذاته هو من جاء الآن ليحكم على ضمير رجل ميت، لإدانة القتيل وتبرئة القاتل، وما يمكن أن يلحق الموقف مما قد تهجس به النفس بين الأمرين، عن صاحب القرار الخفى وراء مقتل الدكتور فرج.

ويبدو أن مزعجا جديداً بدأ يقلق راحة الرجل، حتى دفعه إلى نسيان حذره وتقيته، التى أشاعت عنه حينا شائعة الاعتدال، فخرج عن حذره ليقول فى صحيفة الشعب (عدد ٧ سبتمبر ٩٣) : «إن من يناقشون حد الردة، يطلبون من علماء المسلمين فتوى تبيح الارتداد وتنسى عقوبته، لتقرير حرية الكفر والإيمان والسكر والنهب والسلب، وهم بذلك يصيحون: افتحوا أبواب الحانات ودعونا نلتقى بالنساء كما نشاء، وأن الاية التى يحتجون بها (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ليس لها سوى تفسير حقيقى أوحد، هو عرض الإسلام على الناس فإن قبلوه التزموا به ولا مكان بعد ذلك لحرية الاعتقاد، ومن يرى للآية تفسيرا آخر فهو كافر فى دولة مؤمنة، وعليه أن يطوى نفسه على ما بها، أو ليرحل إلى مكان آخر، أما أن أصر على التصريح بما يرى، فقد أطلق صيحات كفور تقرب أجله».

ورغم قوله: أن الدولة مؤمنة، فإنه يعود إلى الغمز واللمز، بقوله: ان أصحاب هذه التصريحات عصابات قليلة تستعين بالاستبداد السياسى لتفرض ضلالها، مشيرا إلى تحالف الدولة مع هذه العصابات الكفور.

حريــــة الاعتقـــــاد

والرجل إذ يقول: مطلوب من علماء الدين فتوى تبيح الارتداد وتنسى عقوبته، يغالط

(*) نشر فى ١٩٩٣/٩/٢٢ بصحيفة الأهالى، القاهرة.

مغالطة فاضحة، فهو يعلم يقينا أنه ليس مطلوبا منهم ذلك على الاطلاق، أولا: لأنه ليس فى صحيح الإسلام شيء اسمه حد الردة، وثانيا: لأنه يعطى نفسه وجماعته سلطة موهومة، متصورا أن أى أمر يمس مصير الناس يجب أن تصدر عنه فتوى من رجال الدين أولا، وهو الأمر الذى تجاوزه الزمن، اللهم إلا إذا كان الرجل يعيش حلم سيادة مقبلة، يحتكر فيها الرأى الأوحد والتفسير الأوحد، حيث وضح فى خطابه المذكور أنه ليس للآية سوى تفسير أوحد هو ما ساقه بشأنها.

وهو الأمر الذى يشير إلى ما يمكن أن يترتب على أى خلاف فى التفسير (ناهيك مثلا عن الخلاف المذهبى أو الدينى) ، فى دولة يحكمها رجال الدين، فتهمة التكفير مشهرة، ولا مجال حتى للخلاف فى الرأى أو الاجتهاد، ولنا أن نتصور حمامات الدم التى ستحدث حينذاك، لخلاف فى مصالح الرجال وأهوائهم، حول تفسير آية، أو حديث يخدم تلك المصالح أو يتعارض معها.

وهكذا، فالرجل قبل أن يتملك على العباد ويحكم فى الرقاب، يصدر قراراته بتكميم الافواه أو النفى والتشريد أو القتل، كما لو كنا نعيش فى العزبة التى ورثها عن آل غزالى.

الجمـــــــوح

والشيخ عندما يرى للآية تفسيرا أوحداً، يعطى نفسه قدرا حاشا لإنسان أن يجمح به طموحه إليه، فهو بذلك إنما يعطى نفسه قدرة الاطلاع على المقصد الالهى، بل ويفرض تفسيره على ذلك المقصد الرفيع فرضا، فيسوق للآية تخريجا يقول: إنها إنما تعنى عرض الإسلام على الناس دون اكراه، فإن آمنوا وكونوا جماعتهم ودولتهم، التزموا بذلك العقد الإيمانى.

ولوجه الحق، فإن هذا الرأى التفسيرى سليم إلى حد بعيد، لكنه لا ينفى آراء أخرى وتفاسير أخرى، وليس هناك شيء اسمه التفسير الوحيد الصحيح، وكان أولى بالشيخ إن أراد صدق المقصد، أن يلجأ إلى حيثيات الناسخ والمنسوخ مرتبطة بواقعها وظرفها الموضوعى، وكيف نسخت آية السيف ما سلفها من آيات حرية الاعتقاد، وأصبح الكفر ملة واحدة، واصبح الدين عند الله الإسلام، لكنه لم يرد أن يورط نفسه إزاء ما يزعمونه عن تمسكهم الإيمانى بحرية الاعتقاد لأصحاب الديانات الأخرى فى ظل دولة دينية يحكمون فيها.

هذا ناهيك عن كون ذلك التفسير للآية يسقط دعواه حول حد الردة، لأن الآية بذلك قد عرضت الإسلام على الجاهليين وغيرهم فى جزيرة العرب زمن الدعوة، عرضته على أناس

غير مسلمين عند تأسيس الجماعة (النواة) الأولى المؤسسة للدولة، وكان الخروج عليها حينذاك يعني فرط عقدها حيث حلت محل القبيلة، وأصبحت وطنا في وسط قبلي لا يعرف غير القبيلة وطنا، لكن مسلم اليوم، ولد مسلما، ولم يعرض عليه الإسلام وهو راشد بالغ عاقل، ولم يدع إلى عقد أو بيعة يقبل بشروطها أو يرفضها، ومن ثم فإن الظرف يختلف تماما عن وضع من قبلوا الإسلام عند تكوين الجماعة الأولى، ويبقى سؤال لا يحتاج إلى أجابة: هل يطبق على مسلم اليوم إن أراد اتخاذ موقف جديد بإرادته الحرة حد الارتداد، الذي هو غير مقرر أصلا؟ وهل نستحق ان نكون بشرا حقاً، عندما نهلل لمسيحي يخرج على دينه ليدخل الإسلام، ونقتل مسلما ليس لأنه خرج إلى دين آخر، بل فقط لأنه أراد أن ينتمي إلى بني الإنسان، فقرر لنفسه حرية الإرادة والتفكير، وناقش امرا من أمور دينه ليطمئن إلى طوية فؤاده، أو لأنه ناهض أمرا يراه ضد مصلحة البلاد والعباد.

التهديد بالقتل

وإن ما يؤكد الهواجس ويدعمها، أن الرجل ساق حديثه هذه المرة في هيئة من يملك سلطانا أو يتوقعه، بشكل يشبه بيانات المسئولين وتصريحاتهم، فهو يصدر الأوامر، ويتحدث عن سيطرة الإسلام وسيطرة الدولة، ثم يلقي بما لم يكن متوقعا، فيهدد المخالفين، (المؤمنين بأن الإسلام قرر حرية الاعتقاد)، بالقتل إن لم يصمتوا، لكنه في هذه الفقرة الأخيرة القاتلة تحديدا، تحول خطابه عن الجماعة إلى المفرد، كما لو كان يعني شخصا بعينه وبالذات، يعلمه ويوجه له رسالته الموجزة: آصمت أو إرحل، أو تقتل، ويبدو أن هذا الشخص ممن تصعب مناقشتهم أو اتهامهم بشيء من سيل الاتهامات المعتادة، والرجل بذلك يتصور أن بمقدوره أن يخيف، غير مدرك أن الموت دفعاعا عن قضية شريفة هو الخلود الحق، وأن من عرض نفسه على أمانة الكلمة ومصير الناس في هذا الوطن لا يخشى تهديدات الشيخ ولا قنابل صبيته، وان كانت ثقة الرجل وهو يلقي بهذا الكلام الفلوت تعكس تخطيطا بعينه يوقن بسلامة برمجته حتى النهاية، فمرحبا بموت يرحل بنا عن عالم أقنان تحت عرش عمائم وسيوف مشرعة، فموت صاحب المبدأ بشرف، يختلف تماما عن موت جهول يطمع في الخمور والحور، فلسنا نحن أيها الشيخ من يطلب الحانات والنساء (؟!) فقط لنتذكر ان من قتل لافوازيه لا يعرف أحد اسمه وبقي ذكر لافوازيه خالدا، ولنتذكر أن من ذبح الحلاج ذهب إلى سلة مهملات التاريخ وبقي ذكر الحلاج، ونحن نؤمن تماما أن ما نطمع إليه من حياة أفضل للأجيال المقبلة، لن يكون دون تضحيات نحن أهل لها، ولو كانت بقرارات قاتلة أنتم أهل لها.



يا أبا العزائم نظرة!

بعد عملنا الذى نشرناه بمصر الفتاة (الرد على الاضاليل فى تنظيرة بنى إسرائيل) والذى تم نشره على مدى عشرة أسابيع متصلة، كان مفترضا ومتوقعا ان تتم مهاجمتنا بشكل ما، وكان من الفطنة ان نترقب حملة قريبة علينا، ربما تأخذ أبعادا تتسم بالخطورة، وأن نتهيأ لما سيحدث، وبالفعل بدأت البوادر لكن بسرعة وسفور مدهشين!! متمثلة فى هجمة شرسة شنتها علينا مجلة تدعى الإسلام وطن (عدد ٥٢). وعلى واحد من أعمالنا، هو كتاب (الحزب الهاشمى) بحيث لبس الهجوم زيا مألوفا ومعتادا فى تأليب الجماهير وخداعها ضد مصالحها ولا جدال أن ربطنا لهذا الهجوم بأول الموجات ضدنا وضد أعمالنا مقابل المؤسسة الصهيونية العالمية يجد تبريره فى ذلك التزامن الغريب وفى طبيعة الجهة المهاجمة ومناهجها وهو الأمر الذى كان لابد يحمل ذلك المغزى الذى لا يخفى على لبيب.

ويزداد ذلك الترابط تبريرا إذا ما نظرنا إلى ذكاء الاختيار، وترتيب الأدوار، وطبيعة الخطاب الموجه ضدنا، واستفزازه للمشاعر الدينية، بأسلوب معلوم، استخدم ضد من سبقونا من باحثين مثلنا، كانوا يؤدون المقدمات لما نؤديه نحن الآن، وقد أدى ذلك الدور أحد كتاب المجلة المذكورة أعلاه، وهو أيضا أحد أصحابها وهو نائب رئيس مجلس إدارتها الذى هو شقيقه. فهو سماحة صاحب الفضيلة القطب الصوفى العزمى حفيد الإمام المجدد وابن الخليفة الأول، وشقيق الخليفة القائم لمشيخة الطريقة العزمية الشيخ السيد اللواء عصام الدين ماضى أبو العزائم، وهو فيما تزعم المجلة المذكورة سليل الحسن والحسين أى أنه من آل البيت أى أنه هاشمى فى حساب الأنساب. ومن هنا حشد الشيخ اللواء ما ينوء به من ألقاب ضدنا ليتناول كتاب (الحزب الهاشمى) وصاحبه بالقذف والتشهير والسب والتفكير، لكن كل ذلك فى رأينا.. رغم تجاوزه لآداب الخطاب وقواعد اللياقة لم يشكل سوى زوبعة كلامية لم تغنها تجاوزاتها وأغراضها عن أن تكون كالعهن المنفوش(؟!) بحيث كشفت عن سوء فهم متعمد، وأسقاط لسوء الغرض على نوايانا وما تخفى صدورنا، وهو الأمر الذى يكشف عنه وضع السيد اللواء

(*) نشر بالعدد ٣٨ فى ١٩٩١/٨/١٢ بصحيفة مصر الفتاة، القاهرة.

الطبقى وانتماؤه الوظيفى، وظرفه السيادى، ومنظومته التى يحتل فيها مكانا ومكانة. وعليه فإن كل ما قدمه السيد اللواء ليس فيه رد موضوعى واحد يستحق المناقشة، بقدر ما هو لون من التحريض الواضح، لذلك رأيناها من جانبنا استفزازا وتهجما نعلم خلفياته، ومن هنا فقط وليس من قيمة الموضوع - يأتى اهتمامنا بالإستجابة له حتى يكون هناك تقييم دقيق للقدرات، وممكنات الطرفين فى تلك المعمعة التى توشك على البدء والله المستعان.

منهج الخطاب

وقد اتبع الشيخ اللواء منهجا معتادا، ليس له غرض، سوى هزيمة الخصم بأى أسلوب ممكن، حتى لو كان تزييفا متعمدا على القارىء لتحقيق الغرض الأساسى وهو التحريض! ومن هنا قام السيد اللواء يقتطع من كلا منا على هواه، وينزع عبارات كتابنا من سياقها على نمط (لا تقربوا الصلاة) بحيث شوه ما كتبنا، وقال غير ما قلناه، غير مدرك إلى أى منزلق ذهب، لكنه لم ينس تخويفنا، فوضع فى صدر لعناته وسبابه صورة لسيادته بزى الشرطة الرسمى، تعمد فيها أن يلقى بكتفه الأيمن أمام عدسة المصور، ليظهر ما **يحمله كاهله من أثقال** ولبيان صورة النسر والسيفين لكل ذى عينين.

وهكذا يعلم القارىء من الصورة البهية، والألقاب السنية، أننا أمام مهاجم ذى شأن، يجمع بين قدرات العارفين الواصلين، وسلطان أهل السلاطين، إضافة إلى ما أبانه من إحاطة بالقول المأثور، والدر المكنون مثل أقوال (برنارد شو) و(كارلايل) والمؤرخ (ديورانت)، ومدائح السيد (ويلز) ومواجيد المستر (هارت)، فأبان عن علم واضح بالأقوال الابتدائية التى كنا نحفظها من كتاب المطالعة الرشيدة، ليكسب بها ثقة من لا يفقهون القول فيتبعون اسوأه، وأول ما يسترعى العجب فى هجوم السيد اللواء، أنه لم يضع لموضوعه عنوانا، إنما صدره بلافته عريضة، تحمل الآية الكريمة: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا﴾ وهكذا بدأ الرجل موضوعه بأحسن الكلام، لكن اختياره للآية وانتقاءه لها مع ربطها بما نسبه إلينا يكشف أنه بدأ بالغمز الصريح واللمز الواضح (ويل لكل همزة لمزة)، مستغلا كلام الحق تعالى فى غير موضعه، موظفا كلمات القرآن الكريم لغرض السب والقذف! وبحيث تحول ضابط الأمن من الحفاظ على أمن المواطن والذى يتقاضى عليه راتبه ضرائب من جيوبنا، إلى محرض لشذاذ الآفاق، من تتر هذا الزمان

الردىء ليستأصلوا شأفتنا وشأفة ولدنا من أطفال أبرياء، بعد أن ألصق بنا تهمة الكفر والضلال.

فلا تطالع أول كلماته إلا وتجده يقول عن كتابنا: إن به آراء وأفكار ضد الإسلام ونبى الإسلام وضربات خفية وظاهرة للإسلام وكعبة الإسلام!! وأننا فعلنا ذلك بوضع السم فى العسل؛ وهكذا ورط ذو السيفين نفسه بإصداراه الأحكام، بزعمه القدرة على قراءة النوايا بغير بيان، لذلك بات من حقه علينا لوجه الأمانة أن نعلمه بحقيقة موقفه معنا، بقولنا يا ذا السيفين لقد تجاوزت حدود وظيفتك، بل وعكست الأدوار ووظفت قلمك بتسرعك غير المحمود، فأصبحت أهلا لما يمكن ان نقول.

ونتابع مع السيد اللواء القطب الصوفى مسيرته التكفيرية فى تكفيرنا دون بيان، سوى قراءة النوايا ربما فى المندل أو فى الفنجان.. فيقول باجتراء غريب أننا لا نؤمن بالرسالة التى أرسلها الله دون أن يشق بأحد سيفيه عن قلبنا ويقرأ ما فيه؛ بل ويذهب إلى حد الزعم ان كلامنا فى الحزب الهاشمى لم ينطق به كافر يعادى الإسلام!! بل ونقف الآن مع أخطر انتقاءات السيد اللواء المختلة، حيث يقول: «جاء فى كتاب الحزب الهاشمى أن عبد المطلب بن هاشم كان من ذوى النظر الثاقب، والفكر المنهجى المخطط، استطاع أن يقرأ الظروف الموضوعية لمدينة مكة، وأن يخرج من قراءته برؤية واضحة، هى إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة، تكون نواتها ومركزها مكة تحديدا، رغم واقع الجزيرة المتشرذم أنذاك، ويؤيد ذلك بقول عبد المطلب إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء، وهو يشير إلى أبنائه وحفدته، (ويقصد الكاتب؟!) أن عبد المطلب كان يسعى لإنشاء دولة هاشمية يكون هو ملكها ومن بعده أولاده». وصل إلى حد اتهامنا بالطعن فى الرسالة والقرآن، وأننا قمنا نضرب آيات الكتاب الكريم بعضها ببعض.

ثم ينهال علينا سماحة الشيخ الذى لا يتسم بسماحة القول سبابا قائلا: «فإن لم يكن هناك رد لمن يسب الإسلام، فيكفينا رد غير المسلمين عليه وخاصة كارلايل»، وقد أتى بهذا الرد فى نماذج منها (البُلّه، المجانين، السفهاء، نتاج جبل الكفر والجحود والالحاد، دليل خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح) إلى آخر قائمة ما فى جعبة القطب العزمى من بديع الألفاظ منسوبة إلى (كارلايل).

اللواء يلوى الكلام

ولأن انتقاءات الشيخ اللواء لكلامنا، حتى وهى مقطوعة من سياقها، لم يكن فيها ما يدين أو يشين، فقد كان يردف بعد كل مقطع تعليقا من عنده يقول فيه (ويقصد الكاتب كذا وكذا، ويعنى الكاتب كذا وكذا، وكأن الكاتب يريد كذا وكذا الخ) فيدس أنفه فى عملنا، ويملى على القارىء البرىء الموقف المطلوب منا ويحمل نوايانا ما لا تحتمل من نواياه، ونموذج لذلك أمثله منها: «ويقصد الكاتب ان عبد المطلب كان يسعى لإنشاء دولة هاشمية يكون هو ملكها ومن بعده أولاده - ص ٢٠ - وكأنه يقول أن الكعبة المشرفة هى من صنع العرب لأنها صنعت كعبات أخرى كثيرة - ص ٢١، وكأنه يريد أن يضرب الآيات بعضها ببعض ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله - ص ٢٣، ويعنى الكاتب بقوله أن النبى - صلى الله عليه وسلم قد توعد القوم بالذبح، ونفذ هذه الرغبة فى غزوة بدر الكبرى - ص ٢٣».

ونقول للسيد اللواء، نعم لقد قلنا بالفعل ما نصه «عندما غمز أشراف قريش من قناة النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يطوف بالكعبة، التفت إليهم هاتفا: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح»، وكان طبيعيا عندما يقسم نبى أن يبر بقسمه، لذلك عقبنا بالقول: «وقد بر النبى - صلى الله عليه وسلم - بقسمه فى بدر الكبرى»، لكن القطب الصوفى يرفض ذلك الخبر برمته كما لو كنا قد افتريناه، أو ليجعل القارىء يعتقد ذلك، بينما الخبر متواتر فى كتب السير والأخبار الإسلامية، فإذا كان فى الأمر ملامة فهى على السيد اللواء لأنه لا يقرأ، وإذا كان مصرا فليتوجه بمعركته إلى التاريخ الإسلامى ولا نظنه بفارس لهذا الميدان.

ونعم قلنا أنه كان للعرب فى زمن بعيد، عدد من بيوت الآلهة التى كانت تبنى على هيئة المكعب، لذلك سميت كعبات وذكرنا منها بيت اللات وكعبة نجران، وكعبة شدادا الأيادى، وكعبة غطفان، والكعبة اليمانية، وكعبة ذى الشرى وكعبة ذى غابة، وأرفقنا مصادرنا فى الهوامش (الإكيل الهمدانى، وتاج العروس للزبيدى، وأصنام ابن الكلبى، والمفصل لجواد على)، مع كل معلومات النشر وأرقام الصفحات، فلم نفتر شيئا من عندنا، ثم ماذا فى الأمر من مزعجات يريد بها فتنة القارىء؟ إنه يسرب للقارىء قوله: «إن الكاتب يقصد أن كعبة مكة بدورها من صنع العرب»، نعم إنها من صنع العرب، فقد تهدمت وبنيت عدة مرات، وكل مرة كانت تبنى من طين الأرض وحصبائها وخشبها، وكان بناتها هم العرب أيها القارىء الكريم، ولا شك أن ذلك أمر معلوم والغرض عند السيد اللواء - مما يقول - أيضا مفهوم.

وفى أقوال الشيخ اللواء متفرقات أخرى، مثل قوله: أننا تجرأنا فى تفسير القرآن، كما فى تفسير الزنيم بأنه ابن الزانية فى الآية الكريمة ﴿هماز مشاء بنميم، عتل بعد ذلك زنيم﴾ والمضحك المبكى فى أمر اللواء وهو يلوى الكلام ليحرض علينا، نفيه لذلك المعنى، وإتيانه بالمعانى التى يراها صادقة ومنها «الزنيم هو الذى لا أصل معروف له، وقيل هو الدعى الملحق بقوم وليس منهم» وهكذا يتوهم سيادته فى القارىء عدم الفطنة، غير مدرك أن القارىء سيلمس بوضوح أن حضرة اللواء لم يأت بجديد، ومعلوم أن مكة قبل الإسلام كانت تغص بصاحبات الرايات الحمر (الزانيات بالأجر) لذلك كان طبيعيا أن يكثر أبناء الزنى والأدعياء.. وفى حادثة نسب لعمرو بن العاص إشارة واضحة لكيفية حل مثل تلك الإشكاليات فى الجاهلية، فهل كان السيد اللواء يعلم، أم كان يلوى الكلام، أم هو بحاجة لأن يعلم؟ على أية حال كلنا دائما بحاجة لأن نعلم ونتعلم، فقط يجب أن يتسم بنزاهة الغرض وعلمية المقصد.

ويأتى الشيخ اللواء بقولنا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - «قام يؤلب العبيد على أسيادهم بندائه اتبعونى أجعلكم أنسابا» ويحتج على قصرنا ذلك النداء على العبيد، ويزعم أنه كان موجها للعرب كافة، وأننا بذلك لا نعلم من التاريخ الإسلامى شيئا! لذلك، وفى حدود علمنا الضعيف نفهم أن ذلك النداء لو كان شاملا للعرب جميعا، لكان معنى ذلك أن جميعهم كانوا بلا نسب، حيث كان النسب له أهميته القصوى فى البيئة القبلية، حيث لا شرطة، ولا أولوية لحفظ الأمن، فقط كانت قوة النسب هى الضامن القبلى لحماية الفرد، وحيث لا حماية لمن لا نسب له، وعليه لا يصح التوجه بالنداء (اتبعونى أجعلكم أنسابا) إلا لفاقد النسب، لذلك منح النبى - صلى الله عليه وسلم نسبه لعبده زيد بن حارثة بعد أن أعتقه، وهو المثال الذى ضربناه ولم يعجب السيد اللواء.

الظروف الاجتماعية

ثم يستمر الشيخ اللواء مقتبسا من كتابنا قراءة تاريخية، يوهم القارىء أنه على علم مسبق بها، فيقول: «وإذا رجعنا إلى تاريخ العرب، نجدها لا تقبل النظام الملكى وسيطرة الملك على القبائل العربية، لأن ذلك يجعل لعشيرة الملك سيادة على بقية العشائر، وهو ما تأباه أنفة الكبرياء القبلى وتنفر منه، وقد ذكر الكاتب هذا المعنى فى ص ١٠ من كتابه، فإذا كانت هذه صفات العرب، فكيف يحلم عبد المطلب بتأسيس دولة هو ملك لها؟».

ومرة أخرى نقول: نعم ولا نتراجع قيد أنملة عما قلنا، فالكلمة أمانة، لكن اللواء رفيع المقامات نزع ما قلناه من سياقه، وأعاد ترتيب الفقرات بحيث تؤدى التأثير المطلوب لتحقيق التحريض وما يليه، لكن ذلك لا يعنى أننا لم نقل بل وأيم الحق قلنا غير هيابين. فلم نقدم فرية مفتراة، ولا أضعنا العمر ندرس المنهج العلمي، ونطبق أصوله فى بحوثنا، لننسحب مع مثل تلك الزمجرات الأولية، وهنا نجدنا مضطرين إلى اعطاء ذى السيفين درسا فى معنى قراءة الواقع قراءة علمية، والتى طبقناها على جزيرة العرب قبل الإسلام، والتى كانت هدف كتابنا وغرضه، وهو رأيناه بحاجة إليه، فأردنا به كسب الثواب.

ومن هنا نقول: إن كتابنا كتاب فى التاريخ الاجتماعى وليس كتابا فى الدين ولا أى من علومه، وضع بغرض قراءة وفرز أحداث المرحلة القبل إسلامية، وقد تعمد القطب العزمى عدم الإشارة لتلك القراءة الاجتماعية بالمرة، رغم أنها العماد الأساسى للكتاب. تلك القراءة التى تكشف أنه لم يكن عبد المطلب وحده هو الذى أدرك تهيؤ الواقع لقبول الوحدة السياسية بل أدركه آخرون، وسعوا إلى تحقيقه، مثل أمية بن عبد الله الذى أراد لنفسه النبوة والملك، ومثل عبد الله ابن أبى سلول، الذى كاد يلبس التاج الملوكى لولا مجيء الدعوة، ومثل زهير الجنابى وغيرهم كثير، لم تعننا أشخاصهم قدر ما عنانا الأدوار الهامة المؤثرة، أثناء تقديمنا لقراءة الواقع الذى أفرز توجهاتهم.

وهكذا فقد كانت مهمة الكتاب هى الكشف عن أوضاع الجزيرة، الاجتماعية والاقتصادية وبخاصة مكة، وبهذا الكشف علمنا أن تلك الأوضاع، قد دخلت مرحلة متسارعة من التغيرات الكيفية الناتجة عن تغيرات عديدة متراكمة، ومرتبطة بظروف أدت إليها، مما هيأ مكة للتحول من كونها مجرد استراحة ومنتدى وثنى دنيوى على الطريق التجارى، للقيام بدور تاريخى حتمته مجموعة من الظروف التطورية فى الواقع العربى والعالمى، وكان ذلك الدور هو توحيد عرب الجزيرة، فى وحدة سياسية مركزية كبرى.

ومعلوم أن ذلك التطور ترافق معه صراع أولاد وأحفاد (قصى بن كلاب) على ألوية التشريف والسيادة فى مكة، مما انتهى إلى انقسامهم إلى حزبين كبيرين متصارعين هما (الحزب الأموى) نسبة لأمية بن عبد شمس، و(الحزب الهاشمى) نسبة لهاشم بن عبد مناف، بينما كانت الساحة تتهيأ لفرز فكرة الوحدة، عبر سريان العقيدة الحنفية وانتشارها، بحيث ساهمت فى تحطيم العصبية القبلية لسلف كل قبيلة، وأعادت صهر الجميع بإعادتهم معا لسلف

واحد مشترك هو إسماعيل بن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كما ساهمت في القضاء على التشرذم القبلي، الذي كان يتأسس على تعصب كل قبيلة لنسبها وسلفها الذي هو ربها دون أرباب القبائل الأخرى. وذلك بالعودة إلى إله واحد هو سيد الجميع ومن هنا تهيأت الجزيرة لقبول فكرة الوحدة السياسية، عندما تهيأت لقبول فكرة السلف المشترك والإله الواحد، ومن هنا يكون توحيد الأرباب في إله واحد قد جاء عند الرواد الحنفيين كناتج طبيعي لهدير الواقع بذات السبيل، لكنه يسبق الواقع، لأن الفكرة تسبق الحدوث والتحقيق. وعليه فقد كان قبول الأرباب القبلية الانضواء تحت سيادة إله واحد، مقدمة نظرية، تترك الباب مفتوحا للقبيلة التي يمكنها تحقيق الأمل، كما كان يعني التوطئة المنطقية لقبول ما حدث في عالم السماء (عالم الفكرة) ليحدث في عالم الأرض (عالم الواقع) وقد حتمت الظروف وتضافرت الأحداث بحيث صبت الأقدار في يد قريش، وفي البيت الهاشمي الذي أخذ على عاتقه تحقيق هذا الأمر العظيم، والذي ترافق وتزامن مع تواصل الأرض والسماء وتطابق الفكرة مع حاجة الواقع وضروراته، ومع هبوط الوحي الذي تهيأت له الأسباب فمهدت له أرض الواقع، بحكمة لا تخضع لمؤامرات في التاريخ، ولا لرغبة قبيلة، ولا لإرادة عبد المطلب أو غيره من أفراد، إنما تضافرت له الأسباب التي تراكمت عبر فترة زمنية حتى نضجت لفرز واستقبال الإسلام تحديدا. فهل شرحنا وأوفينا؟ ويا أبا العزائم لا بأس إن شددت من عزائمك بمزيد من المثابرة على الاطلاع والتحصيل، ففيهما فضل آخر أضافة لفضل الأذكار والمواجيد، ويا أبا العزائم نظرة، ولكن في الكتب!!.



مابين «القمنى» وهذا المترجم!

يسجل مترجم هذا الكتاب الطبيب د. رفعت السيد واقعة مرة المذاق فى مقدمة ترجمته لكتاب «عصور فى فوضى - من الخروج إلى الملك إخناتون» - لمؤلفه عالم الطبيعة اليهودى الروسى (إيمانويل فلايكوفسكى)! والواقعة نسبها المترجم بما نصه: «ثم التقيت بالدكتور سيد محمود القمنى عام ١٩٩٢ وكنت أكن له من خلال كتاباته كل تقدير نظراً لرؤيته المتميزة لبعض جوانب التراث الشعبى الدينى فى الشرق العربى ومدلولاته التاريخية. وحين طلب استعارة المخطوطة المترجمة للاطلاع عليها نظراً لما ترامى إلى سمعه عنها وتشوقه لقراءتها لاستخلاص مايمكن استخلاصه منها فى إعداد مادة كتابه الذى كان مشتغلاً فيه فى ذلك الوقت وهو كتاب «النبى إبراهيم والتاريخ المجهول»، لم أتوان عن إعارته المخطوطة مع وعد منه بعدم نشر أية أجزاء منها. ولم تكد تمر بضعة أسابيع حتى فوجئت بالفصل الأول منشوراً على هيئة مقالات أسبوعية فى جريدة (مصر الفتاة) مع تعليقات وحواش، والمقالات تحمل اسم د. سيد القمنى. وهالنى أن ينكث عالم جليل مثله بوعود كان قد قطعها على نفسه، وبذلت كل جهد ممكن لوقف النشر، ولم أنجح فى ذلك إلا بعد أن كان الفصل الأول قد نشر بأكمله، وغنى عن البيان أنه قد جمع تلك المقالات بعد ذلك مع بعض الإضافات فى كتاب آخر أصدره باسم: «إسرائيل- التوراة.. التاريخ.. التضليل»!

والكتاب الذى وردت فيه هذه الواقعة صدر عن دار سينا للنشر هذا العام فى شهوره الأخيرة، ومعنى ماورد أن المترجم يوجه اتهاماً صريحاً إلى د. سيد القمنى بأنه لم ينكث بوعده له فقط! بل ونشر الفصل الأول من المخطوطة المترجمة مقالات باسمه دون نسبتها إلى المترجم! الذى سعى بالطبع إلى وقف النشر فتم له ما أراد بعد لأى!

ولولا أن هذا قد أصبح منشوراً ماكنا تعرضنا له هنا بالتعليق، كما أننا لانملك تأكيد ماورد أو نفيه، والحقيقة فيه عند د. سيد القمنى، لكننا نسعى لجلاء هذا الأمر، لاسيما وأن المسألة تخص باحثاً كبيراً وكاتباً ومفكراً مبدعاً وصاحب اجتهاد متميز وملحوظ فيما يختص بالدراسات

(*) مقال كتبه الأستاذ حازم هاشم بصحيفة الوفد بتاريخ ٧/١١/٩٥، القاهرة.

التراثية العربية والإسلامية، والصلة نراها منعقدة بين المترجم ومخطوطته وبين د. سيد القمنى. ليس فيما كتبه المترجم فقط، بل وفى كتاب د. سيد القمنى (إسرائيل.. التوراة.. التاريخ.. التضليل) الذى ذكر المترجم أنه يحوى تلك المقالات التى نشرها د. القمنى فى جريدة (مصر الفتاة) محتوى الفصل الأول من مخطوطة المترجم! والكتاب نشرته (دار كنعان) للدراسات والنشر ومقرها دمشق، وطبعت منه ألف نسخة فى طبعته الأولى عام ١٩٩٤، ونلاحظ فى هذا الكتاب أن المترجم صاحب المخطوطة يرد ذكره فى صفحة رقم ٩٧ بعنوان «التأسيس» فى الهامش أسفل الصفحة هكذا «إيمانويل فليكوفسكى: عصور فى فوضى عن ترجمة مخطوطة قام بها الطبيب د. رفعت السيد»، وفى حين أن هذه الصفحة بداية لفصل طويل موضوعه كله مناقشة د. القمنى لوجهات نظر (فليكوفسكى) فى الكتاب الأصلى «عصور فى فوضى» من خلال المخطوطة المترجمة فإننا لانجد بعد ذلك أية إشارة إلى المترجم ومخطوطته إلا هذه المرة الوحيدة! حتى فى ثبت المراجع واستشهادات البحث الواردة فى آخر الكتاب لايرد ذكر المترجم ولا مخطوطته! مع أن د. القمنى نراه يورد فى هوامش بعض الصفحات المراجع وأصحابها ويعود إلى ذكرها مرة أخرى فى ثبت المراجع واستشهادات البحث آخر الكتاب! وفى نص إهداء (فليكوفسكى) كتابه لأبيه، يلتزم د. القمنى بترجمة د. رفعت السيد بالنص! وفى كثير من المواضع يفعل نفس الشىء! مع إضافات وتعليقات بالطبع، وكان هذا ماطالعناه من أوراق المسألة هنا وهناك، ونثيره بكل الحرص على ألا يظل اتهام المترجم للدكتور القمنى معلقاً فى ثنايا صفحات كتابه الصادر مؤخراً ودون جلاء لحقيقة يملكها المترجم ود. القمنى وحدهما فقط!

الصهاينة مرة أخرى(؟!)

كنا قد آلينا على أنفسنا عدم الاستجابة لأية استفزازات، حتى لاننشغل بمعارك وهمية تصرفنا عن أبحاثنا، خاصة مع إدراكنا لحجم الشراك المنصوبة تلك الأيام، والتى نعلم جيداً دقائقها وآلياتها وأهدافها، لكن مانشره الأستاذ (حازم هاشم) فى (الوفد) بتاريخ ١٩٩٥/١١/٧ تحت عنوان (مابين القمنى وهذا المترجم)، ودعوته الواضحة لنا للرد على ال٤٤بيب (رفعت السيد) حول ماكتبه فى مقدمة ترجمته لكتاب (عصور فى فوضى)، لمؤلفه الكاتب الصهيونى (إيمانويل فليكوفسكى)، إضافة إلى العبث غير المحمود الذى ساقه الطبيب المذكور، كل ذلك لم يترك لنا فرصة التمسك بمبدئنا، حيث انزلق السيد الطبيب إلى منزلق شديد الوعورة، غير مدرك إلى أى منحدر ذهب، فطعن فى أمانتنا العلمية، وهى الرصيد الوحيد الذى نملك ونتيه به اعتزازاً، ومن هنا تأتى استجابتنا لدعوة الأستاذ حازم هاشم، وهى الاستجابة الكفيلة بإنهاء الأمر بالقاضية، حتى لانترك مساحة لمزيد من المهاترات، وحتى لايطول أمر الأخذ والرد، لكن ذلك لايعنى حرمان القارىء من متعة المتابعة، فسنعطيه هنا قدراً كافياً من المتعة، وبغرض العودة السريعة إلى مكاننا الحقيقى بعيداً عن السجال حول أمور هى كالعهن المنفوش، ومن هنا نعتقد أن السيد الطبيب بدوره سيلتزم الصمت الحميد وفى ذلك كفاية وغنى.

وكان السؤال الذى تبادر إلى ذهنى فور قراءتى للوفد، هو: لماذا صمت السيد الطبيب منذ التقانى عام ١٩٩٢ ـ حسبما قرر هو فى مقدمة الكتاب المذكور ـ وحتى اليوم، ليخرج الآن عن صمته؟ أما لو كنت مكان أى قارىء آخر لكان السؤال هو: لماذا لم يبادر سيادته من فوره إلى اتخاذ الخطوات القانونية الرادعة فى مثل تلك الأحوال؟ لكن لو حاولت الإجابة على سؤالى أنا، مع الأخذ بحسن الظن، لذهبت إلى احتمال أن الرجل وهو لم يبدأ بعد خطواته فى عالم الكتابة، قد هدته قريحته إلى أن أقرب طريق إلى الشهرة هو التهجم على شخص يتم اختياره بعناية، وإذا كان ذلك كذلك، فقد فعلها الرجل دون أن يرمش له جفن، بجرأة متفردة

(*) نشر على حلقتين بصحيفة الوفد بتاريخ ١٩٩٥/١١/١٤ و ١٩٩٥١١/٢١.

ومغامرة يحسد عليها، لكن ذلك الاحتمال تراجع إزاء معطيات أخرى يمكنها أن تفسر لنا سر تلك النزوة المفاجئة، لمغامرة نزقة، فى منطقة خطرة عسرة العبور.

رواية هذا الترجمان

يحكى لنا الطبيب الترجمان فى مقدمته رواية غاية فى الطرافة والظرف، فيقول: إنه قد التقانى عام ١٩٩٢، عندما كانت ترجمته لكتاب فليكوفسكى لم تزل بعد مخطوطة بأدراج مكتبه، لكن تلك الترجمة غير المنشورة ـ بمعجزة غير مفهومة ـ طبقت شهرتها الآفاق حتى وصلتنى أخبارها، حيث كنت أقيم بمدينة الوسطى (كذا؟!)، وعندها هرعت إلى السيد الطبيب أسعى، أطلب منه استعارة تلك المخطوطة الأسطورية لأطلع عليها، وحسب قوله أنى قد فعلت ذلك بعد ما ترامى إلى سمعى عنها، وتشوقى لقراءتها، وذلك كى أستعين بها فى كتاب كنت أكتبه حينذاك، هو كتاب (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول).

وهكذا وجه الرجل لنا اتهامين دفعة واحدة، الأول أننا استعنا بفليكوفسكى فى كتابنا (النبى إبراهيم) دون أن نشير إليه كمرجع لأنه بالفعل غير مدرج كمرجع، أما الثانى فهو أننا قد أخذنا بأفكار كاتب صهيونى فى معالجة مسألة تتعلق بأب الأنبياء خليل الله عليه الصلاة والسلام. والغريب أن الطبيب الملهم لم يكلف نفسه عناء النظر فى تاريخ طباعة ذلك الكتاب الذى صدر عام ١٩٩٠، واستغرق العمل فيه ثلاث سنوات قبل صدوره، وهو مايعنى أن الكتاب قد صدر قبل أن ألتقى بالترجمان المعجزة بسنتين كاملتين. ومعلوم أن مثل هذه الافتراءات من النوع الذى يعاقب عليه القانون، وهو ماننوى الإقدام عليه بكل سعادة، رغبة منا فى العقاب اللائق لتطهير مناخنا الثقافى، وليكون رادعاً ماثلاً دائماً للنماذج المشابهة.

ونتابع مع الرجل مندبته المأساوية وهو يجأر بالشكوى قائلاً: إنه أعطانى مخطوطته المترجمة لكتاب فليكوفسكى، بعد أن أخذ منى وعداً بعدم نشر أى جزء منها(؟!) أى أنه كان يخشى على مخطوطته سلفاً ومع ذلك وثق فى وعدنا الشفاهى (هكذا!؟)، لكن الرجل يكتشف كم كان غراً عندما أعارنا المخطوطة، لأنه لم تكد تمر أسابيع حتى فوجىء بنشر ترجمته فى مقالات أسبوعية بصحيفة (مصر الفتاة)، وبأننا قد وضعنا اسمنا على ترجمته للكتاب، وأننا كى نمرر تلك السرقة اللئيمة لجهد الرجل المسكين، أضفنا إلى تلك الترجمة بعض المقبلات، مع تعليقات هنا، وحواشى هناك، لذر الرماد فى العيون.

ويزعم الطبيب الترجمان أنه بذل جهوداً مضنية لإيقاف نشر ترجمته لكتاب فليكوفسكي باسمنا، وتمكن من ذلك فعلاً، لكن بعد أن كنا قد نشرنا الفصل الأول كاملاً، ولأنى رجل لا أرتدع عن الغي، فقد تماديت وأدرجت مقالات (مصر الفتاة) بكتابي (إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل)، وأضفت إليها بعض التوابل والمشهيات في عبارة هنا وجملة هناك، لمزيد من الضحك على ذقن القارىء والمترجم، إنها إذن فضيحة بكل معنى الكلمة، وظل الرجل صامتاً يمضغ أوجاعه بصمت الكبراء والكاظمين الغيظ، حتى قرر أن يتكلم الأمس فقط، فأي تسامح؟ وأية مروءة؟ وأي ترفُّع؟ لكن ماذا يفعل الرجل بنفسه وهو يسوق أكاذيبه، عندما يكتشف أنه لم يجهد نفسه في صياغة الكذب المرتب، حيث أن دراستنا التي أشار إلى نشرها بـ(مصر الفتاة)، والتي نشرناها تحت عنوان (الرد على الأضاليل في تنظيرة بني إسرائيل)، وكانت رداً على الصهيوني فليكوفسكي، قد نشرت خلال عام ١٩٩١، أي قبل أن يلقاني سيادته بعام كامل(؟!).

يبدو أن الموضوع سينتهي عند هذا الحد، ولم أف قارئي الوعد بالمتعة المنتظرة، وهو غبن لقارئنا الكريم، وحتى لاتأخذ القارىء بنا ظنون عدم الوفاء، أجد من واجبي توسيع الحكاية حسب الأصول، ومن هنا أقدم للسيد الطبيب مثالاً للأمانة لعله يحتذي به في مستقبل أيامه، فأقر هنا رغم انتهاء الأمر بهذا الشكل، أن الترجمة التي اعتمدنا عليها في ردنا على كتاب فليكوفسكي الصهيوني (عصور في فوضى)، كانت بالفعل ترجمة صاحبنا الترجمان، وهذا درس آخر في جرأة الواثقين المطمئنين، أما كيف حدث ذلك؟ فهي حكاية أخرى.

زيارة الترجمان للصعيد

أكد الطبيب الترجمان أنه قد التقاني عام ١٩٩٢، لكن لأن للشرف رجاله، فإني أصحح له المعلومة لصالحه، حيث أنه قد تجشم مشقة زيارتي لأول مرة في بيتي بمدينة الواسطى في شتاء ١٩٩١، كأي زائر من قرائنا الكرام الساعين إلى التواصل مع كاتبهم، لكن زيارة الرجل كانت بغرض آخر، حيث جاء يطلب منا رعايته كمبتدىء هاو، ومساعدته على نشر مخطوطة من ترجمته أحضرها معه لأن المخطوطة تواجه عقبات شديدة في نشرها، كما طلب - إذا أعجبتني - أن أكتب لها تقديماً يساعد على انتشارها.

ووعدت الرجل خيراً، وبدأت مطالعة ترجمته لكتاب فليكوفسكي (عصور في فوضى)،

ولكن لأكتشف أنى أمام شرك عظيم، وأن عدم تجروء دور النشر على نشره له مسوغاته وحيثياته، حيث وجدتنى بإزاء عمل هائل وشديد الخطورة هزنى هزاً، حتى لحق الهز بالثوابت، ووجدت أمامى فناً عاليا وعظيما بل ورائعا ومثيراً للإعجاب، فى تزوير حقائق التاريخ والعقائد، لصالح الفكر الصهيونى، كما لاحظت أن العمل قد وقفت وراءه ودعمته جامعات عالمية كبرى، وأساتذة كبار فى شتى صنوف المعرفة، وهنا كان لابد أن يطفر السؤال قافزاً: إذا كنت وأنا المتخصص قد حدث لى كل هذا الانبهار، - مع هول الصدمة - إزاء ذلك التكينك الصهيونى العالى الجودة والامتياز، فماذا سيكون شأن قارىء عادى دون أن يتسلح برد على ذات المستوى من الأصولية العلمية والاقتدار؟ بينما الكتاب يتألق تحت ستار براق من العقلانية والعلمية والصرامة الظاهرة، لينقض نهشا على تاريخ مصر وتاريخ العرب، ليؤسس لإسرائيل مكانها فى التاريخ وفى العلم وفى العقول وفى القلوب، وكانت الدهشة أكثر عندما علمت أن أول طبعة للكتاب بالانكليزية كانت عام ١٩٥٢، ومع ذلك لم نسمع فى بلادنا لو رد واحدٍ على ذلك الكتاب، بل اكتشفت أن العكس هو ما قد حدث بالضبط، حيث استعان به كتّاب عرب كمصدر غفل من الإشارة مفترض أنهم مهمون أشرت إليهم فى حينه.

هنا وجدت معركة حقيقية من النوع الذى يستهوينى، خاصة أنى سأخوضها فى ميدانى الذى أعرف مسالكه ودروبه، وقررت فضح كل هذا الكم من التزييف التاريخى وتزوير الحقائق، لكن اللياقة الريفية اللعينة دعتنى إلى عدم تجاوز الترجمان الطبيب، خاصة وأنه كان السبب فى تعريفنا بذلك الكتاب الخطير، وعليه طلبت من السيد الترجمان الحضور إلى بيتى، وأحطته علما بقرارى الرد الفورى والسريع دون إبطاء على ذلك الزيف المخيف الذى تأخر الرد عليه طويلا.

وبالفعل حضر السيد الترجمان يركب سيارته المرسيدس الفاخرة، واستمع إلى جزء طويل من ردودى على فليكوفسكى، بينما وجهه يتلون ويتبدل، ثم انحدر فجأة إلى حالة عصبية دفاعا عن طروحات الكاتب الصهيونى، مما أشعرنى أن وراء الأكمة ما وراءها، ومن ثم كان ردى الفورى هو أنى سألجأ إلى ترجمة النصوص التى سأرد عليها من جانبى ومباشرة، من النسخة الإنكليزية التى كان قد أحضرها لى لتدقيق ترجمته، وسافر الرجل ليعمل تفكيره فى قرارى الحاسم والقاطع، لكن لتختفى من على مكتبى النسخة الانكليزية مع مغادرته، وأسقط

فى يدى. لكن فى ذات الليلة اتصل بى السيد الترجمان ليقدم لى اقتراحا يقول: ما المانع أن أستثمر ترجمته الموجودة لدى الآن ما دمت متعجلا؟ على أن أشير إليه كمترجم لنص فليكوفسكى بشكل واضح مع نغمة نفعية عالية الصراحة. مفادها أن ذلك سيكون دعاية متميزة لترجمته حين نشرها، وإزاء تلك النفعية الواضحة، تراجعت ظنونى فى طبيعة علاقة الترجمان بمنظومة الكتاب، وبما جبلنا عليه من مد يد العون للمبتدئين، قررنا العمل باقتراحه.

وقمت بالرد على تأسيسات فليكوفسكى التى أوردها بفصله الأول، حيث أن بقية الفصول كانت إعادة لتوزيع المعزوفة التأسيسية حسب نوتات أخرى، وقد قلت ذلك واضحا فى مقالى الأول، وأنجزت ذلك الرد فى عشر مقالات سلمتها كاملة للأستاذ مصطفى بكرى رئيس تحرير مصر الفتاة أنذاك، ونشرت على التوالى كاملة دون توقف، هذ بينما يقول السيد الترجمان أن ما نشرناه كان ترجمته هو، وأننا كنا نزمع الاستمرار بنشر الكتاب كاملا لولا تدخله لإيقاف نشر بقية الفصول، ولعل الأستاذ مصطفى بكرى يقرأ معنا الآن ليدلى بشهادته حول هذه الجزئية، أى أن السيد الترجمان لم يتدخل ويوقف نشر بقية ترجمته المسروقة كما زعم، حيث لم يتسلم الأستاذ بكرى سوى تلك الحلقات العشر فقط وقد نشرت كاملة.

حقوق الترجمان

وعملا بالأصول العلمية، واتباعا لشروط الأمانة البحثية، قمنا بتصدير الحلقة الأولى بالبنط العريض برأس المقال، بأشارة واضحة إلى أن العمل الذى سنرد عليه هو من ترجمة الطبيب رفعت السيد، وعدنا إلى تكرار الإشارة فى الحلقة الثالثة نظراً لورود نصوص كثيرة من تلك الترجمة فيها، وفى ختام المقال العاشر والأخير طلبت من الأستاذ مصطفى بكرى تليفونيا أن يكتب بنفسه شكر وتقدير لتلك الترجمة، وقد جاء نص ذلك التنويه فى مربع بلون متميز لمزيد من الإيضاح، وكان نصه: «يتقدم د. سيد القمنى بالشكر إلى الزميل د. رفعت السيد الذى ترجم كتاب عصور فى فوضى، وبذل فيه من الجهد والعرق مايستحق التقدير».

وعندما قررنا توسعة الرد على تلك المدرسة الصهيونية، أصدرنا كتابنا (إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل)، وضمنه تلك الردود، وعند ورود الجزء الخاص بعرض أسس نظرية فليكوفسكى التى سنرد عليها وذلك ص ٩٧، أحلنا إلى المترجم بحاشية مستقلة واضحة تقول: (إيمانويل فليكوفسكى: عصور فى فوضى، عن ترجمة مخطوطة قام بها الدكتور رفعت السيد)، وهو الترتيب العلمى لعناصر معلومات الكتاب حسب الأصول الأكاديمية، أما ملحوظة

الأستاذ حازم هاشم، أن تلك الإشارة لم تتكرر بعد ذلك عند ورود نصوص نرد عليها بالكتاب، فهو الأمر الذى ما كان ممكنا، فالترجمة مخطوطة بلا أى معلومات نشر نحيل إليها، فلا اسم ناشر، ولا طابع، ولا بلد، ولا صفحات أيضا، فكيف نحيل إلى صفحات غير منشورة ؟ وللتغلب على تلك العقبة وضعنا تلك الإشارة الواضحة فى مستهل عرض طروحات فليكوفسكى، مع إبراز الاقتباسات بعلامات التنصيص أحيانا، بالهامش الأوسع أحيانا أخرى، وهى من الأدوات الأكاديمية المعلومة.

ولو قمنا بجمع النصوص الفليكوفسكية التى أوردناها للرد عليها، فى اتصال سردى، لما تجاوزت العشرين صفحة، فى كتاب يمهد لها، ويناقشها، ويرد عليها، فى مائتى صفحة كاملة، جهدنا عليها زمنا حتى أنجزناها، وهى الردود التى أسماها السيد الترجمان (تعليقات وحواشى).

وأذكر أنى بعدما نشرت تلك الردود التى تكشف الكتاب والدوائر التى تقف من ورائه، فاجأنا السيد الطبيب بالعدد (١٣٩) من مجلة القاهرة بمقال يتلبس الزى الوطنى والقومى الغيور ضد فليكوفسكى، وهو ما عاد إلى غرفه فى مقدمة ترجمته التى نشرت بالأمس القريب، لكن ليقدم لنا الآن، والآن بالتحديد، كتابا مليئا بالمتفجرات الموجهة. بالطبع نحن لا نصادر على نشر أى كتاب من أى لون، لكن يبقى ذلك السؤال الأرق الملحاح يهمس: لماذا نشر مثل هذا العمل الآن تحديداً، خاصة وأنه الكتاب الوحيد الذى ترجمه السيد الطبيب، فلماذا هذا الاختيار من بين ملايين الكتب التى تحتاجها مكتبنا العربية فعلا ؟.

مرة أخرى- إذا أخذنا بسوء الظن- فسيكون ما أزعج صاحبنا الترجمان ليس موضوع الترجمة، بل ردنا نحن غير المتوقع على فليكوفسكى الذى تصوره من النوع الذى لا يقهر، فهل يسعد صاحبنا الطبيب القيام بدور حارس الشرف للكتاب- الصهيونى ؟.

أما إذا كانت الإجابة تأخذ بحسن الظن، فإن السيد الطبيب قد كسب رهان المغامرة، عندما اضطرنا للرد عليه، ليشكل ردنا دعاية مجانية لسيادته، وللكتاب، وبالطبع للدار الناشرة التى تجرأت على نشر هذا الكتاب أخيراً، بعد ما رفضته كل دور النشر الأخرى.

وبعد، فقد استجبنا لدعوة الأستاذ حازم هاشم بذلك الرد النهائى، الذى يتضمن درساً واضحاً لأشباه السيد الترجمان، ونحن واثقون أنهم سيعملون بالحكمة البليغة: (أنج سعد فقد هلك سعيد).

مقالات ودراسات



حول الحاجة لتحديد المفاهيم

من لحظة زمنية بعينها، تلك التى تواصلت فيها السماء مع الأرض عند نزول الوحى القرآنى، ومن مكان بذاته يتمركز فى بلاد الحجاز من جزيرة العرب، تحدد (زمكان) التراث لدى أصحاب الاتجاهات الاصولية الإسلامية. بل أنه من جانب آخر ذات التحديد لدى شريحة كبرى من الباحثين المهتمين بالدراسة حول الهوية والآخر وفق تصور عروبى ضرورى جامع يلتقى بالضرورة بالتأسيس الأصولى الإسلامى لمعنى التراث كمرجعية أولى أساس، وهى الرؤى المؤسسة سلفا على مقدمات تحاول إيجاد جامع مشترك، كناتج لعدم تأسيس اصطلاحى ومفهومى واضح، لمفاهيم (الوطن، العروبة، الأمة القومية، التراث).

وذلك بدوره ليس إلا ناتج الالتباس الحادث بين الإسلام كعقيدة جامعة لمجموعة شعوب تدين به، وبين (العروبة) كهوية قومية جامعة لمجموعة الشعوب الناطقة بالعربية، وتتشارك عبر التاريخ فى تفاصيل تؤطر لفكرة توحد أصيل باعتبار أن المفهوم العروبى يتأسس تاريخيا على فتوحات عرب الجزيرة للاقطار المحيطة والتى تحولت إلى العروبية (لغة) لتؤسس دولة عقدها الجامع هو الإسلام، وتحول شعوب الأقطار المفتوحة إلى العقيدة الإسلامية المؤسسة للدولة الأولى (دينا).

ومن ثم تارجحت حالة الالتباس حول الهوية، بين مفهومى (العروبة) و(الإسلام) ليلقى كل منهما بظلاله على مفهوم (المواطنة) بخاصة إذا أخذنا بالحسبان أن شعوب البلدان المفتوحة وأن تحولت جميعا إلى اللغة العربية (لغة قريش) فإنها لم تتحول جميعا إلى عقيدة الإسلام (دينا)، وعليه فقد ظل داخل تلك المجموعة البشرية عربا لا يدينون بالإسلام وبين تحديد الهوية السارى الآن بالإسلام، ورد فعل العربى غير المسلم بتحديد هويته بدينه، ضاع الوطن بين الطرفين، وإعمالا لذلك يصبح الالتباس والتداخل بحاجة ماسة إلى تحديد مفهومى واضح، يرتكز على قراءة علمية تاريخية مجتمعية لرفع الالتباس، والبدء من مرتكزات واضحة.

(*) نشر فى ٣/١١/١٩٩٣، بصحيفة الأهالى، القاهرة.

القطيعة التاريخية والمعرفية

والسؤال الأهم هنا هو: هل شكل الإسلام قطيعة تاريخية ومعرفية مع ما سبق، بحيث يمكن احتسابه وحده مع بداية تواتر الوحى هو كل تراث الأمة؟.

على مستوى الرؤى الاصولية لابد أن تكون هناك قطيعة تاريخية، فيبدأ الإسلام من لا شيء، فهو مفارق سماوي، أزلي الكلمة المقدسة، غير مرتبط بماض أرضي، رغم الواضح في القرآن الكريم وما لحقه من أحاديث نبوية، وما ارتبط به من أحداث تجادل معها الكلم المقدس أخذا وردا. فاعلا ومنفعلا مؤثرا ومتأثرا وما تأسس على كل هذا فيما بعد من اصطراعات مذهبية ورؤى فلسفية استندت إلى جدل المقدس مع حدث الواقع الموضوعي، وهو ما يشير بوضوح إلى تناقض تلك الرؤية مع قواعد الإيمان ذاته وتاريخ الدعوة ناهيك عن استحالة القطيعة التاريخية، لأنه لا شيء إطلاقا يبدأ من فضاء دون قواعد مؤسسات ماضوية يقوم عليها، ويتجادل معها، بل ويفرز منها حتى لو كان دينا.

والدارس لآيات الوحي يجدها تنبئه بوضوح أنه لم يكن هناك قطيعة معرفية - أيضا - مع السابق الأرضي، وان تشكلت تلك القطيعة بالفعل على المستوى الإيماني البحت كناتج لتأسيس الإسلام لذاته ولمصداقيته على طرفين الأول الاتصال بذلك القديم وتقديم معرفة به، ثم على الطرف الثاني تم نفي هذا القديم باعتباره أفكارا باطلة وعقائد أمم كافرة، وهو الأمر الذي ساعد على لون خطير من فقدان الذاكرة التاريخي الجماعي، وأسهم فيه بدور أساسي وتام انقطاع الشعوب المفتوحة عن لغاتها القديمة باعتبارها وعاء ذاكرتها وتاريخها وحضارتها، وحاصل خبراتها وتفاعلها مع واقعها عبر زمن طويل، وما أفرزه ذلك التفاعل من ثقافة احتوتها اللغة المفقودة.

وعليه (على سبيل المثال) فقد انقطع المصرى عن تاريخه، ولم يعد يذكر من ذلك التاريخ سوى ما قدمه له الإسلام من معلوماتية بشأنه، وهي المعلوماتية التي تحدد الموقف المعرفي ليس بكونه تاريخا، وموضوعا للمعرفة، إنما بوقوعه بين طرفي معادلة الإيمان والكفر(!) وبالتالي تم تلخيص ذاكرة مصر بكل تاريخها فى فرعون طغى، وتجبر فكان مصيره الهلاك غرقا مع قومه المجرمين! وهوالأمر الذى يسحب ظلاله على الحاضر الآني، حيث لا يصبح للمصرى تاريخ قبل الفتح، وتنقطع الذاكرة، وتتحول الهوية المفقودة نحو الدين وطنا وتاريخا، تصبح صدق الإيمان مع الإسرائيليين، الذين خرجوا من مصر الكافرة ليحتلوا فلسطين،

احتلالا استيطانيا مشروعا من وجهة نظر الإيمان (؟!) ويصبح المصرى مع موسى ويشوع، ليبارك غرق التاريخ بالكامل مع العصا المعجزة، وهو الأمر ذاته الذى يكابده الواقع الفلسطينى حيث لا بد للمسلم الفلسطينى أن يكون مع طالوت الإسرائيلى ضد جالوت الفلسطينى، وهو الأمر الذى يصدق أيضا على نمروذ العراق الكافر إزاء أرومة إسرائيل إبراهيم، وعلى كنعان إزاء سام الخ، وهى الأمثلة التى توضح إلى أى مدى هى إشكالية الوطن والمواطنة والتباساتها إزاء الدينى والقومى.

الإسلام إذن لم يشكل قطيعة معرفية مع ما سلف، إنما تجادل معه وحاوره ثم نفاه ليصبح الوحى هو مصدر ذاكرة الأمة، وهو وحده كل تاريخها ومصدرها المعرفى، وعليه يتأسس الموقف إزاء أى طارىء أو أى معرفة أخرى، وبموجبه تصدر الأحكام والتقييمات بصدد ما يتعلق بما سبق ثم باللاحق أيضا.

وعلى مستوى العقائد، لم يشكل الإسلام قطيعة معرفية مع الاديان السابقة عليه، بل اعتبر نفسه امتدادا لبعضها كما فى موقفه من اليهودية والمسيحية، بل إنه أسس ذاته سابقا لها، وأن اعترافه بها لأنها كانت إسلاما بالاساس، ثم نافيا لبعضها الآخر، كما فى نفيه لعقائد أخرى كعبادة الاوثان، باعتبارها عقائد باطلة، لكنه فى تحاوره مع الديانات التى أطلق عليها (الديانات الكتابية) أصدر أحكامه بشأنها، وأبطل ما بقى مستمرا منها، إما لأنها انحرفت عن أصلها الإسلامى؟ أو لأنها حرفت الكلم المقدس عن مواضعه، أو لأن الدين فى النهاية قد أصبح عند الله الإسلام فتساوى الكل، وأصبح الكفر ملة واحدة، وعليه فقد أصبحت المعرفة المعلوماتية لدى المسلم عن تلك الديانات تستمد أصلا مما قدمه الوحى والتاريخ الإسلامى بشأنها، وهو ما أدى إلى انقطاع داخل شرائح المجتمع العربى، تساعد عليه كافة أجهزته الاعلامية والتربوية، التى تتحدث جميعا طوال الوقت دون كلل أو ملل بتكرار شديد الإملال عن الإسلام وقواعده وتفاصيله وشروحه، مما يعطى للعربى غير المسلم معرفة كافية بالإسلام، بينما يظل المسلم العربى لا يعلم من شأن عقيدة المواطن العربى غير المسلم، سوى ما قدمه له الإسلام، وهو ما أدى بالضرورة إلى اغتراب العربى غير المسلم عن معنى المواطنة، واحتمائه بدينه ليصبح دينه وطنا، وهو ما سبقه إليه العربى المسلم عندما فقد ذاكرته وتاريخه.

تاريخية النص

والمطالع للمأثور الإسلامى، وما لحقه من تاريخ وتفاسير وسير وفلسفات وعلوم دين،

يكتشف إلى أى مدى توقفت الذاكرة العربية عند لحظة نزول الوحى، وإلى أى مدى انقطعت عن ماضيها، وهو الأمر الذى استمر يتأكد بفعل الاصرار على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة، وأن تلك الثقافة الثابتة ليست بالأصل أرضية، بل هى مفارقة سماوية، وأنها الاصل فى كل ثقافة أخرى، وأن ثباتها هذا ينفى أى محاولة لبحث تاريخيتها، فقد جاءت جاهزة هكذا من الأزل، ودونت فى لوح أزلى محفوظ، دون ارتباط بأى سبب موضوعى وقت تواتر الوحى (رغم تناقض ذلك مع تقرير الوحى ذاته).

وعليه أصبح بالإمكان اجتزاء أى نص من بين النص القرآنى الكلى، ونزعه من سياقه مع باقى الآيات، وسحبه من لحظته التاريخية التى سببته، لدعم أى موقف آنى نفعى حسب المصلحة المراد تحقيقها. أما الأخطر ـ برأينا ـ فى رفض تاريخية النص، هو أن هذا الموقف تحديدا هو السبب الجوهرى والاساس فى تلك الالتباسات المشار إليها، وعدم الوصول إلى تحقيق دقيق بشأنها، كنتيجة لعدم أخذ الاسباب الحقيقية والموضوعية بالاعتبار، والتى أدت بالنبى، وبالوحى إبان تواتره، إلى اتخاذ مواقف بعينها من ذلك المأثور الحضارى القديم، أو من الديانات السابقة وأصحابها، وهو الأمر الذى بات يحتاج إلى تقديم دراسات واضحة جريئة بشأنه، والتعامل فى درسها ـ مع النص بوصفه معبرا عن واقعه فى حقل موضوعى للأحداث، إبان ثلاثة وعشرين عاما هى زمن تواتر ذلك الوحى.

وهو ما يستدعى عملا دؤوبا يربط حقل الأحداث بتصنيف الآيات، والمكى منها والمدنى مرتبطا بظرف كلا المدينتين وواقع البشر فيهما مع دراسة وافية لعلاقة النبى وأتباعه بأصحاب الديانات الأخرى وما مرت به تلك العلاقة من متغيرات فرضها ظرف الواقع وتطور الدعوة، وأدى إليها وأفرزها، وعلاقة كل هذا بالمستوى المعرفى لجزيرة العرب وكم وحدات تذكر العربى البدوى، وما ألقته البداوة من صباغ على تراكمه المعرفى (وهو لا جدال مستوى الخطاب القرآنى الموجه إليهم)، مع تأسيس كل ذلك على قراءة علمية صارمة لواقع الجزيرة ومحيطها، من حيث البنى المجتمعية والأنماط الاقتصادية والأشكال السياسية، وهو الأمر الذى نظنه قد أصبح ضرورة ماسة الآن، وربما ذهبنا إلى أن الأمر بهذا الشكل مطلب مصيرى لا يتناقض إطلاقا مع قداسة الدين، بل نزعم أن هذه المطالب توقف عمليات التزييف والتدليس والتخديم الانتهازى للنص الدينى، مما يحفظ له كيانه وقداسته، وفى ذات الوقت يرفع الالتباسات عن المفاهيم المطلوب تحديدها، ويساعده على استقرارها وتوقفها عن الرجرجة بين باحث وآخر، ورؤية وأخرى، وهو ما يمكن أن يؤدى إلى حل كثير من الاشكاليات البحثية الفاخلة فى همومنا الآنية.

حـــول مفهـــوم التـــراث

هل يمكن حقا الركون إلى الرؤية الأصولية التى توقف ذاكرة الأمة عند لحظة ابتدائية أولى، هى لحظة تواتر الوحى القرآنى، وتحدد للتراث مفهوما أوحدا هو المفهوم الإسلامى، وتؤطره مكانيا بمهبط الوحى بجزيرة العرب؟ وحينئذ هل يغدو العربى المسلم بغير تراث وطنى وقومى؟ أم سيلجأ إلى التراث الإسرائيلى فى التوراة (وهو الحادث فعلاً)، وهل يبقى كل تاريخ تلك المنظومة من الشعوب العربية مقصورا على التأرجح بين الإيمان والكفر، وبين فرعون وموسى، وبين طالوت وجالوت، وبين نمروذ وإبراهيم؟

ووسط هذه الحالة الرجراجة بين الإيمان والكفر، هل يمكن أن يجد الوطن ومفهوم المواطنة مكانا فى تحديد الهوية؟ وهل بالحق يمكن إطلاق مفهوم (أمة) على مجموعة شعوب فقدت ذاكرتها وتماهت فى الدين فأصبح هو الوطن وهو الهوية؟ وهل يصبح ممكنا - على الإطلاق - الحديث عن صراع حضارى آنى، دون أن نتكهن بمصير آل إليه الهنود الحمر قبلنا؟ وإذا كانت هذه أسئلة أرقة مؤرقة، فهل من سبيل إلى الخروج من دائرة الإيمان والكفر إلى فضاء أوسع، لا يظله غير مناخ علمى حر تماما، ويكون همه الأكبر هو مصير البلاد والعباد، إزاء التسارع الهائل الآن فى تقدم الشعوب المتقدمة أصلا، وتمكنها من أدوات السيطرة، مع فقدنا الأسس والأدوات والمناهج التى قد تساعد - مع التفاؤل - على بدء خطوات صحيحة، للخروج من دائرة جذب ذلك المغناطيس الرهيب نحو القاع، فالتلاشى، فالزوال فى طوايا القرون الغوابر، مع عاد وثمود وأصحاب الأيكة وهنود أمريكا وشعب الأنكا؟.

وإذا كانت الرؤية العلمية ممكنة دوما، فهل ينبغى أن يظل شبح الرعب من معادلة الإيمان والكفر، وما يصحبه الآن من أدوات تنفيذية لا تقيم وزنا لأبسط الحقوق الإنسانية، وتنفذ دون مراعاة لحيثيات العدل(؟!)، هل ينبغى أن يظل رعب مصادرة الكلمة والحياة (بأمر الله) عائقا دون المحاولة؟ لو كان ذلك كذلك، فإن من يحاولون تأسيس تلك القراءة العلمية الآن، هم أصحاب الريادة فى أشرف ساحات النضال حقا وصدقا.

(*) نشر فى ١٠/١١/١٩٩٣، بصحيفة الأهالى، القاهرة.

التاريــــخ العــــبء

إن المحاولات العلمية المخلصة فى التعامل مع المأثور الإسلامى فى ظل الواقع المهين الراهن يجب إلا تضع باعتبارها إطلاقا - إن كانت مخلصة حقا وعلمية حقا - أى قطيعة معه، ولا أن تضع ضمن أهدافها إصدار أحكام بشأنه، ولا رفضه أو نفيه، ولا اقتطاع بعضه - بحجة صلاحيته - دون بعضه، ولا إسقاط مفاهيم معاصرة عليه، إنما يجب درسه مرتبطا بواقعه، منضبطا مع حركة هذا الواقع فى زمانه، وإيقاع ذلك الواقع وضبط هذه الحركة مع الحدث الذى سبقها والذى عاصرها، وما نتج عن هذا من إفراز معرفى بعينه، دون محاولات وادعاءات عقلنة المأثور، أو أدلجته، ودون المبالغة فى بعض مناطقه، ودون التجاوز عن مناطق أخرى فيه، باختصار أن تتم قراءته قراءة تاريخية لا تجرده من ماضيه ومشكلات زمانه. من حيث كان واقعة فى حقل لحدث الواقع المجتمعى، بحيث ترتبط الفكرة بواقعها، ليعود ذلك المأثور إلى حجمه الطبيعى، ويتراجع ظله السحرى الذى يفرضه دوما كمثل أوحد لا يصح تخطيه، ولا يظل لونا من التاريخ العبء، قدر ما يتحول إلى تاريخ دافع ومحرك، دينامى لا سكونى.

لكن وسط كل هذا الاهتمام بين من يفرضون المأثور الإسلامى وحده تراثا أوحد لكل الأمة، ومن يحاولون درس هذا المأثور دراسة علمية، تنكشف حقيقة أولى هامة وخطيرة، وهى أن كليهما - حتى أصحاب الدراسة العلمية - لا يتحركون خارج دائرة المأثور الإسلامى وحده، كما لو كان الأمر فعلا، ثم رد فعل، محاولة فرض دائمة، ومحاولة رد لتحجيم ذلك المفروض، دون أن يسمح ذلك الاصطراع الفكرى الدائب بالحركة التاريخية إلى ما قبل المرحلة الإسلامية، كما لو كان الزمان قد انبت عندها وانقطع، ولا يظل فى الذاكرة من تراث تلك الأمة وسط الهموم الحاضرة سوى ذلك المأثور وحده، مع تجمد المحاولات العلمية ذاتها عند نفس لحظة البدء المحددة سلفا وسلفيا، بزمان بدء تواتر الوحى، ومكانه بجزيرة العرب.

نحو فهم آخر

ومن هنا نلح وننبه إلى خطورة حالة هذا الخدر العلمى الذى استطاب حركة رد الفعل الدائمة، والذى توقف - ربما مضطرا - عند هذا المأثور دارسا محققا مدققا، وربما كان واقع الحال سببا يفرض موضوعات البحث، وأيها جدير بالاهتمام الآن. لكن الاقتصار على المأثور

الإسلامى وحده فى ساحة الدرس العلمى، يؤسس لفهم كاد يصبح حقيقة، وهو أنه وحده تراث الأمة بكاملها، وعليه كان همنا فتح النافذة على التراث بمعناه الأكمل والأشمل باستمرار، حتى لا يضيع من الذاكرة معنى التراث الحقيقى.

وإن أى عقل سليم يمكن أن يرى بهدوء، أن أى تراث لأى مجتمع لا يمكن أن يتطور أو يحدث أصلا دون توارث، فالتراث - لغة - إرث موروث عن الإسلاف، تركوا لنا فيه ناتج خبراتهم ومعارفهم، أى **أن التراث متطور فاعل منفعل دوما، أى أن الناس هم صناع ذلك التراث، يصوغونه وفق ظروفهم وحاجاتهم، حتى لو كان دينا**، فالوحى القرآنى جاء مفرقا ومنجما، ناسخا ومنسوخا، وبدّل ومحى وأثبت، تبعا للمتغيرات ولمصالح الناس خلال زمن تواتر الوحى، ثم ظل كمأثور دينى حسب فهم الناس له، أو على الأدق فهم كل فرقه أو مذهب أو طبقة اجتماعية.

هذا بالطبع مع اعتبار أن أى نقلة تطورية على سلم التراث، كان لابد أن تسبقها نقلة على الدرجة الأدنى، ويستحيل دونها الوصول إلى الدرجة الأعلى، وهو ما ينطبق بدوره على علاقة المأثور الإسلامى بالتراث السابق للمنطقة بكاملها.

وبمعنى آخر؛ إن أى تطور ثقافى ما كان ممكنا حدوثه إلا على أسس وأعمدة من ثقافة سابقه، فقط ما يجب أخذه بالاعتبار هو: أن التطور عندما يأتى رأسيا صاعدا على عمد تراث قديم، فإنه يقوم إبان ذلك بتوسع افقى يفجر فيه مع كل نقلة، الأسوار والتحديدات القديمة، من أفكار ومعتقدات لم تعد مناسبة لاحتواء الظرف التطورى الجديد، ولم تعد صالحة كوعاء مناسب للتراكم المعرفى المتزايد، ولم تعد صالحة لمعالجة إشكاليات مستجدة لم تكن معروفة من قبل، ويفرضها التطور الدائم للأشكال الاقتصادية والتنظيمات الاجتماعية، وهو ما ينطبق على علاقة المأثور الإسلامى بما سبقه، كما يجب أن ينطبق تماما على ظرف اليوم وعلاقته بمأثور مضى عليه ما يزيد عن أربعة عشر قرنا من الزمان.

ومن ثم فإن القناعة السائدة بانقطاع شعوب المنطقة عن ماضيها القديم هى قناعة إيمانية، أكثر منها حقيقة واقعة، لأن التراث حسبما أسلفنا لا يمكن أن يكون حكرا على ثقافة بعينها، ولا يمكن أن يكون ذا مبتدا (زمكانى) محدد. وإن ما جاء بمأثورنا الإسلامى عن تراث سابق، لم يأت غريبا من الماضى ليتسلل إلى المأثور الإسلامى زمن التدوين، وفى الوقت ذاته فإن المأثور الإسلامى ذاته ليس وافدا من خارج الزمن والمكان، بل كان هو الامتداد الموضوعى

للزمن والمكان، وبهذا الطرح يمكن تحقيق معرفة بالتراث تصحح الوعى به، وتزيل عن فهمه أى التباس، وهو الأمر الذى سيسحب عددا من التصويبات تلحق بمفاهيم لم تزل رجراجة حول (الوطن، الأمة، الهوية، القومية ... الخ).

وعليه فلا مناص من تحديد مفهوم الثقافة والتراث، باعتبارها ناتج تراكم كمى وكيفى لخبرات طويلة تعود إلى عمق ما قبل بداية التاريخ، مع ارتباط الإنسان بهذه الأرض واستقراره فيها، وأن هذا التراث ناتج تفاعل جدلى داخل تلك المجتمعات منذ بداياتها الأولى، وبينه وبين بيئته الطبيعية، وبينه وبين المجتمعات الأخرى والثقافات الأخرى المتباينة، عبر خلالها نقلات على سلم التطور الزمنى والمجتمعى والاقتصادى، وشكل فى النهاية منظومة فكرية كبرى، يشكل المأثور الإسلامى فيها إحدى الحلقات الكبرى.

«النص» بين الأزلية والتاريخية

عنوان هذا الموضوع، يلخص - فى رأينا - سر الأزمة التى آثارها الشيخ (عبد الصبور شاهين) إزاء أعمال المفكر (نصر أبو زيد). حيث انطلق الشيخ (شاهين) من موقف مألوف، يصر على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة.. المتماهية مع النص الإلهى، بحيث يظل ثبات المفهوم القدسى، ضامنا لثبات المواقع السيادية لرجال المنظومة الدينية (!!) بمعنى ثبات النص كوحدة كتلية واحدة من الأزل. وان هذا الثبات الكتلى غير المتغير - قد جاء كما هو معلوم - نتيجة انتهاء جدل فلسفى قديم حول قدم النص أو حداثته، بانتصار سياسى سيادى لأصحاب فكرة الأزلية والقدم والثبات، بتحالف أسس لأصحاب تلك الرؤية مواطىء قدم ثابتة دائمة فى المنظومة السيادية، التى يجب أن تقوم دوما على الثبات المشروع قدسيا. وبعدها أصبحت أى محاولة للمناقشة لونا من الكفران المبين! مع الأمر غير الخفى الذى يبين فى تماهى وتماسك المنظومة السيادية التحالفى مع مؤسستها الدينية، وبالتالى مع صاحب النص الذى يمثلونه على الأرض، كمعبرين دائمين عن ثبات كلمته، وثبات العروش القائمة فى الآن ذاته.

ومن ثم كانت أية محاولة لنبش ذلك المفهوم السائد الثابت، حول الثبات الكُتلى المتوحد للنص مع ذاته ومع صاحبه ومع الازل، والذى يؤكد أن النص كان فى الازل كتلة واحدة متماسكة سماوية مفارقة للأرضى وأحداث الواقع، تعنى هز الأسس السيادية التى تقوم عليها تلك المنظومة. وهو ما كان يوجب بالطبع ردا عنيفا حديا بين قرارى الإيمان والكفر، وهو الرد الطبيعى غير المدهش اطلاقا، وهو الرد نفسه الذى يضرب فى عمق الماضى، الذى استخدمته الطبقات السائدة دوما عبر وسطائها المحترفين من رجال الدين! كما استخدمته منظومة رجال الدين ذاتها، لتأمين مصالحها الخاصة، بإبقاء النص معلقا فى الفضاء غير مرتبط بأى واقعة تاريخية كانت سببا له، لأمر مفهوم تماما استمر عبر أربعة عشر قرنا مضت، رزح فيها المسلمون تحت كافة أنواع القهر الطبقى والطغيان السلطوى. الذى عادة ما كانت تتغير مظاهره وتتفاوت بتفاوت أحوال المكان والزمان، وعادة أيضا ما كان يجد ذلك القهر المتفاوت سنده فى النص الذى يفلسفه رجال الدين، بسحب أى آية قرآنية فى سياقها

(*) نشر فى ١٩٩٣/١١/١٧، بصحيفة الأهالى، القاهرة.

النصى، ويتر صلتها بسابقها ولاحقها! وهم بذلك يسمحون لأنفسهم وحدهم بفض ذلك التماسك الكتلى الذى يدافعون عنه، وفى الوقت ذاته يقطعون علاقة الآية المطلوبة بواقع الحال الذى سبقت بشأنه فى أوانها.

استخدام نفعى

وهكذا يظل النص دوما رهن الاستخدام النفعى، لتبرير مواقف قد تصل إلى حد التناقض التام مع بعضها، وبالتالى التناقض التام فى الآيات المعبرة عن تلك المواقف المتناقضة والمبررة لها، ولا تحتاج إلى جهد كبير لكشف ما وراءها من مصالح ومواقف هى ضد إنسانية المواطن وكرامته.

وقد كان ذلك الاستخدام الانتهازى الدائم للنص الدينى، مصدرا لعدد من الانتكاسات الفادحة، حتى وصل الأمر أحيانا إلى استخدام النص لتبرير أهواء ونزوات للحاكمين، هى ضد الوطن وضد المواطن وضد الدين ذاته.

وعليه فإن أية محاولة لإعادة النص إلى سياقه وبنائه الداخلى، ومحاولة تحليله وأدراك علاقاته ببعضه، وعلاقته بواقعه الحدثى وسياقه الخطابى - وهو الأمر الذى يعيد له احترامه ومفهوم قدسيته - كانت مثل تلك المحاولات، فى معناها الأخطر، هى ارتجارج عروش بدأت الأرض تميد من تحتها بالفعل، وآن مغربها. وعليه كان رد الفعل الذى أدهش كثيرين، رغم أنه لم يكن مدهشا على الاطلاق.

ويبدو أن الأمر سيظل كذلك بعض الوقت، وهو ما لن يحسمه إلا أن يضع المفكرون المخلصون بحسبانهم، أن القضية قضية نضالية فى المقام الأول، إضافة لكونها قضية علمية، لا تحتمل تمييع المواقف، أو المصالحة حول مناطق وسطية تصالحية، فالأمر الآن مصير أمة بكاملها، لم يعد بالإمكان إخضاعه لنزوات الرجال وأهوائهم.

وإزاء التسارع فى إتساع المسافة بين أحوالنا وأحوال الأمم المتقدمة، لم يعد هناك وقت لإرجاء حسم كثير من المواقف الفكرية، التى ترتبط بشدة بمصير البلاد والعباد، ويبدو أن هذا قدرنا، وأن هذا زمنها، فإن ذهب بلا حسم لكثير من القضايا المسلط فوقها سيف التكفير، ومنها القضية عنوان هذا الموضوع، فلن يكون هناك بعد مساحة لمناقشة أمور هذه الأمة، لأنه لن يكون بعد هناك أمة.

سر الأزمة

وأتصور أن من أهم ما استثار الرجال فى المؤسسة المشيخية فى أعمال (أبو زيد)، ذلك

الموقف الذى أبرز فيه التناقض الناشىء عن القول بأزلية النص وثباته، وهو ما جاء واضحا فى كتابه (مفهوم النص) يقول:

«إن ظاهرة النسخ تثير فى وجه الفكر الدينى السائد المستقر اشكاليتين (يتحاشى مناقشتهما) الاشكالية الأولى: كيف يمكن التوفيق بين هذه الظاهرة بما يترتب عليها من تعديل للنص بالنسخ والالغاء، وبين الإيمان الذى شاع واستقر بوجود أزلى للنص فى اللوح المحفوظ، والاشكالية الثانية: اشكالية جمع القرآن، وما يورده علماء القرآن من أمثلة توهم أن بعض أجزاء النص قد نسيت من الذاكرة الإنسانية، ولم يناقش العلماء ما تؤدى إليه ظاهرة نسخ التلاوة أو حذف النصوص سواء بقى حكمها أم نسخ أيضا، من قضاء كامل على تصورهم الذى سبقت الاشارة إليه، لأزلية الوجود الكتابى للنص فى اللوح المحفوظ.. إن فهم قضية النسخ عند القدماء، لا يؤدى فقط إلى معارضة تصورهم الأسطورى للوجود الازلى للنص، بل يؤدى أيضا إلى القضاء على مفهوم النص ذاته».

وهكذا بسط الرجل الأمر ببساطة وإنصاف، وعرض الاشكالية بموضوعية ودون استفزاز، فقط أكد أن الثبات الازلى كمفهوم، يتناقض مع مفهوم النسخ، ولنلاحظ أن مفهوم النسخ بدوره كان معتمدا آخر لكثير من التبريرات للتوجهات القمعية، أو ما هو ضد مصلحة الأمة، وذلك بإستخدامه تبادليا عند الحاجة مع مفهوم الأزلية، المهم أن (نصر) هنا إنما ينبه فقط إلى هذا التناقض، بدليل مسألة النسخ كما وردت فى كتب علوم القرآن، دون أى محاولة للتدخل، الرجل أراد ـ فقط ـ فتح نافذة للنقاش، لكنها النافذة التى تسحب من رجال الفكر الدينى أهم أدواتهم الانتهازية لسحق الموطن باسم الدين! وهو الأمر الذى يمكن أن يؤول بالوطن فى النهاية إلى مقلب نفايات الأمم، ومن ثم ندفع بالمسألة مسافة أبعد، ونطلب جهدا واضحا يربط إشكاليات النسخ بواقعها الموضوعى، من حيث كانت الآيات تعبيرا عن وقائع فى حقل أحداث أدت إليها فى زمانها، وهو ما سبق أن قدمنا فيه دراسة منشورة كمدخل ومقدمات[1]، من أجل وقف تزييف وعى المواطن، وتزييف الدين ومعاملته بانتهازية، ووقف الانزلاق التاريخى المهين لهذه الأمة نحو القاع.

التناقـــــض

وأن التناقض يظهر واضحا جليا، عندما نجد أن أى محاولة لمناقشة أزلية النص تتهم فورا بالكفر والإلحاد، وفى الوقت ذاته، ودون أن يطرف لهم جفن، يأخذون قضية النسخ من

(١) انظر كتابنا: الأسطورة والتراث، باب: النسخ فى الوحى؛ محاولة فهم.

المسلمات، ومن لا يؤمن بها كافر بدوره، ولا نجد مبررا لكلا الموقفين المتناقضين غير الابقاء على بدائل تظل دوما متاحة، للتخديم على المصالح وقت الحاجة، حتى لو كانت تلك المواقف شديدة التناقض.

وللحق، فإن الاصرار على وقوع النسخ هو موقف حق، لكنه يحتاج فى الجانب الآخر التنازل عن المفهوم السائد حول الازلية والثبات، ومن النماذج التى تشير إلى التمسك بوقوع النسخ على سبيل المثال، ما جاء عند شيخ علوم القرآن (جلال الدين السيوطى) فى قوله:

«قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله تعالى إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال على رضى الله عنه لقاض: أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال: لا، قال: هلكت وأهلكت».

كذلك ما ورد عن (أبى جعفر النحاس) فى قوله: «ومن المتأخرين من قال: ليس فى كتاب الله عز وجل ناسخ ولا منسوخ، وهذا قول عظيم جدا يئول إلى الكفر».

وهو ما صادق عليه (الدكتور شعبان اسماعيل) وكيل الأزهر بقوله: «وأهمية معرفة النسخ تتضح مما يأتى: أولا: أن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين جحدوا وقوع النسخ وهو واقع، وثانيا: أن الإلمام بالناسخ والمنسوخ يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى، ويطلع الإنسان على حكمة الله فى تربيته للخلق وسياسته للبشرية، وثالثا: أن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم فى فهم الإسلام، والاهتداء إلى صحيح الأحكام، فالمنكرون لوقوع النسخ فى القرآن الكريم، يخالفون صريح النص القرآنى والسنة النبوية الصحيحة وإجماع المسلمين.

وتأسيسا على ذلك، يصبح إنكار النسخ لونا من الكفر الصريح، والنسخ إنما يعنى تاريخية النص وتفاعله مع واقعه وارتباطه بظروف ذلك الواقع، وفى الوقت ذاته فإن إنكار عكس ذلك ورفض الازلية والثبات كفر بدوره وهو مايتبناه الشيخ الغزالى هذه الأيام، وبين الكفرين يضيع المسلم ولا يبقى سوى أن يركن لمن يفسرون له الحكمة فى التناقض، بالتعتيم على الإشكالية، استخدام المتناقضين حسب الحاجة والطلب والمتغيرات، دون احترام مطلوب لذلك النص الرفيع، الذى تأكدت تاريخيته درسا تربويا للمؤمنين به، تلك التاريخية التى أكدتها نصوص القرآن الكريم ذاتها بما لا يحتمل لبسا أو تأويلا.

كشف الخدع فيما جاء به الخطاب الدينى من بدع

هل يبدو العنوان مستفزا؟ لا شك أنه كذلك لأول وهلة.. لأننا نخلط بشكل غير واع بين الدين بقداسته التى تمثلها كتبه الموحى بها، وبين الخطاب الدينى الذى يستخدمه كل من هب ودب للدفاع عن قضيته، حتى لو كانت أشد القضايا بطلانا، وهو الخلط الذى انسحب من الدين على الخطاب الدينى، وعلى أصحاب هذا الخطاب أنفسهم، الذين عمدوا إلى تأكيد ذلك المعنى، بالخلط المقصود بين الدين فى ذاته وبين خطابهم المصلحى! حتى أصبحوا ينعمون فى نظر العامة على الأقل بهيبة مستمدة من قداسة الدين، وبخوف خرافى من الزى (اليونيفورم) الذى يرتديه رجل الدين المتكهن عادة، وهو ما ساعد أصحاب الخطاب الدينى، دوما على خداع الجماهير ضد مصالحها، وتبرير أفظع المظالم، وتمرير أشد الفظائع إثما، باعتبارها مشروعة دينيا، وهو الأمر الذى تدلل عليه إطلالة سريعة على تاريخ الأنظمة (الثيوقراطية)، سواء فى أوروبا أو فى بلادنا، عندما كان الناس يحكمون بمساندة رجال الدين، أو بهم مباشرة، خاصة عندما يدعون لأنفسهم قميصا سربلهم الله به، أو حقا إلهيا مزعوما، وسواء كان ذلك المدّعى بابا أم سلطانا أم خليفة.

ومن نكد الدهر أن نعى هذا الخلط، ونظل فيه سادرين. ومن ثم فإن مانسمع ونقرأ من كلام مرسل، لم يستطع أن يفرق بوضوح بين الدين وبين المشتغلين بأمور الدين، وبين الدين وبين الخطاب الدينى، وبين الدين فى ذاته كمقدس، سر تقديسه الوحى الإلهى وبين الفكر الدينى الذى يشرح أو يفسر أو يضيف أو يؤول أو يستخدم ذلك الوحى لمأربه أو لوجه الله.

والمثال الأوضح هنا، أننا نعلم جميعا ولا نشك لحظة أن الوحى القرآنى هو كلمة الله الواحدة الثابتة، ومع ذلك فإننا وجدنا عبر متغيرات سياسية واجتماعية، من كان يبرر لنا النظام الاشتراكى بالقرآن والسنة والقواعد الفقهية، ثم جاءنا من يبرر الاقتصاد الحر ويكفر

(*) نشر فى مايو ١٩٩٣، بمجلة أدب ونقد، القاهرة.

الاشتراكية والاشتراكيين، وبتغيير الأحوال عبر الأيام، وتداولها بزوال نظام اقتصادى اجتماعى وقيام آخر. كنا نجد لدى الخطاب الدينى مشروعية كاملة لمحاربة دولة إسرائيل، بينما نجد فى زمن كامب ديفيد كل المبررين يتقدمون بدلائهم السلمية وآرائهم الشرعية، التى تؤكد أنهم ما داموا قد جنحوا للسلم، فعلينا أن نجنح لها ونتوكل على الله(؟!) وفى حرب الخليج وجد نظام صدام من رجال الدين فى مختلف أنحاء بلاد لا إله إلا إله، العدد الكافى لتبرير مواقفه، وعلى الجانب الآخر وجد المتحالفون ضده (من المسلمين تحديدا لأن الأمريكان لم يفعلوها) من يبرر لهم موقفهم تبريرا شرعيا.

وهكذا مع شديد الأسف، نهدر قيمة الوحى الصادق، ونتعامل معه (بفهلوة)، تبرر ما نريد، وترفض ما لا نحب، وتدافع عن ظلم، وتقرر لمواقف شديدة التنافر مصداقيتها الدينية، وهو الأمر الذى يستهين بالوحى الإلهى، ويجعله مطية لكل الأغراض، ويمتهن كلمة الله الصادقة، دون أن يرف له جفن، وهذا هو بالتحديد ما نقصده بماجاء به الخطاب الدينى من بدع، ليست من صحيح الدين، ولا من سلامة الضمير ولا الإيمان.

ومن ثم كان لابد من موقف حاسم إزاء ما يحدث، موقف يضع الشروط التى تضمن احترام النص، وتمنع استثماره حسب الهوى والغرض، وربما لخدمة أشد الأمور بعدا عن الحق والإنصاف. ومن بين هؤلاء الذين أخذوا هذه المهمة على عاتقهم، المفكر المتميز (نصر حامد أبو زيد)، الذى حدد أساسا لمشروعه العلمى، يتمثل فى أن الدين يجب أن يكون عنصرا أساسيا فى أى مشروع نهضوى. لكنه توطئة لذلك أعطى من عمره الكثير لإيضاح أن الدين ليس هو الخطاب الدينى، والذى يمارس دوره بشكل أيديولوجى نفعى، إنما الدين هو النص الدينى الموحى به بعد تحليله وفهمه فهما علميا صحيحا يمنع عنه أى لبس، ويقف عقبة إزاء محاولات استثماره، وهو ما سينفى فقط ما فيه من قوة دافعة نحو التقدم والعدل والحرية.

وقد انتهى الدكتور نصر أبو زيد فى بحوثه إلى عدم وجود خلافات جوهرية بين خطاب المعتدلين وخطاب المتطرفين، فكلا الجانبين النشيطين يعتمد على ذات الآليات التى توحد فكرهم بالدين لاكتساب قداسته، وتفسير كافة الظواهر بإرجاعها إلى مبدأ أول هو الحاكمية الإلهية، بوصفها نقيضا لحاكمية البشر، إضافة إلى سلطة السلف، وتحويل نصوص المجتهدين إلى نصوص شبه مقدسة أو مقدسة، بحسم قطعى يهدر البعد التاريخى للدين تماما، كما يعتمد الخطابان على ذات المنطلقات الفكرية بمبدأ تحكيم النص، الذى عادة ما يصبح تحكيماً لتفسير

وفهم فئة بعينها للنص على حساب العقل، وهو الأمر الذى ينتهى بالخطاب الدينى إلى موقف نقيض من الإسلام، لأنه نقيض للعقل رفيق الإسلام وأساسه المتين، ثم يقوم ذلك الخطاب بتحريم ما عدا ذلك عن طريق التغطية الأيديولوجية لتوجهاته الرجعية الخادمة للنظم السياسية الدكتاتورية، عن طريق مبدأ (لا اجتهاد مع النص).

وهى خدعة أيديولوجية، لأن معنى النص هو (النص الواضح القاطع الذى لا يحتمل إلا معنى واحدا)، والنص بذلك نادر فى الوحى، وتظل سائر الآيات قابلة للاجتهاد والتأويل.

وبهذه التفرقة بين الخطاب الدينى وبين الدين، ينزع عمل الدكتور نصر عن الفكر الدينى وخطابه القداسة، ليصبح اجتهادات بشرية لفهم نصوص الدين، بحيث يظل الوحى الإلهى مصانا باحترام حقيقى، وهو ما لا يسمح باللعب بالآيات وتفسرها حسب الهوى والمنافع، وإكساب ذلك التفسير قدسية الدين ذاته.

ومن هنا فإن الدكتور نصر حامد أبو زيد، وغيره من أصحاب ذات الاتجاه والغرض، وأن اختلفت الأدوات بين هؤلاء الكوكبة من الباحثين المبشرين بفجر جديد، قد تعرضوا لهجمة شرسة من أصحاب الخطاب الدينى، ارتكنت جميعا إلى التكفير، لحصار أعمالهم وتنفير المواطن منها، وتشكيل رأى مسبق لديه يمنعه من متابعتها أو قراءتها، ولكن المأساة الحقيقية أن يتحول الأمر إلى إرهاب حقيقى، فمن الدعوة الصريحة إلى إخراس تلك الأصوات (وهو ما تعرض له كاتب هذه السطور على صفحات الأهرام والنور وغيرهما) إلى الانتقال للفعل داخل قلعة العلم المفترضة (جامعة القاهرة)، حيث تم رفض الأعمال التى قدمها الدكتور أبو زيد، والتى تصل إلى ثلاثة عشر عملا، ولم تشفع له لنيل درجة الأستاذية، أما الأكثر نكاية وإثارة للفزع حقا، هو أن يكون التبرير المدون لذلك الرفض، هو اتهام الرجل بالكفر، بعد تزوير كلامه وتحريفه عن موضعه وسياقه، على نمط (لا تقربوا الصلاة)، إضافة إلى التلفيق فى التأويل المتعسف، دون الرأى العلمى المفترض وحده، وهو ما فعله تقرير الشيخ عبدالصبور شاهين، رجل بيوت لهف الأموال المشهور، وبالطبع لم يكن غريبا أن يكون كاتب تقرير بهذا السمت والشكل رجل من المستفيدين المتاجرين بخطابهم الدينى، وهو ما علمناه عنه يقينا فى علاقته بأكثر من فضيحة لم يداريها ولم يندى لها جبينه. فهو أمر مفترض لدى أصحاب الخطاب الدينى النفعى، ومن الطبيعى تماما أن يصاب مثل كاتب التقرير بهذا الهياج الشديد، لكن غير المقبول وغير المفترض وغير المتوقع إطلاقا، أن يكون

رجل واحد هذا رأيه، يتمكن بالإرهاب من فرض رأيه واستبعاد رأى جميع أساتذة كلية الآداب وبخاصة قسم اللغة العربية فيما قدموه من تقارير، وهنا الكارثة حقا.

ويبقى التساؤل: هل أصبحت قبة الجامعة، قبة شيخ من ذوى الكرامات ثوى فى قبر مبروك؟! أم قبة كنيسة؟! أم قبة أحد المساجد؟! أم قبة معهد علمى عريق تعرض فى غفلة أو تغافل مقصود، لتسرب الإرهاب إلى حرمه ليعتدى على أقدس حرماته وهى حرية البحث العلمى، وأمانة القرار العلمى؟ الفضيحة عالمية يا سادة يا كرام، ولم تعد مسألة ترقية (أبو زيد) أو حتى فصله (أنا شخصيا أحبذ القرار الأخير، لأنه سيعطى الرجل تفرغا ليأتى ويجلس بجانبى يؤنس ترهبى، كما سيعنى ضراوة أكثر فى معركة يجب أن تحسم اليوم وليس غدا حسما نهائيا، إما حياة الأمة وتقدمها، أو ننفض أيدينا منها ونترحم على ذكراها) فالقضية أكبر الآن من ترقية أستاذ، إنها منطق الإرهاب والتكفير واضطهاد الفكر الآخر، وإذا كان هذا قد حدث مع نصر وهو مسلم، فكيف به لو كان مسيحيا؟ فيا أيها المسيحيون المصريون طوبى لكم حقا وصدقا، والحق أقول لكم: إن مصر تتأسس اليوم، وفى هذا الجيل، لقد افتتحت قضية نصر الملحمة، والله المستعان.

ذبح المفكرين على الطريقة الإسلامية

(مفكر من أهم مفكرى التنوير فى التاريخ المصرى، وعلامة فارقة فى تاريخ الثقافة العربية جميعا) . هذا بالضبط ما قلته فى إحدى ندواتى بعد أن قرأت للرجل بحثا واحدا، كان منشورا أيامها فى دورية عربية، وبعدها تابعت البحث عن أعمال الرجل، وعن الرجل نفسه، لأكتشف أنه كان بدوره يبحث عنى، عندما أرسل لى ـ بمدينة الواسطى حيث كنت أقيم ـ أحد مريديه، ليطلب اللقاء.

وبقدر ما أدهشتنى كتابات هذا الرجل بقدر ماأدهشنى شخصه، تحسبه لشدة تواضعه وهو يستمع للقول إنه يستمع إليه لأول مرة، ثم تكتشف أنه يعلمه فعلا لكن بشكل أفضل، حكى لى عن مرحلة الصبا بشديد من البراءة والاعتزاز، وكيف بدأ عاملا فنيا باللاسلكى، وكيف حمل أعباء الأسرة بعد رحيل عائلها، وكيف كان يعمل نهاراً ويدرس ليلاً، لكنك لا تجد مهما بحثت أى أثر لتشوهات كان يمكن أن تتركها تلك الرحلة فى نفس أى رجل، كل ما حدث أنه قرر أن يحمل عبء مصر جميعا.

صريح كل الصراحة إلى حد الصدمة، لا يقول إلا ما يعنيه فعلا، أما المستوى العلمى الرفيع والرصين فى إصداراته السبع، فتشى بصرامة علمية نادرة، تفصح عما يأخذ الرجل به نفسه من شدة وقسوة عندما يعمل، فعلى مستوى الكتابة، وعلى المستوى الشخصى، لم يساوم ابدا على مبادئه، ولا على مستقبل هذا الوطن.

ذلكم هو نصر حامد أبو زيد.

والقارىء لأعمال نصر أبو زيد يكتشف هم الرجل فى إزالة ومنع الاستخدام النفعى والانتهازى للدين، بدأ به على ربط النص بسببه الموضوعى وسياقه التاريخى. أما الأسلوب فشديد الرصانة، شديد البراءة أيضا، يفضح ببراءته أولئك المنتفعين على مر العصور، ومن هنا استشعر أولئك الخطر الذى يمثله هذا الإنسان، فشنوا عليه حملتهم التى قادها مستشار بيوت هبش الأموال المعروف عبد الصبور شاهين لتدعمه بعد ذلك أسماء كثيرة وردت

(*) نشر فى ١٩٩٥/٦/٢٦، بمجلة روز اليوسف، القاهرة.

بكشوف البركة، ليأخذ التحالف الأسود مداه ليصل بالرجل إلى المحاكم، حيث يصدر ضده الحكم بتفريقه عن زوجته، بحجة أنه أراد الاجتهاد في قواعد المواريث، فانكر بذلك معلوما من الدين بالضرورة، والمعنى الضمني في هذا الحكم أن الرجل مرتد عن الإسلام، ويصبح من حق أى مسلم مهووس أن يذبحه وهو مطمئن الفؤاد قرير العين، بالنظر إلى العلاقات الواضحة بين الأقطاب، حيث أفتى الشيخ الغزالي في محاكمة قتلة فرج فودة، بأن أى مسلم يمكنه تنفيذ حدود الله بيديه، وبالمناسبة منحت حكومتنا المباركة هذا الرجل جائزتها التقديرية ؟!.

ولو مددنا الخط على استقامته، منذ مقتل الدكتور فرج فودة، مروراً بمحاولة اغتيال نجيب محفوظ، ثم ربطنا ذلك بتراجع العنف الديني المسلح بعد الصدامات الدموية مع جهاز الشرطة، ومع خسارة ذلك العنف تأييد الشارع المصري له، حيث بدأ الناس بالتعاون الفعلى مع الشرطة بعد ما رأو من جرائم الإرهاب، فإننا سنلحظ فوراً نقلة جديدة، تتمثل في متغيرات مرحلية وتكتيكية، لكسب الجماهير إلى صف الإسلام السياسي، وذلك برفع عدد من قضايا الحسبة ضد مفكرى مصر، مثلما حدث مع عاطف العراقي، وكتّاب روزاليوسف، وغيرهم، وهنا يتم نقل قضية نصر أبو زيد من دائرتها الأصلية إلى الدائرة التى أصدرت الحكم، دون مبررات واضحة، وهي كلها مؤشرات إلى منهج آخر وطريق آخر يتسم بالذكاء قد بدأ تنفيذه، حيث يمكن ذبح نصر أبو زيد بعد الحكم، مع تهيئة الجماهير لقبول ذلك الذبح الشرعي بحملة واسعة حدثت فعلا في مساجد معلومة الشأن، دون أن نتمكن من اتهام الإرهاب الديني المسلح، وسيف هيبة مؤسسة القضاء مرفوع فوق رؤوسنا، ولأن القتل هنا سيكون بتفويض رسمي من مؤسسة الدولة، ومختوما بخاتمها الرسمي.

كل ذلك يشير إلى جودة عالية في التكتيك، وتوزيع مبرمج بدقة للأدوار، تمكن من الاستفادة من الوسطية الفجة التى تلعبها مؤسسة الحكم، منذ أن قررت أن تكون الدولة دولة مؤسسات ديمقراطية، ثم قررت في الوقت نفسه أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع، فجمعت بين المبدأ الديمقراطي الذى لا يعرف عن المواطنين هويتهم الدينية، ولا يضع، في اعتباره إن كان هذا المواطن مسلما، أم مسيحيا، أو حتى بلا دين محدد، وبين أيديولوجيا دينية شمولية، مع التصور الساذج أنه من غير الممكن استخدام هذه النصوص الدستورية عمليا، حيث كان الأمر تجملا من النظام أمام التيار

الدينى، وإثباتا لتدين الدولة والتحائها، لتحقيق عناصر ومناخ مناسب للتحالف الذى حدث آنذاك بين نظام السادات وبين الإسلاميين.

ولا شك لدينا أن السيد القاضى المبجل، الذى أصدر الحكم، كان متسقا تماما مع القاعدة التشريعية التى سوغت له أن يحكم بما حكم، فتحت يديه باب للجحيم يمكنه أن يفتحه ويستخدمه وقتما شاء، قد وضعته له حكومتنا الغراء، كما أن سيادته كان متسقا تماما مع منظومته الدينية والفكرية، فالرجل كما رنا إلى علمنا من المتشددين فى أمور الدين، لذلك فقد أصدر الحكم الذى ارتاح إليه ضميره وعقيدته، التى هى بهذا المنطق أساس ومقياس كل الأحكام.

لكن هذا كله لا يعنى تبرئة السيد القاضى المبجل من الخطأ، فجل من لا يخطىء، نقول هذا ونحن نعلم معنى هيبة القضاء ومؤسسته، **كما نعلم جيداً ما قد يجره هذا الكلام علينا نحن بالذات.** لكن المسألة لم تعد تحتمل ترددأ أو وسطية أو تمييعا للمواقف، نعم مؤكد لدينا أن الحكم بقياسة على عقيدة القاضى ونص الدستور صحيح تماما، وهو الأمر الذى يجب أن يحيل الجميع الآن إلى مناقشة القاعدة الدستورية والتشريعية ذاتها، التى سوغت له إصدار حكمه، أما الخطأ الذى نقصده فهو قيام الحكم على حيثية اتخذت موقفها من اجتهاد نصر أبو زيد فى مسألة المواريث، وهو ما شرحه الدكتور محمد البرى، لا فض فوه، أن اجتهاد نصر هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، والخطير هنا هو أن القاضى المبجل قد أصدر حكمه بناء على فهمه هو لما كتب نصر أبو زيد، بينما هناك كثير من مفكرى هذا البلد، قد قرأوا أعمال الرجل، ولم يفهموا منها ما فهم السيد القاضى، وهنا جوهر الأمر، حيث يتم تحكيم الدين فى رقاب العباد، **بينما النص الدينى نفسه قابل لتعدد الفهم حوله بتعدد القراءات واختلاف الثقافات،** كما أن أى نص آخر يحمل ذات المشكلة فى تعدد ألوان الفهم حوله، ومن ثم يصبح الخطأ هنا - خاصة إذا كان الخطأ قاتلا - هو فى فهم ما كتب نصر أبو زيد، يلتبس بخطأ آخر يتأسس على الانحياز لفهم دون فهم آخر لنصوص الدين، وهو بدوره ما ينبنى على اعتبار تلك النصوص نصوصا جامدة ثابتة لا تقبل المناقشة، ويلحق بذلك نتائج هى أن أى محاولة لتحديثها أو تاويلها، أو حتى مجرد تحريكها، يعنى الكفران المبين.

وقد أخذ فهم نصوص القرآن الكريم أحد طريقين، ظلا طوال التاريخ الإسلامى فى حالة مد وجزر، لعبت بهما أقدار السياسة والظروف الاقتصادية والاجتماعية، حتى استقر أحد الطريقين وساد فى عصور التخلف والظلام.

فالمعلوم لدى أى مسلم أن القرآن الكريم لم يتنزل على النبى صلى الله عليه وسلم دفعة واحد وكتلة متماسكة كالواح موسى، إنما تواتر مفرقا عبر ثلاث وعشرين سنة، هى عمر الوحى، أى أنه استغرق من التاريخ زمنا يتجادل مع أحداث الواقع ومستجداته ويتفاعل معها ويجيب على ما تطرحه من إشكاليات دائمة التغير، وخلال ذلك نسخت آيات آيات أخرى، ونسيت آيات، ورفعت آيات، وهو ما يعنى أن للوحى عمراً هو جزء من التاريخ، وهو ما يعنى تاريخية النص القرآنى التى لا يجادل فيها إلا مكابر أو صاحب مصلحة، وكانت هذه التاريخية واضحة تماما فى أذهان المسلمين الأوائل.

وفهم تاريخية النص الدينى، وربط الآيات بأسبابها، لا شك يوقف الاستخدام النفعى والانتهازى والمصلحى والارتزاقى للدين، فحيث أن عملية جمع القرآن زمن الخليفة عثمان، قد جمعت الناسخ إلى جوار المنسوخ، فقد دفع ذلك أكثر الصحابة علما وفقها إلى التنبيه على تلك التاريخية طوال الوقت، وهو ما يمثله قول على بن أبى طالب لأحد القضاة وهو يحكم بين الناس: «هل تعرف الناسخ من المنسوخ؟» فقال: لا، فقال على: «إذن فقد هلكت وأهلكت».

وفى عصور التخلف، واستخدام الدين لخدمة توجهات أصحاب السلطان، تم وضع قاعدة فقهية تقول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو ما يفتح الباب على مصراعيه أمام الاستخدام الانتهازى الصريح لنصوص الدين. ومن أمثلة ذلك الاستخدامات القريبة ما مر فى تاريخنا المعاصر، من تبرير رجال الدين لتوجهات الحكومات على تناقضها التام، فعندما كنا نحارب إسرائيل وجدنا آيات لا حصر لها تؤيد تلك الحرب وتدعو إليها، وعندما قررنا عقد السلم معها وجدنا آيات أخرى تدعو إلى السلم وتطالبنا بالجنوح إليه، وعندما اعتمدنا المنهج الاشتراكى فى الزمن الناصرى، اكتشفوا لنا أن رائد الاشتراكيين وإمامهم هو النبى صلى الله عليه وسلم، وعندما قررنا الأخذ بنظام الاقتصاد الحر قدموا لها كشفا على النقيض تماما، يجعل الناس درجات وطبقات.

وهكذا وجد القائمون على شئون الدين بناء على تلك القاعدة الفقهية، مكاسب دائمة، تبرر للسلاطين عبر العصور آراءهم واتجاهاتهم بل ونزواتهم، بالدين ونصوصه تأسيسا على إنكار تاريخية الوحى والقول بثباته الأزلى فى لوح محفوظ، للعمل بالناسخ وقت الحاجة، وللعمل بالمنسوخ عند تغير الحاجة، حسب التوجهات المطلوبة والانتهازية.

والقول بأزلية النص إنما يجافى العقل والمنطق والنص نفسه، حيث يحوى النص أحداثا

وقعت إبان حياة الرسول لا يمكن فهمها إلا فى ضوء تاريخية النص، ولا يمكن فهم الايات المتعلقة بها إلا بربطها بتلك الأحداث الحادثة وليست الأزلية أو القديمة، وهى تتعدد بتعدد آيات القرآن الكريم ذاته، وإلا كيف نفهم نصا أزليا قديما يحدثنا عن واقعة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش ليحل إشكاليتها؟! أو كيف نفهم فى ظل الأزلية النص الذى يحدثنا عن أولئك الذين نادوا النبى من وراء الحجرات، أو كيف نفهم سماع الله لتلك المرأة التى جاءت إلى النبى تجادله.. الخ، والنماذج أكثر من أن تحصى.

من هنا وتأسيسا على كل ذلك جاءت أعمال كوكبة المفكرين المحدثين فى مصر، لوقف إهدار الوطن وكرامة المواطن طوال الوقت بهذا الاستخدام النفعى للدين، وحتى لا نظل على حافة التناقض دوما، وعلى رأس تلك الآعمال كانت كتابات نصر أبو زيد الرائدة، التى اقضت مضجع هؤلاء المنتفعين، ودفعتهم إلى تلك الحملة المسعورة، ضمن تكتيكهم الجديد المرحلى.

وغير خاف على أى مدقق، أن استمرار التعامل مع النصوص باعتبارها كتلة واحدة غير مرتبطة بأحداث ومتغيرات واقع الزمن النبوى، مع تعليقها فى فضاء لا يرتبط بواقع تلك الأحداث، أدى إلى تناقض شديد إلى درجة (الشيزوفرينيا) فى فكر الإنسان المسلم، كناتج ضرورى للتضارب بين الناسخ والمنسوخ، والإيمان بالعمل بأحكام كليهما، وأبرز مثال عليه ذلك التضارب بين آيات الصفح والصبر الجميل، وبين آية السيف التى أجمع الفقهاء على نسخها لآيات الصفح، وهو تناقض شكلى بالطبع وليس موضوعيا. لأن لكل منهما كانت ظروف واقعية تلتحم به وتبرره، بالتالى، وعملا بقاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، انطبع سلوكنا بالنفعية والانتهازية، حيث يمكنك أن تجد مبررا دينيا دائما لما تريد، وبحيث أصبحت الآيات القرآنية والأحاديث حججا دائمة حتى فى خصوماتنا الشخصية أو تعاملاتنا المجتمعية أو الاقتصادية، وكل منا على طرفى الخصومة يجد فيها مؤيدا له.

ومن ثم تناقضنا مع أنفسنا، ومع تاريخنا، ومع الآخر، ومع العالم، ومع مفهومنا عن الوطن، بل عن الدين ذاته، فلم نستطع طوال ذلك التاريخ أن نضع رؤية واضحة متسقة لأنفسنا أمام أنفسنا أو أمام العالم، وهو ما ترك بصمته الواضحة لدى الأحزاب الدينية، التى لم تتمكن حتى الآن من وضع برنامج واضح المعالم لها.

ولو حاولنا القياس على المحاكمة التى تمت وانتهت بقرار تفريق نصر أبو زيد عن زوجته، لوجب إجراء محاكمات مثيلة لشخصيات كبرى فى تاريخ الإسلام تصل بعضها إلى درجة

القدسية، مع تفاوت تلك الدرجة لدى المذاهب الإسلامية، فلدينا نماذج مثل الخليفة عمر بن الخطاب، الذى ارتكب بهذه المعانى ما لم يسبقه إليه أحد، وما لم يلحقه إليه أحد، فقد أوقف العمل بحد السرقة عام الرمادة، ثم نهى عن متعة حلال، فخالف بذلك نص القرآن ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ (٨٧/ المائدة)، وذلك عندما وقف على المنبر النبوى وقال: (متعتان كانتا على عهد رسول الله، وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء).

لن أناقش هنا مسألة الردة، وهل هى حد من الحدود المقررة فى الإسلام من عدمه، فقد تعرض لها أساتذة أكفاء وفندوها تفنيدا محكما، لكنى أسلك هنا سبيلا آخر أراه سبيل الإنسانية الحرة.

فنحن يمكننا أن نفهم الظروف التى أدت إلى حروب الردة زمن أبى بكر، ويمكننا أن نتفهم اغتيال المعارضين زمن النبى صلى الله عليه وسلم، وذلك بالنظر إلى ظروف الزمن آنذاك، حيث كانت دولة العرب الإسلامية فى طور النشاة والتكوين، وكان إسلام الفرد آنذاك تعاقدا بشروط، حيث يعرض عليه الإسلام، وهو رجل بالغ عاقل راشد، ليختار بملء إرادته وحريته، ويدرك مقدما النتائج المترتبة على إخلاله بذلك العقد، كما يمكننا أن نفهم سر شدة العقاب للمعترض والمرتد آنذاك، حيث كان إنشاء دولة من عدم، ومن قبائل متفرقة متصارعة، مع ما يعنيه ارتداد فرد بارتداد قبيلته جميعا، وما يؤدى إليه ذلك من تفكيك عرى الدولة وتوحدها، لذلك تمت التضحية بأرواح كثيرة عند قيام الدولة لأنها كانت تنهض فى وسط معاد لها تماما، لذلك كانت مضطرة، أن تكون دولة عسكرية شديدة المراس طوال الوقت.

نعم يمكننا أن نفهم ذلك ونعيه جيدا، لكننا هنا فى مصر وعلى مشارف القرن الحادى والعشرين، ومصر كانت دولة مركزية، وأمة متكاملة قبل أن تعرف الإسلام بألوف السنين، فما حكم المسلم هنا اليوم حيث يولد مسلما بحكم ميلاده فى أسرة مسلمة؟ فلا هو اختار الإسلام عن دراية وإرادة ودرس واقتناع، ولا هو دخل فى ذلك العقد عن بيئة واضحة نافية للجهالة، أفئن حاول من بعد أن يطمئن إلى طوية فؤاده، أو أن يناقش أمرا من أمور الدين ويجتهد فيه يحكم عليه بأنه مرتد؟ هكذا بكل بساطة؟!.

هل نحن كون بذاته؟ أم نحن أبناء هذا العالم؟ لقد كافحت البشرية وناضلت، وقدمت ملايين الضحايا على مذبح كرامة الإنسان وحقوقه، حتى تمكنت من إرساء تلك القواعد

الحقوقية، وأهمها حق حرية الاعتقاد، وحرية التفكير، وحرية القول، وحتى استطاعت أن تقيم الدولة المدنية الديمقراطية، ونحن هنا لا نجرؤ على حرية الاعتقاد، فقط ربما حاولنا حرية الاجتهاد، وعندها تصدر ضدنا أحكام القتل، إما من أمير جماعة مأفون، أو من محكمة تابعة للدولة، لأن حكومتنا الرشيدة لم تع بعد التعارض الهائل بين مواد الدستور وبعضها، لم تع أن حقوق المواطن فى دولة مدنية دستورية مؤسساتية، تتعارض بل وتتضارب تضاربا صارخا مع البنود الأخرى فى الدستور، وربما كانت قضية أبو زيد الآن هى الضارة النافعة، ومن ثم أرفع صوتى هنا وأطلب من كل شرفاء مصر أن يضموا أصواتهم إلى صوتى، للعمل على إعادة النظر فى القواعد التى يمكن أن تسوغ للبعض إهدار أبسط حقوق الإنسان، حتى لو كانت تلك القواعد لإيجاد توازنات وسطية تحل بها الحكومة مشاكلها مع المعارضة الدينية، أو لرشوة تيار شعبى غير رشيد، فإما أن نقيم دولة مدنية حقا، أو لتخبرونا بوضوح أنكم مستريحون لوضعنا المزرى هذا خارج التاريخ، ولنا فى دستور ١٩٢٣ أسوة حسنة، وكنا نحن واضعوه وليس آخر.



منذ فجر التاريخ والحج فريضة دينية

«الدائرة هى أكمل الأشكال».. هذا ما أعلنه (فيثاغورس) فى القرن الرابع قبل الميلاد.. وقبله بحوالى نصف قرن كان الفيلسوف (طاليس) يؤكد أن الأرض مستديرة كالقرص تماما. وتوصل (أنسكمندريس) إلى أنها معلقة فى الفضاء.

ووسع (بارمنيدس) النظرية، فقال أن الكون كله، ليس إلا كرة تامة الاستدارة. ولم يأت عام ٣٥٠ قبل الميلاد، حتى كان (ديمقرطيس) قد عمم النظرية على الكون كله، حين أنتهى إلى أن الكون كله، يتركب من جسميات مادية كروية الشكل متناهية فى الدقة والصغر، هى الذرة[1].

والعلم الحديث يؤكد أن الكون كله من أكبر أجرامه إلى أدناها، يعتمد الكروية فى تشكيله، والاهليجية فى حركته (الاهليجية هى الطواف دائريا على منحنى ببضاوى). فالأرض مثلها مثل بقية كواكب المجموعة الشمسية، كرة تطوف على منحى بيضاوى حول مركز هو الشمس، والشمس كأى نجم كرة نارية تطوف مصطحبة معها كواكبها بنفس الطريقة، حول مركز مجرتها (التبانة)، والمجرات بالملايين والنجوم بالبلايين، وكلها كروية فى تشكيلها، ذات طواف اهليجى فى حركتها، وينطبق هذا حتى على أدق الأجسام الكونية. فالذرة مجموعة شمسية مصغرة، إذ هى عبارة عن ألكترونات كروية تطوف إهليجيا حول مركز كروى هو نواة الذرة.

والغريب أن الإنسان - منذ فجر التاريخ - عندما كان يريد اثبات خضوعه لناموس الكون، كان يضع نقطة اعتبارية يقدسها ويطوف حولها، كطواف الكواكب حول الشمس أو الإلكترونات حول الذرة، كما لو كانت الكروية أو الاستدارة ناموسا قدسيا إلى جانب كونها ناموسا علميا.

ولما كانت المكتشفات الفلكية القديمة (فى الرافدين)، قد توقفت عند سبعة كواكب تدور حول الشمس، فيبدو أن ذلك سوغ الإنسان القديم أن يضع لطوافه حول بيوت الآلهة المقدسة

(*) من أوائل موضوعات الكاتب الاختبارية، نشر بالعدد (١٢، ١٣) من مجلة الكويت، الكويت.
(١) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، ص ١٢.

وحدة قياسية مقدسة تتكون من سبعة أشواط. مع الأخذ فى الحسبان أن هذه الكواكب السبعة كانت آلهة فى نظره.

الحج فى العقائد القديمة

ومنذ بداية التاريخ الفرعونى، اتخذت مدينة (أبيدوس) مكانة قدسية لا تبارى. فقد اعتقد القوم هناك أن رأس الشهيد (أوزيريس) مدفون فيها. ومع بداية العصر المتوسط الأول، أصبحت زيارة البيت المقدس فى (أبيدوس) والطواف حوله سبعة أشواط، حجا وفريضة أجبارية على كل مؤمن بأوزيريس، فى حين أمست السنة المستحبة هى الدفن بجوار حبيبهم، الشهيد، باعتبار جواره وحماه، أقدس وأطهر مكان على الأرض، بل هو فى اعتقادهم مركز الكون، حتى أطلق الكهان على مدفن أوزيريس (أباتون) أى الحرم، لأن الغناء أو الطبل أو الصيد، أو حتى مجرد الجهر بالصوت كانت محرمة فى (أبيدوس).

وحتى اليوم، لم يزل العامة حول المنطقة ولمسافات بعيدة، يقصدون آبار المياه المقدسة فى أبيدوس للاخصاب والاستشفاء، دون علم بأصل هذه القدسية الحقيقى. فالمسيحيون يقصدونها معتقدين أنها قبر قديس من أباء الكنيسة الأوائل، ويقصدها المسلمون واضعين فى حسبانهم أن هذا القبر مقام ولى من الصالحين[٢].

وفى بلاد الرافدين تبنت الدول السامية حضارة سومر. وخلال الحضارات التى توالت هناك من (أكد) إلى (بابل) إلى (آشور) إلى (كلديا)، كان المصطلح السومرى (إيلو) أو (أيل) هو اسم العلم المطلق الدال على الإله المعبود[٣]، فكانت (أيل) تطلق على أى رب من الأرباب[٤] الذين يربو عددهم على ثلاثة آلاف.

لكن اللسان السامى، أبدل الكلمة السومرية (BIT) بمعنى المعبد، بمقابلها السامى بيت[٥] وأضافها إلى (أيل) لتصبح (بيت أيل) أى بيت الله (ولاحظ التقارب فى النطق بين أيل والله)، للتدليل على معبد الإله، الذى كان يأخذ عادة شكل الزاقورة وهى شىء أشبه بالمئذنة،

(٢) ديانة مصرى القديمة، دولف أرمان، ص ٤٢٠ : ٤٢٢. انظر أيضاً: مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة أدولف أرمان وهرمان رانكه، ص ٢٩٠.
(٣) «أبيدوس»، د. عبدالحميد زايد، ص ٣١ (بالإنجليزية).
(٤) الساميون ولغاتهم، د. حسن ظاظا، ص ٢٨.
(٥) الديانة عند البابليين، جان بوتيرو، ص ٩٤، ١٣٤.

يدور حولها سلم صاعد فى شكل دائرى، وعلى قمتها كانوا يضعون شكلا هلاليا، رمزا للإله (سين) إله القمر، وهو نفس الإله الذى عبده عرب الجنوب تحت اسم (ياسين). كما كان الهلال أيضا رمزا للآلهة (عشتروت) كوكب الزهرة، وكانت بيوت الآلهة الرافدية تنتشر بطول البلاد وعرضها، لكن مراكز العبادة الكبرى كانت فى المدن، واعتبرت محجات للمؤمنين، خاصة بالآلهين: (سين) و (عشتروت).

وفى كنعان انتشرت بيوت الآلهة، مثل (بيت شماس) و(بيت إناث) و(بيت لحم) و(بيت يراه). ويقول رينيه ديسو[٦] «أن هذه البيوت قد اتخذت شكل البناء المكعب، فسمى اللسان الكنعانى بيت المعبود (كعبو). وأوجب كل معبود على أتباعه الحج إلى بيته والطواف حوله سبعا، ولعل أهم هذه البيوت، ذلك البيت الذى أقامته القبيلة الإبراهيمية بعد هجرتها من مدينة (أور) الرافدية إلى أرض فلسطين، والذى حمل اسم «بيت إيل». كما يزعم الكتاب المقدس.. حيث ظل (إيل) هو المعبود للشعب العبرى منذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى ظهور النبى موسى عليه الصلاة والسلام.

ويؤكد (د. جواد على) أن الطواف حول مركز قدسى كان معروفا لدى قدماء الفرس والهنود والبوذيين والرومان. كذلك نجد فى المزامير بالكتاب اليهودى المقدس «أغسل يدى فى النقاوة فأطوف بمذبحك يا رب» (الاصحاح ٢٦)، وهو دليل واضح على وجود الطواف عند اليهود، وفى ثنايا حديثه عن الحج، يقول (د. جواد) «أقصد بالحج الذهاب إلى الأماكن المقدسة فى أزمنة موقوتة للتقرب إلى الآلهة وإلى صاحب ذلك الموضع المقدس، وتقابل هذه الكلمة العربية كلمة Pilgrimage فى الإنجليزية. والحج بهذا المعنى معروف فى جميع الأديان تقريبا. وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين. وكلمة حج من الكلمات السامية الأصل الاصيلة العتيقة، من أصل ح ك HG ح ج وهى حك.

وفى العبرانية، وقد وردت فى كتابات مختلف الشعوب المنسوبة إلى بنى سام. وفى روع الشعوب السامية القديمة أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها.. ولذلك يرى المتعبدون والمتقون شد الرحال إليها للتبرك بها والتقرب إليها، وذلك فى أوقات تحدد وتثبت، وفى أيام تعين تكون أياما حراما، لكونها أياما دينية ينصرف فيها الإنسان إلى التفكير فى آلهته.. وتكون هذه المواضع التى تستقر فيها الآلهة بيوتا لها، ولذلك قيل فى الأزمنة القديمة (بيوت الآلهة)، وقد

(٦) العرب فى سوريا قبل الإسلام، رينيه ديسو، ص ١٢٠.

بقى هذا الاصطلاح حيا حتى الآن يطلق على المعابد. فالمعبد هو بيت الله فى أغلب لغات العالم المعروفة فى الزمن الحاضر[٧].

محجات الجاهليين

أشارت النصوص السريانية واليونانية واللاتينية القديمة إلى وجود الحج عند العرب قبل الإسلام، غير أنها لم تشر إلى وجود بيت واحد كان يحج إليه العرب جميعا[٨]، ويقول (الهمدانى) أن العرب كانت لهم محجات متعددة منها بيت اللات وكعبة نجران وكعبة شداد الأيادى وكعبة غطفان[٩]، ويذكر ابن الكلبى بيوتا أخرى كبيت ثقيف[١٠]. ويشير (الزبيدى) إلى بيت ذى الخلصة الذى كان يدعى الكعبة اليمانية[١١]، ويضيف «د. جواد» بيوتا أخرى مثل (كعبة ذى الشرى) وكان حجها يوم ٢٥ كانون أول من كل عام، و(كعبة ذى غابة) الذى لقبه عباده بـ (قدست) أى (القدسى)، كذلك كان لآلهة الصفويين (اللات وديان وصالح ورضا ورحيم) محجاتها، كما كانوا يحجون إلى الكعبة المكية و(بيت اللات) فى الطائف و(بيت العزى) قرب عرفات و(بيت مناة)، وغيرها كثيرا. وكان الحج معتادا فى شهر ذى الحجة، وكان الطواف الجاهلى حول البيت الذى يعظمه سبعة أشواط[١٢].

ويبدو أن تقديس بيوت الآلهة تلك، يرجع إلى اعتقاد الجاهلى فى أن إلهه يسكن فوق سطح السماء، وبالتالى فقد يقدس أى جسم فضائى (كالنجوم وبقايا النيازك والشهب المتهاوية إلى الأرض) لتصوره أنه إنما سقط من البيت الإلهى الذى فى السماء، وكذلك كان يعتبر هذا الحجر رمزا لآلهه، فيجعله مركزا قدسيا يبنى حوله بيتا يطوف به تبركا، معتقدا أن هذا البيت يقع تماما تحت البيت الإلهى، باعتبار أن حجره المقدس يقع تماما تحت المكان الذى سقط منه. وأضاف الجاهليون إلى الأحجار النيزكية الأحجار البركانية لتكون محل تقديس، لأنهم خالوها ساقطة من السماء[١٣] ربما لسوادها نتيجة انصهارها، مما يجعلها شبيهة بالأحجار النيزكية التى صهرتها حرارة الاحتكاك بالغلاف الغازى قبل سقوطها على الأرض.

(٧) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد على، ج ٥، ص ٢٢٣، ٢١٤، ٢١٥.
(٨) نفس المرجع، ص ٢١٧.
(٩) الإكليل، ج ٨، ص ٨٤.
(١٠) كتاب الأصنام، ص ١٦.
(١١) تاج العروس، ج ٢، ص ٢٧١.
(١٢) المفصل، ج ٥، ص ١٨٠، ١٥٢، ١٥٣، ٢١٧، ٢٢٤.
(١٣) أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، محمد حسنى عبدالحميد، ص ٩٨.

ومثال لهذه الأحجار السوداء، معبود النبطيين، وهو حجر أسود يرمز للشمس[١٤]، والآلهة مناة عبدها الهذليون ممثلة في حجر أسود[١٥]، كذلك كان «ذو الشرى» حجر أسود[١٦]. وقد تصور الجاهليون أن حجر الكعبة المكية الأسود ومقام إبراهيم مثل بقية أحجارهم المقدسة، حتى ظنوا ـ كما يقول المسعودى ـ أن البيت المكى من البيوت التى خططت لعبادة الكواكب السيارة السبعة[١٧] ولكن للبيت المكى وحجره الأسود قصة أخرى، كما سنرى حين نتطرق إلى الحج فى الإسلام، ولكن قبل ذلك ينبغى الوقوف مع البيت المكى فى العصر القرشى، نستقرىء التاريخ اعتقادات الجاهليين حوله.

الكعبـــة المكيـــة

يتفق الباحثون على أن الجغرافى (بطليموس) يعد أقدم من أشار إلى مكة وأوردها الاسم (مكربا)، ومن سرده يمكن استنتاج أنها كانت بلدة عامرة فى القرن الثانى للميلاد. ويذهب بعض الباحثين إلى أنها يجب أن تكون موجودة قبل هذا التاريخ بكثير[١٨].

ويعتقد Dr. Snouck Hmrgruje أن نبع (زمزم) فى واد غير ذى زرع، هو السبب فى نشوء هذا المركز المقدس[١٩]، وقد قدم مفتى الديار المصرى (حسنين مخلوف) كتابا للسيد (محمد حسنى عبد الحميد)، عنوانه (أبو الأنبياء)، نقل فيه مؤلفه عن (جرجى زيدان) أن الأصل فى اسم (مكة) هو لفظ (بكة) أو (بك) السامية الأصل، مع الأخذ فى الاعتبار تسمية القرآن لمكة بالاسم (بكة): ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين﴾. ومعلوم أن اللغة العربية فيها إبدال الباء ميما والعكس. ويمثل المؤلف لذلك بمعبد (بعلبك) فى لبنان، مشيرا إلى أن الاسم (بعلبك) مركب من مقطعين، (بعل) وهو اسم صنم يمثل معبودا كنعانيا قديما ولا يزال قائما فى المعبد إلى اليوم، و (بك) أى بيت. وقد أطلق على المدينة التى فيها بيت البعل (بعل بك ـ بعلبك) كما هو الواقع بمكة[٢٠]. ويشير (د. خليل أحمد) إلى أن

(١٤) مضمون الأسطورة فى الفكر العربى، د. خليل أحمد، ص ٤٣.
(١٥) فى طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم.
(١٦) نفسه: ص ٦٠، ٦١.
(١٧) مروج الذهب: ج ٤، ص ٤٧.
(١٨) فى طريق الميثولوجيا، ص ١٢٥.
(١٩) نفس لموضع.
(٢٠) أبو الأنبياء، ص ٩٣، ٩٤.

الاسم (بك) ربما كان بابليا أو آشوريا[٢١]. (لاحظ أن كبير أرباب الكعبة قبل الإسلام كان هبل وهو من أصل كنعانى، إذ تحكى كتب التاريخ الإسلامى أن عمرو بن لحى الخزاعى قد أحضر تمثاله من البلقاء فى الشام، والاسم هبل هو فى الاصل هبعل والهاء أداة تعريف بينما أهملت العين بالتخفيف مع مرور الزمن).

ويذهب بعض الباحثين مذهبا آخر، واستنادا لرواية (ابن طيفور المصرى) و(القيروانى) القائلة أن أهل حمير كانوا يقلبون القاف كافا، بزعم هؤلاء أن أصل الكلمة (مكة) هو (مقة). وكان (مقة) اسما للإله السبئى المعروف فى التاريخ العقائدى بأل (مقة). ومن هؤلاء الباحثة اليمنية (ثريا منقوش) التى اهتمت بدراسة الإله اليمنى (مقة) منذ بدء ظهوره حتى تحوله إلى إله قومى، وانتشار عبادته بعد انهيار مركز اليمن التجارى بانهيار سد مأرب وتشتت القبائل اليمنية فى أرض الحجاز، واستقرار أكبرها (خزاعة) فى المنطقة التى أصبحت تعرف باسم (مكة)[٢٢]. وتزعم الباحثة أن كثيرا من عادات الحج إلى البيت المكى فى الجاهلية، كانت على غرار التقاليد اليمنية القديمة فى تأدية فروض العبادة والحج للإله الـ (مقة)[٢٣].

وتدعم الباحثة وجهة نظرها بقولها: «وقد ادرك الرسول صلى الله عليه وسلم علاقة مكة بأهل اليمن بما توافر لديه من معلومات تاريخية عن العلاقة بين مكة وأهلها، واليمن وقبائلها وعقائدها، فورد على لسانه وهو بالمدينة: ما هنا يمن وما هنا شام، فمكة من اليمن. وقوله صلى الله عليه وسلم: أتاكم أهل اليمن وهم أرق قلوبا. الفقه يمان والحكمة يمانية، وأنا رجل يمان». وفى حديث آخر يقول الرسول: «أنا يمان والحجر الأسود يمان والدين يمان». ويأتى موقع مكة فى السهل التهامى ليؤكد ارتباطها باليمن. فجاءت تفسيرات المفسرين ومنهم سفيان بن عيينه لحديث الرسول: أتاكم أهل اليمن، أى أهل تهامة، لأن مكة يمن، وهذا هو أصل قوله: «الإيمان يمان والحكمة يمانية»[٢٤].

ونضيف إلى هؤلاء الباحثين احتمالات أشد بساطة، مثل أن تكون (مكربا) تعنى رب البيت لو أخذنا بأن (بك) تعنى البيت و(رابا) واضح أنها من (رب) فى اللسان العربى، أو مثل أن تكون (مكربا) من (قربان) وجمعها قرابين، وهى من أصل (قرب) وقد استعملت

(٢١) مضمون الأسطورة، ص ٦٨.
(٢٢) فى طريق الميثولوجيا، ص ٤٩.
(٢٣) التوحيد يمان، ص ٨٣ : ٨٩.
(٢٤) نفس المرجع: ص ٨٧.

وخصصت بهذا المعنى لأنها تقرب إلى المعبود، وهى معروفة بهذه التسمية Corban فى الآرامية والعبرانية وتعتبر من الاصطلاحات ذات الاصل السامى الواحد فى القديم، فتكون (مكربا) بهذا المعنى مكان التقرب إلى الله أو (المقربة) إلى الله.

الحج فى الجاهلية

وغنى عن الذكر أن (مكة) بعد أن تحولت إلى أكبر مركز تجارى فى شبه الجزيرة وذلك بعد تحول طرق التجارة من اليمن إليها، استقطب بيتها المقدس تعظيم غالبية العرب. ورغم أن العرب - بدوا وحضرا - كانوا يعظمون التماثيل التى وضعوها بفناء الكعبة لتمثل الأرباب، فإنهم كانوا يعتبرون للكعبة إلها أكبر وأعظم من هذه التماثيل. ولعظمته وسموه فقد تصوروا عدم إمكانية الاتصال المباشر بينه وبين العبد الخاطىء، فوضعوا بينهم وبينه وسائط وشفعاء، هى تماثيل لقوم صالحين صنعوها لهم بعد موتهم، ثم صارت تنعت بالأرباب أى السادة.

ويؤكد القرآن الكريم حقيقة إقرار الجاهلين بإله أعظم للكعبة أسموه (الله) فقط، فى حين كان لأربابهم مسميات أعلام أخرى مختلفة مثل (هبل) و(اللات) و(العزى) و(مناة) فيقول:

﴿لئن سألتهم من خلقهم، ليقولن الله..﴾ «٨٧ الزخرف».

﴿لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم..﴾ «٩ الزخرف».

﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله، قل أفلا تتقون﴾ «٨٦، ٨٧ المؤمنون».

وتحدثنا كتب التاريخ الإسلامى أن الجاهلين اعتقدوا فى قصة تعيد نشأة الكعبة إلى زمن موغل فى القدم، وتقول هذه القصة أن هبوط آدم إلى الأرض كان فى (سرنديب) من أرض الهند، وظل يهيم فى الأرض حتى وافى (حواء) وعرفها فى جبل (عرفات) ثم أخذها إلى أرض مكة وهناك توسل إلى ربه ليأذن له فى بناء بيت يطوف حوله، كما كان يفعل مع الملائكة حول بيت الله الذى فى السماء، فأنزل له الله على أجنحة الملائكة بيتا من النور مثل البيت الإلهى الذى فى السماء تماما، فوضعوه على الأرض تحت موقع بيت السماء مباشرة. ويموت آدم رفع بيت النور، فقام ولده (شيث) بتخطيط مكان النور، ثم أقام عليه بيتا من حجر الأرض وطينها، لكن البيت خرب بطوفان نوح. وامتد الزمان حتى انتهت النبوة إلى إبراهيم،

حيث حمل هاجر واسماعيل إلى هذا الموضع المبارك، ثم عاد إليهما بعد بضع سنين، وهناك أخذ ولده اسماعيل فرفعا القواعد من البيت.

ويقول (الشهرستانى) إن الجاهليين «كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون.. ويطوفون بالبيت سبعا، ويمسحون بالحجر ويسعون بين الصفا والمروة. وكانوا يلبون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته فى قوله: إلا شريك لك، تملكه وما ملك. ويقفون المواقف كلها.. وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار ويحرمون الأشهر الحرم، فلا يغزون ولا يقاتلون فيها، إلا طى وخثعم وبعض بنى الحارث بن كعب كانوا لا يحجون ولا يعتمرون ولا يحرمون الأشهر الحرم ولا البلد الحرام»[٢٦].

ويقول د. جواد على: «وقد كان الجاهليون يطوفون بالصفا والمروة وعليهما صنمان يمسحونهما.. سبعة أشواط، كما كانوا يقيمون الأضاحى ويقصون شعورهم هناك، ولم يحرم الإسلام الطواف بالموضعين»، وأن الرجم «كان معروفا عند الجاهلين، وهو معروف عند العبريين، وقد أشير إلى ذلك فى التوراة. وهو معروف عند بنى ارم وكلمة (ر ج م) من الكلمات السامية القديمة.. ويلحق بالرجم تقديم العتائر: الضحية فى الإسلام. وكانت تذبح عند الأصنام، والعمرة هى بمثابة الحج الاصغر فى الإسلام، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها فى شهر رجب، ومن الأشهر الحرم فى الجاهلية»، وينقل (د. جواد) عن (فلهوزن) ومجموعة مستشرقين، أن الحجر الأسود كان فوق أصنام الكعبة منزلة، وأن **قدسية البيت عند الجاهليين لم تكن بسبب الأصنام، بل كانت بسبب هذا الحجر الذى قدس لذاته وجلب القدسية للبيت، وأنه ربما كان شهاب نيزك أو جزءا من معبود مقدس قديم، وأن البيت كان إطارا للحجر الأسود أهم معبودات قريش، لكنه لم يكن معبودها الوحيد**[٢٧].

مكانة الكعبة فى الجاهلية

ويفيض الشعر بتعظيم البيت وشعائر الحج إليه وبالله صاحب البيت، وثقتهم به، وتبرز هذه

(٢٥) الملل والنحل، الشهرستانى، ج ٢، ص ٣٣، معجم البلدان، ياقوت، ص ٢٧٩، ٢٨١، ٦١٩، أخبار مكة، الأزرقى، ص ٨، ٩.
(٢٦) الملل، ج ٢، ص ٢٤٧.
(٢٧) المفصل، ج ٥، ص ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٢٢.

الثقة واضحة إبان غزو (أبرهة) وجيش الحبش للكعبة فى عام الفيل، فى شعر عبد المطلب بن هاشم القائل:

لا هـم إن العـبد يمـ	نـع حـله فامنـع حـلالك
لا يغلـبن صـليبهم ومحـا	لهـم غـدراً محـالك
إن كنـت تاركهـم وقبـ	لتـنا فأمـر ما بـدا لك[٢٨]

وفى رده على أبرهة الحبشى عندما تعجب من طلبه «رد علىَّ إبلى» قال: «إن للكعبة ربا يحميها».

ويقول ابن هشام عن عام الفيل «.. إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام»، ويبدو أن تفشى الحصبة والجدرى بين جنود الحبش لم يكن فى اعتقاد الجاهلى سببا كافيا لتراجعهم، لذلك أرجع السبب الحقيقى إلى رب الكعبة، وهذا إنما يبرز ثقتهم فى إلههم ثقة كاملة، تلك الثقة التى تجلت فى الاعتقاد بأن جيش أبرهة قد تعرض لهجوم جوى فريد من نوعه، فقد أرسل الله على جيش الحبش طيورا ترميه بالأحجار ليرسل (رؤبه بن الحجاج) رجزه قائلا:

ومسهم ما مس أصحاب الفيل	ترميهم حجـارة من سـجيل
ولعبـت بهـم طـير أبابيـل	فصيروا مثل عصف مأكول

ويشهد (نفيل بن حبيب) على صدق ما حدث بقوله:

حمدت الله إذ أبصرت طـيراً	وخفـت حجارة تلقـى علينـا

ويفخر (عبد الله بن الزبعرى) بمكة قائلا:

تنكلـوا عـن بطـن مكـة، إنهـا	كانـت قديمـاً لا يـرام حـريمها
لم تخلق الشعرى ليالى حرمت	إذ لا عزيـز من الأنـام يرومـها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى	ولسوف ينبى الجاهـلين عليهما
سـتون ألفـاً لـم يثوبـوا أرضـهم	ولـم يعـش بعـد الإياب سـقيمها
كانـت بهـا عـاد وجـرهم قبلهم	والله من فـوق العباد يقيمهـا

(٢٨) الملل، ج ٢، ص ٢٣٩، وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٤٥.

وتتجلى العقيدة الجاهلية فى رب البيت بصورة واضحة فى شعر (أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى) القائل:

إن آيات ربنا ثاقبات ... لا يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل ... مستبين حسابه مقدور
حبس الفيل بالمغمس حتى ... ظل يحبو كأنه معقور
خلفوه ثم ابذعروا جميعاً ... كلهم عظم ساقه مكسور

ويرتفع البيت بقدسيته ويتعالى، فى خطاب (عبد الله بن صفوان) لقومه، عندما كانوا يعيدون بناء البيت قبل البعثة بسنوات خمس: «لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا، لا تدخلوا فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس».

ويقسم زهير بن أبى سلمى:

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

وبتقديس البيت كانت نصائح الأم لابنها، كما فى وصية (سبيعة بنت الأجب) القائلة:

أبنىَّ لا تظلم بمكة ... لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنىَّ ... ولا يغرنك الغرور
أبنىَّ من يظلم بمكة ... يلق أطراف الشرور
أبنىَّ قد جربتها ... فوجدت ظالمها يبور
الله أمن طيرها ... والعصم تأمن فى ثبير
والفيل أهلك جيشه ... يرمون فيها بالصخور
فاسمع إذا حدثت وافهم ... كيف عاقبة الأمور

الحج فى الإسلام

يقول (ابن حبيب) فى محبره: باب السنن التى كانت الجاهلية سنتها فأبقى الإسلام بعضها وأسقط بعضها: «وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون بالبيت أسبوعا، ويمسحون بالحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروة. وكان على الصفا اساف وعلى المروة نائلة، وهما صنمان، وكانوا يلبون إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته.. وكانت العرب تقف بعرفات

ويدفعون منها والشمس حية، فيأتون إلى مزدلفة، وكانت قريش لا تخرج من مزدلفة ولا تقف بعرفات، ويقولون لا نعظم من الحل ما نعظم من الحرم، فبنى قصى المشعر فكان يسرج عليه يهتدى به أهل عرفات إذا أتوا مزدلفة، فأبقاه الله مشعرا، وأمر بالوقوف عنده. وقال العامرى فى وقوفهم فى الجاهلية:

فاقسم بالذى حجت قريش ... وموقف ذى الحجيج إلى إلال

(الإل جبل بعرفات)، وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار ويعظمون الأشهر الحرم..»(٣٠).

نعم أبقى الإسلام. كل هذه السنن والشعائر، لكنه طهرها ونقاها من أدران الجاهلية وجهالتها، فلم يعد السر فى تقديس الصفا والمروة والسعى بينهما هو صنما (إساف ونائلة) وإنما فى هرولة هاجر أم اسماعيل بينهما بحثا عن الماء فى صحراء مجدبة. ولم يعد الحجر الأسود ومقام إبرهيم أحجارا مقدسة لذاتها، بل لأنهما فى الأصل ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما. ولو لم يطمس الله نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب(٣١). وعن ابن عباس قال: «ليس فى الأرض شيء من الجنة إلا الركن الأسود والمقام»(٣٢).

أما القصة الإسلامية حول البيت، فهى قصة محوطة بالقدسية والتبجيل، يلخصها لنا كتاب (أبو الأنبياء) فيما يلى:

«.. إن الله سبحانه خلق موضع البيت قبل أن يخلق الأرض بألفى عام. فكانت زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض من تحتها، فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش فشكا إلى الله تعالى فأنزل البيت المعمور، وهو ياقوتة من يواقيت الجنة، له بابان من زمرد أخضر، باب شرقى وباب غربى، فوضعه على موضع البيت وقال: يا آدم أنى أهبط لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى، وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى، وأنزل الله عليه الحجر الأسود، وكان أبيض فاسود من مس الحيض فى الجاهلية، فتوجه آدم من الهند ماشيا إلى مكة، وأرسل الله إليه ملكا ليدله على البيت، فحج آدم البيت وأقام المناسك. فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا له: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام. قال ابن عباس حج آدم أربعين

(٢٩) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٤٧ : ٥١، وص ١٧٩.
(٣٠) المحبر، ص ٣١١، ٣١٩.
(٣١) تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٠٠.
(٣٢) معجم البلدان، ياقوت، مجلد ٢، ٢١٢.

حجة من الهند إلى مكة على رجليه، فكان ذلك إلى أيام الطوفان، فرفعه الله إلى السماء الرابعة. والبيت المعمور يدخله كل يوم ألف ملك ثم لا يعودون. وقد بعث الله جبريل حتى خبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبس صيانة له من الغرق (زمن الطوفان). فكان موضع البيت خاليا إلى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ثم أن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل واسحق، ببناء بيت يذكر فيه ويعبد، فسأل الله أن يبين له موضعه، فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت، وهى رياح خجوج لها رأسان تشبه الحية والخجوج من الرياح هى الشديدة السريعة الهبوب، وقيل هى الملتوية فى هبوبها. وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة، فتبعها ابراهيم حتى أتت موضع البيت فتطوقت عليه. قال ابن عباس: بعث الله سبحانه وتعال سحابة على قدر الكعبة، فجعلت تسير وإبراهيم يمشى فى ظلها إلى أن وقفت على موضع البيت، ونودى منها: يا ابراهيم، ابن على قدر ظلها، لا تزد ولا تنقص.. قال ابن عباس: بنى ابراهيم البيت من خمسة أجبل: من طور سينا وطور زيتا ولبنان وهو جبل بالشام والجودى وهو جبل بالجزيرة ومن حراء وهو جبل فى مكة. فلما انتهى ابراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لإسماعيل: إئتنى بحجر حسن يكون للناس علما، فأتاه بحجر، فقال: ائتنى بأحسن منه. فمضى اسماعيل ليطلب حجرا أحسن منه، فصاح الجبل أبو قبس: يا ابراهيم ان لك عندى وديعة فخذها، فقذف بالحجر الأسود، فأخذه ابراهيم فوضعه مكانه»[٣٣].

ونستكمل القصة من (الازرقى) حيث يقول: «فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها، الصفا والمروة ومنا ومزدلفة وعرفة. وبعد حصب ابليس وعرفات ابراهيم مناسكه كلها، أمره أن يؤذن فى الناس بالحج، فقال ابراهيم: يا رب ما يبلغ صوتى. فقال الله تعالى: أذن وعلى البلاغ. فعلا على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال أطولها، فجمعت له الأرض سهلها وجبلها وبرها وبحرها وانسها وجنها حتى أسمعهم جميعا»[٣٤].

وهكذا ظلت الكعبة بيتا مقدسا، تطوف حوله خير أمة أخرجت للناس، سبعا خشعا، والطواف سنة قدسية، أكد العلم باكتشافه أنها سنة علمية.

(٣٣) أبو الأنبياء، ص ٩١، ٩٢.
(٣٤) أخبار مكة، الأزرقى، ص ٣٣، ٣٤.

العرب قبل الإسلام:
العقائد.. والتعدد.. والأسلاف

معلوم أن عجز الإنسان وضعفه أمام ظواهر الطبيعة المتقلبة وقواها، مع قصور تجربته ومعرفته، كان هو الدافع لتصور قوى مفارقة (ميتافيزيقية)، هى التى تقف وراء متغيرات الطبيعة وثوراتها وغضبها وسكونها، ولأن تلك الظواهر لم تكن مفهومة، فقد جاءت تلك القوى أيضا غيبية ولذلك ارتبطت عقائد الناس فى أربابها بوسطها البيئى، حيث عبرت عن ذلك الوسط وأظهر مظاهره وأكثرها تكرارا وديمومة، ومن هنا قدس العربى أجرام السماء. التى تظهر بكل وضوح فى ليله الصحراوى المنبسط، دون حواجز حتى الأفق بدائرته الكاملة، كما قدس الأحجار بخاصة ذات السمات المتفردة منها، فبيئته رمال وصخور وأحجار، وقد غلب انتشار الصخور البركانية فى جزيرة العرب لانتشار البراكين فيها، وأطلقوا عليها اسم الحرات من الحرارة والانصهار.

لكن اتساع رقعة الجزيرة على خطوط عرض واسعة، أدى إلى تباين ظروف البيئة والمناخ، مما أدى إلى تعدد مماثل فى الظواهر، وبالتالى تعددية فى العبادات، هذا ناهيك عن وعورة المسالك فى الجزيرة، والتى أدت إلى ما يشبه العزلة لمواطن دون مواطن، خاصة تلك التى فى الباطن، مما أدى إلى احتفاظها بالوان من العقائد الموغلة فى قدمها وبدائيتها، نتيجة عدم الاحتكاك بالثقافات الأخرى التى تساعد على تطور الراسب المعرفى ومن ثم العقائدى.

التعدد فى العبادة

وهكذا يمكنك أن تجد إضافة لعبادة اجرام السماء وعبادة الاحجار والصخور، بقايا من ديانات بدائية كالفيتشية والطوطمية، وعبادة الأوثان وعبادة الأسلاف.

(*) نشر بمجلة نزوى العمانية، العدد الثانى، وقد نشر مجزوءاً منقوصاً، وهو هنا على حاله الذى نشر عليه.

والفيتشية أكثر ديانات الجزيرة انتشارا بين أهلها، وهى تقدس الأشياء المادية كالاحجار، للاعتقاد بوجود قوى سحرية خفية بداخلها، أو لأنها قادمة من عالم الآلهة فى السماء أو من باطن الأرض حيث عالم الموتى، وقد ظلت تلك العقائد قائمة حتى ظهور الإسلام.

أما الطوطمية، التى تعتقد بوجود صلة لأفراد القبيلة بحيوان ما مقدس، فتظهر فى مسميات قبائل العرب، مثل (أسد، فهد، يربوع، ضبة، كلب، ظبيان... الخ)، لذلك كانوا يحرمون لمس الطوطم أو حتى التلفظ باسمه، لذلك كانوا يكنون عنه، فالملدوغ يقولون عنه السليم، والنعامة يكنى عنها المجلم، والأسد أبى حارث، والثعلب ابن آوى، والضبع أم عامر، هكذا. هذا إضافة إلى تقديس الأشجار، مثل ذات أنواط التى كانوا يعظمونها، ويأتونها كل سنة فيذبحون عندها ويعلقون عليها اسلحتهم وأرديتهم.

كذلك عبد العرب كائنات أسموها (الجن) خوفا ورهبة، ودفعا لأذاها، وظنوها تقطن الاماكن الموحشة والمواضع المقفرة والمقابر، وكان العربى إذا دخل إلى موطن قفر حيا سكانه من الجن بقوله؛ عموا اظلاما، ويقف قائد الجماعة ينادى: إنا عائذون بسيد هذا الوادى، وتصوروا الجن كحال العرب، فهم قبائل وعشائر تربط بينهم صلات الرحم، يتقاتلون ويغزو بعضهم بعضا، ولهم سادة وشيوخ وعصبيات، ولهم من صفات العربان كثير، فهم يرعون حرمة الجوار ويحفظون الذمم ويعقدون الاحلاف.. وقد يتقاتلون فيثيرون العواصف، ويصيبون البشر بالأوبئة والجنون. وقد نسبوا إلى الجن الهتف قبل الدعوة مباشرة، حيث كثرت الهواتف أى الأصوات التى تنادى بأمور وتنبىء بأخرى بصوت مسموع وجسم غير مرئى.. وقد اعتمد الكهان على تلك الاعتقادات فزعموا أنهم يتلقون وحيهم عن الجن، وأن الجن بإمكانها الصعود إلى السماء والتنصت على مصائر البشر فى حكايات الملأ الأعلى مع بعضهم عمن فى الأرض، وان الكاهن بإمكانه معرفة مصائر البشر عبر رفيقه من الجان.

عبادة الأسلاف

أما أشد العبادات انتشارا وأقربها إلى الظرف المكانى والمجتمعى، فهى عبادة الأسلاف الراحلين، ويبدو لنا أن تلك العبادة كانت غاية التطور فى العبادة فى العصر قبل الجاهلى الاخير، حيث كان ظرف القبيلة لا يسمح بأى تفكك نظرا لانتقالها الدائم وحركتها الواسعة وراء الكلأ، وهو التنقل الذى كان يلزمه لزوجة جامعة لأفرادها، تم تمثله فى سلف القبيلة وسيدها

الراحل الغابر، فأصبح هو الرب المعبود وهو الكافل لها الحماية والتماسك، بوصفها وحدة عسكرية مقاتلة متحركة دوما، فاستبدلت بمفهوم الوطن مفهوم الحمى، والذى يشرف عليه سيدهم وأبوهم القديم وربهم المعبود، حيث تماهى جميع أفراد القبيلة فيه، ومن هنا كان الرب هو سيد القبيلة الراحل القديم، الذى تمثلوه بطلا مقاتلا أو حكيما لا يضارع، ومن ثم تعددت الأرباب بتعدد القبائل، ونزعت القبائل مع ذلك نحو التوحيد، وهى المعادلة التى تبدو غير مفهومة للوهلة الأولى، لكن بساطة الأمر تكمن فى ان البدوى فى قبليته كان لا يعبد فى العادة ولا يبجل سوى ربه الذى هو رمز عزته ورابط قبيلته، ولا يعترف بأرباب القبائل الأخرى، وهو الأمر الذى نشهد له نموذجا واضحا فى المدون الإسرائيلى المقدس، حيث عاش بنو إسرائيل ظروف قبلية شبيهة، فيقول سفر الخروج: «من مثلك بين الآلهة يا رب»، أى أن القبلى كان يعرف أربابا أخرى لقبائل أخرى، لكن ربه هو الأعظم من بينها. لذلك كان البدوى فى قبليته يأنف أن يحكمه أحد من خارج نسبه، لأن نسبه هو ربه، هو سلفه، هو ذاته، هو كرامته وعزته، لذلك كانت عبادة الأسلاف أحد أهم العوامل فى تفرق العرب القبلى، وعدم توحدهم فى وحدة مركزية تجمعهم.

ولم يأت الاعتراف بآلهة أخرى لقبائل أخرى الا فيما بعد، بعد دخول المصالح التجارية للمنطقة، واستعمال النقد، وظهور مصالح لأفراد فى قبيلة ترتبط بمصالح لأفراد فى قبيلة أخرى، مما أدى لاعتراف متبادل بالأرباب، وهو الأمر الذى بدأ يظهر خاصة فى المدن الكبرى بالجزيرة على خط التجارة، فى العصر الجاهلى الأخير، كما حدث فى مكة والطائف ويثرب وغيرها.

المستوى المعرفى

دأب بعض مفكرينا فى شؤون الدين - عافاهم الله - على الحط من شأن عرب الجزيرة قبل الإسلام، وتصويرهم فى صورة منكرة وسار على دربهم أصحاب الفنون الحديثة فى القصة والسيناريو والأعمال الفنية السينمائية، بحيث قدموا ذلك العربى عاريا من أية ثقافة أو حتى فهم أو حتى إنسانية، حتى باتت صورته فى ذهن شبيبتنا، إن لم تكن فى أذهان بعض المثقفين بل والكتاب أيضا، أقرب إلى الحيوانية منها إلى البشرية. وقد بدا لهؤلاء أن القدح فى شأن عرب قبل الإسلام، وإبرازهم بتلك الصورة، هو فرش أرضية الصورة بالسواد، لابراز نور

الدعوة الإسلامية بعد ذلك، وكلما زادوا فى تبشيع عرب الجاهلية، كلما كان الإسلام أكثر استضاءة وثقافة وعلما وخلقا وتطورا على كل المستويات. وأن الأمر بهذا الشكل يبعث أولا على الشعور بالفجاجة والسخف، ثم هو يجافى ابسط القواعد المنطقية للإيمان، فالإيمان يستمد قيمته من دعوته، ومن نصه القدسى، وسيرة نبيه، فقيمته فى ذاته، قيمة داخلية، وليست من مقارنته بآخر، أما الأنكى فى الأمر، فهو أن تتم مقارنة الإلهى بالإنسانى، لإبراز قيمة الإلهى إزاء نقص الإنسانى، فى تلك الحال ستكون ظالمة لكليهما: الإلهى والإنسانى، فالإلهى لا يقارن بغيره، كما أن مقارنة الإنسانى به فداحة فى التجنى على الإنسانى بما لا يقارن مع الإلهى.

وقد فطن (الدكتور طه حسين) إلى ذلك الأمر وعمد إلى إيضاحه فى كتابه (الأدب الجاهلى) مبينا مدى تهافت الفكرة الشائعة حول جاهلية العرب قبل الإسلام، وكيف أن تلك الفكرة أرادت تصوير العرب كالحيوانات المتوحشة. لإبراز دور الإسلام فى نقله الإعجازى لهؤلاء الاقوام المتوحشين، فجأة ودن مقدمات موضوعية، إلى مشارف الحضارة، فجمعهم فى أمة واحدة، فتحوا الدنيا وكونوا امبراطورية كبرى. هذا بينما القراءة النزيهة لتاريخ عرب الجزيرة فى المرحلة قبل الإسلامية تشير بوضوح، إلى أن العرب لم يكونوا كذلك، وفى تطورها الإنسانى، أما الركون إلى عقائدهم لتسفيههم، فهو الأمر الأشد فجاجة فى الرؤية، فيكفينا أن نلقى نظرة حولنا، على الإنسان وهو فى مشارف قرنه الحادى والعشرين، لنجده لم يزل بعد يعتقد فى أمور هى من أشد الأمور سخفا ومدعاة للضحك.

معارف العصر

والمطالع لأخبار ذلك العصر المنعوت بالجاهلى، فى كتب الاخبار الإسلامية ذاتها، سيجد فى الاخلاق مستوى رفيعا هو النبالة ذاتها، وسيجد المستوى المعرفى يتساوق تماما مع المستوى المعرفى للامم من حولهم، وأن معارفهم كانت تجمع إلى معارف تلك الامم معارفهم الخاصة، فقط كان تشتتهم القبلى وعدم توحدهم فى دولة مركزية، عائقا حقيقيا دون الوصول إلى المستوى الحضارى لما جاورهم من حضارات مركزية مستقرة. وهو الأمر الذى أخذ فى التطور المتسارع فى العصر الجاهلى الأخير نحو التوحد فى أحلاف كبرى، تهيئة للأمر العظيم الآتى فى توحد مركزى ودولة كبرى.

فعلى مستوى المعارف الكونية، كان لدى العرب تصورات واضحة، تضاهى التصورات فى الحضارات حولهم؛ فالأرض كرة مدحاة، والسماء سقف محفوظ تزينه مصابيح هى تلك النجوم، وفيه كواكب سيارة، اطلقوا عليها (الخنس والجوارى الكنس)، فهذا (زيد بن عمرو بن نفيل) يحدثنا عن التصور الكونى المعروف فى بلاد الحضارات، فى قوله:

دحاها فلما رآها استوت   على الماء أرسى عليها الجبالا

بينما نجد (أمية بن عبد الله الثقفى)، يصور لنا ما درج عليه العالم القديم من تصور للسماء سقفا بلا عمد، وأنها طبقات سبع، وأن الشهب فيها حماية ورصدا ومنعا للجن من استراق السمع على الملأ الأعلى، وذلك فى قوله:

بناها وابتنى سبعاً شداداً   بلا عمد يرين ولا حبال
سواها وزينها بنور   من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأت فى دجاها   مراميها أشد من النصال

المعارف الدينية

أما على مستوى المعارف الدينية، وكانت سمة عصرها، وهى المنحولة عن عقائد الرافدين القديمة ومصر القديمة وبلاد الشام وفلسطين، وجاء تفصيلها مجملا فى مدونات التوراة، فهو الأمر الذى كانت تعرفه جزيرة العرب، فهذا (الأفوه الأودى) يأبى إلا أن يسجل أسماء ابناء نوح فى قوله:

ولما يعصمها سام وحام   ويافت حيثما حلت ولام

أما طول العمر النوحى فكان مضرب المثل، وهو يؤخذ فى مديح الأعشى لإياس:

جزى الله إياساً خير نعمة   كما جزى المرء نوحاً بعدما شابا
فى فلكه إذا تبدلها ليصفها   وظل يجمع ألواحاً وأبواباً

وهو ما جاء أيضا فى ضرب الراجز، رافضا عمرا كعمر نوح:

فعلت لو عمرت سن الحل   أو عمر نحو زمن الفطحل
والصخر مبتل كطين الوحل   صرت رهينة هرم أو قتل

وكان انتشار قصص التوراة فى معارف الامم يجد صوابه فى معارف ذلك العصر، فها هو (أمية بن أبى الصلت) يقدم حوارا شعريا بين موسى وهارون وبين فرعون، يقول فيه:

وأنت الذى من فضل ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً منادياً
فقلت له: أذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذى كان طاغياً
وقولا له: ألنت سويت هذه بلا ... وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له: ألنت رفعت هذه ... بلا عمد، أرفق إذا بك بانياً

بل وعرف العرب قصة مريم وولدها، وسارت فيهم كقصة معلومة، وهو ما صاغه (أمية) شعرا بدوره، إضافة لما جاءت به المسيحية عن يوم بعث ونشور، مضافا إليه ما سبق إليه المصريون من القول بحساب للموتى أمام موازين العدل فى قاعة الحساب السماوية، فهذا شعر بقى عن (قس بن ساعدة) يقول:

يا ناعى الموت والأموات فى جدث ... عليهم من بقايا برعم خرق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم ... فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا
حتى يعودوا لحال غير حالهم ... خلقاً جديداً كما من قبله خلقوا
فيهم عراة ومنهم فى ثيابهم ... منها الجديد ومنها المبهج الخلق

وهو الأمر الذى يوضحه شعر (زيد بن نفيل) وهو يصور أحوال الحساب ونتائجه فى قوله:

ترى الأبرار دارهم جنان ... وللكفار حامية السعير
وخزى فى الحياة وإن يموتوا ... يلاقوا ما تضيق به الصدور

وهو ذات الأمر الذى فصّل أمره (أمية الثقفى) فى قوله:

باتت همومى تسرى طوارقها ... أكف عينى والدمع سابقها
مما أتانى من اليقين ولم ... أوت برأة يقصى ناطقها
أم من تلظى عليه واقدة النار ... محيط بها سرادقها؟
أم أسكن الجنة التى وعد ... الأبرار مصفوفة نمارقها؟
لايستوى المنزلان ولا ... الأعمال تستوى طرائقها
وفرقة منها أدخلت ... النار فساءت مرافقها

أما (علاف بن شهاب التميمى) فيؤكد:

وعلمت أن الله يجازى عبده ... يوم الحساب بأحسن الأعمال

كذلك جاء تقرير (زهير بن أبى سلمى واضحا) فى قوله:

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضح فى كتاب فيدخر ... ليوم الحساب، أو يعجل فينقم

المعالم الأدبية

ليس جديدا التأكيد على شعرية العربى، حتى قيل إن كل عربى شاعر، وحتى أصبح الشعر ديوان العرب، رواية حالهم وظروفهم وعقائدهم، وسجل لمعارفهم ومستواهم الثقافى الاخلاقى، وسجل لحياتهم العملية وطرق عيشهم بل ورؤاهم الفنية والفلسفية.

وإلى جانب الشعر كان مَعْلَم الخطابة بما حواه من ذات المحتويات الشعرية، بنثره المنظوم المسجوع، إضافة إلى سجع الكهان، المرسل منه والمزدوج.

وكان للعرب أسواقهم، التى عادة ما كانت تفتتح افتتاحا ثقافيا، بإلقاء الخطب النثرية، والقصائد الشعرية، وإجراء المسابقات حول افضل القصائد، وهو ما برز فى (المعلقات السبع)، مما يشير إلى ديدن أمة اهتمت بتنمية الثقافة وتشجعيها، رغم تشتتها شيعا فى قبائل لا تجمعها وحدة مركزية.

النثر المسجوع

وكان العربى حريصا على تقديم معارفه وثقافته شعرا، وان نثرها حرصا على الجرس الموسيقى فيها، مما يشير إلى رهافة فى الحس وارتقاء فى الذوق، ونماذج من ذلك النثر، ما جاء قسما بالمظاهر الكونية عند (الزبراء) وهى تقول: «واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادى ليأود ختلا، ويرق أنيابا عصلا، وإن صخر الطود لينذر ثقلا، لا تجدون عنه معلا».

ومن ألوان هذا السجع سجع دينى، جاء فى وصف (ربيعة بن ربيعة) ليوم البعث والنشور، بقوله: «يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون»، وهو

ذات الرجل الذى يقسم بصدق قوله: «والشفق والغسق، والفلق إذا اتسق، إن ما أنباتك به لحق»، أما (شق بن صعب) فيصف ذات اليوم بقوله: «يوم تجزى فيه الولايات، يدعى فيه من السماء بدعوات، يسمع منها الأحياء والأموات، ويجمع فيه الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات».

ويقسم (ابن صعب) لسائله بأنه يقول الحق: «ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، ان ما أنبتك به لحق، ما فيه أمض». أما الكاهن الخزاعى الذى احتكم إليه هاشم وامية فى نزاعهما، اصدر قراره سجعا يقول: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، قد سبق هاشم أمية إلى المفاخر».

أما (قس بن ساعدة الأيادى) فيرسل سجعه مصورا معارف العصر الكونية فى نثره قائلا: «ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وأرض مدحاة، وأنها مجراة، إن فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لعبرا».

المعلـــم الشـــعرى

والشعر الجاهلى وثيقة هامة فى يد الباحث العلمى، تأخذ سمت العلم التاريخى، رغم ما أثير حو الشعر الجاهلى من تشكيك فى صحة انتسابه لعصره فعلا، وكان أبرز ما قيل بشأنه قضية النحل التى أثارها (الدكتور طه حسين) فى كتابه الشعر الجاهلى، والمحاكمة المشهورة التى جرت آنذاك بشأن ذلك الكتاب وصاحبه.

لكن ما يدعو إلى الاطمئنان فى الغالبية مما وصلنا من ذلك الشعر، مدونا بأقلام المسلمين، هو أن القافية والوزن كانا يضمنان منع حدوث تغيير كبير على ذلك الشعر، كما ان المحتوى البسيط لذلك الشعر، وما جاء به من أخبار التخاصم على الإبل والمراعى يضمن عدم التصنع، وعلى رأى (د. حسين مروة) أننا لو حكمنا على شعر الأخطل وجرير......... بشكله، لتعذر علينا نسبته إلى ما بعد الإسلام.

وكان (ابن سلام) أول من بحث قضية الانتحال، وعزا أسباباها إلى العصبية القبلية، والرواة الوضاعين، مثل حماد الراوية، وخلف الأحمر، وسبق الجميع إلى مسألة الانتحال

(المفضل الضبى) الذى نقد خلفا الأحمر، أما (طه حسين) فقد ردد ما سبقه إليه المستشرق (مرجليوث) بشكل مختلف بعض الشيء. وإن كان أهم حيثيات محاكمته هى إنكاره هبوط إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام جزيرة العرب.

وقد قامت جمهرة السلفيين تؤكد قبولها صحة نسب الشعر الجاهلى دون تحفظ أو تشكك؛ وقد ظهر ذلك واضحا فى المؤلفات التى وضعت للرد على (طه حسين)، ونموذجا لذلك ما جاء فى كتاب (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) لمحمد أحمد الغمراوى، و(مصادر الشعر الجاهلى) لناصر الدين الاسد، وغيرهم. ونسبة الشعر الجاهلى لعصره، قد اتفق أمرها بين المسلمين السلفيين، وبين كثير من المستشرقين، وهو ما يمثله نموذجا قول المستشرق (ليال): «والواقع أن هذا الشعر الجاهلى، قد أفاد المؤرخ الباحث فى تأريخ الجاهلية، فائدة لا تقدر بثمن، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التأريخية، على فائدته من الوجهة الأدبية، لأنه حوى أمورا مهمة عن أحداث العرب الجاهليين، لم يكن فى وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر».

الخطابـــة

والخطابة كانت من أبرز الأنشطة الفكرية والثقافية للعرب، وكانوا يلجأون فيها إلى كل الوسائل الابداعية والجمالية والبلاغية لإقناع المستمع بوجاهة محتوى الخطبة، وعند التعامل مع ملوك الدول كان العرب يختارون أكثرهم تفوها، وقد ذكر (ابن عبد ربه) فى عقده الفريد، أن كسرى تنقص من أمر العرب فى حضور (النعمان بن المنذر) لديه، مما استفز (النعمان) لعروبته، فأرسل فى طلب خطباء العرب وأوفدهم إلى كسرى ليعرف مآثر العرب وقدرهم الثقافى.

وكان الخطباء يخطبون فى وفادتهم على الامراء، فيقف رئيس الوفد بين يدى صاحب السلطان ليتحدث بلسان قومه، ومن هذه الخطب ما قيل بين يدى رسول الله عليه السلام عام الوفود وأوردته كتب السير والأخبار. ومن أشهر الخطباء، أولئك الذين وردت أسماؤهم فى الرد على كسرى، وهم (أكثم بن صيفى)، و(حاجب بن زرارة التميمى)، و(الحارث بن عباد)، و(قيس بن مسعود)، و(عمرو بن الشريد السلمى)، و(عمرو بن معد يكرب الزبيدى)، ومن خطباء مكة (عتبة بن ربيعة) و(سهيل بن عمرو)، ومن الخطباء أيضا (هرم بن قطبة)،

و(عامر بن الظرب العداونى) ، وهى نماذج تشير إلى خطباء كُثر لقبائل العرب، أوردتها كتب الأخبار والسير تفصيلا وحصرا.

المســـتضعفون

لعب جدل الاحداث العالمية دورا أساسيا نشطا فيما جرى من تحولات داخل جزيرة العرب، وكان تحول طرق التجارة العالمية إلى الشريان البرى المار بمكة قادما من اليمن متجها نحو الامبراطوريتين، عاملا مؤسسا لتغير أنماط الانتاج الاقتصادى فى الجزيرة، التى أخذت تنحو نحو التجارة كعماد أساسى للاقتصاد، وما تبع ذلك من تغيرات فى البنى الاجتماعية، التى اخذت بدورها فى التحول النوعى عن الشكل القبلى القائم على المساواة المطلقة بين أفراد القبيلة، إلى تفكك ذلك الشكل بتراكم الثروة فى يد نفر من افراد القبيلة دون نفر آخر، الشكل الطبقى الذى فجر الإطار القبلى، لصالح تحالفات مصلحية بين أثرياء القبائل المختلفة، وكان الناتج الطبيعى لتفاوت توزيع الثروة، ظهور شكل مجتمعى جديد على جزيرة العرب، لترصد لنا كتب الأخبار الإسلامية أهم الشرائح المجتمعية الجديدة، على خريطة النظام الطبقى الطالع، مقابل الطبقة المترفة من أثرياء تجار العرب.

فقـــراء العـــرب

وإعمالا لجدل الأحداث اخذ الفارق الطبقى بالاتساع السريع والهائل، ليصبح سواد العرب من الفقراء المستضعفين، يعملون فى رعى الانعام والفلاحة وتجارات البيع البسيط، يسكنون الخيام والعشش والاكواخ الحقيرة، ويسمعون عن الخبز ولا يأكلونه، حيث كان الخبز من علامات الوجاهة والثراء، ولا يعرفون عن اللحم سوى الصليب، وهو ودك العظام تجمع وتهشم وتغلى على النار طويلا، ليحصلوا منها على الصليب، وغالبا ما عاشوا على مطاردة ظباء الصحراء وأورالها ويرابيعها. ونقصد بهؤلاء الفقراء، عرب صرحاء من أبناء قبائل متميزة، دفعتهم إلى الاسفل آلة التغير الاقتصادى والمجتمعى.

ويلى تلك الطبقة فى التدنى، طبقة الموالى، وهم من ابناء قبائل أخرى تركوها ولجأوا لقبائل مخالفة، أو كانوا أسرى فك أسيادهم أسرهم، أو أعاجم أرقاء أعتقهم سادتهم بمقابل. وقد شكل هؤلاء طبقة بين أبناء القبيلة الخلص الصرحاء، وبين العبيد.

ثم طبقة أخرى ظهرت بدورها نتيجة التفاوت الطبقى الحاد، وتكونت من افراد تلبستهم روح التمرد على اوضاع المجتمع الجديد، فتصرفوا بتلك الروح فأضروا بمصالح السادة، فخلعتهم قبائلهم وتبرأت من فعالهم باعلان مكتوب أو فى الاسواق العامة، وهى الطبقة التى عرفت باسم (الخلعاء).

الصـــــعاليك

أما أبرز تلك الطوائف أو الطبقات التى أفرزها المتغير الاقتصادى المجتمعى، فهى (الصعاليك)، وهم فئة لا تملك شيئا من وسائل الانتاج، تمردت على الاوضاع الطبقية، بل وشنت عليها الحرب، بخروجهم أفرادا عن قبائلهم باختيارهم، وتجمعهم على اختلاف أصولهم فى عصابات مسلحة، وأبرز الاسماء التى وصلتنا منهم: عروة بن الورد، وتأبط شرا، والسليك ابن السلكة، والشنفرى، وقد اطلق عليهم العرب (الذوبان)، و (العدائين) لسرعتهم.

وقد روى عن هؤلاء أنهم كانوا ذوى سمات متميزة، من الشهامة والمروءة والنبالة، واخلاق الفروسية، فكانوا لا يهاجمون إلا البخلاء من الاغنياء، ويوزعون ما ينهبون على الفقراء والمعدمين، بعد ان شكلوا لانفسهم مجتمعا فوضويا، شريعته القوة، وأدواته الغزو والإغارة، وهدفه الأول السلب والنهب وهدفه الأخير تعديل الموازين المجتمعية.

وتروى لنا كتب السير والأخبار وطبقات الشعراء، أشعارا للصعاليك، ينعكس فيها الإحساس المرير بوقع الفقر عليهم وفى نفوسهم، ويضج بشكوى صارخة من الظلم الاجتماعى، وهوان منزلتهم، فهذا (قيس بن الحدادية) يخبرنا أنه لم يكن يساوى عند قومه عنزة جرباء جذماء، أما الأخبار عن الشنفرى فتروى كيف أسلمه قومه هو وأمه وأخوه رهنا لقتيل عن قبيلة أخرى، ولم يفدوهم، وكيف تصعلك الشنفرى ورفع سيف ثورته بعد أن لطمته فتاة سلامية، لأنه ناداها: يا أختى، مستنكرة أن يرتفع إلى مقامها.

ومن مثل تلك الأخبار، نستطيع تكوين فكرة واضحة عن المدى الذى فعله المال داخل القبيلة، مما أدى بالصعاليك إلى فصم علاقتهم بقبائلهم، وتكوين جماعتهم المسلحة ضد الاغنياء، لينزعوا منهم مقومات الحياة الإنسانية التى أهدرها الواقع، وهو المبدأ الذى يتجلى واضحا فى شعر (عروة بن الورد) وهو يقول:

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يرح	عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فالموت خير للفتى من حياته	فقيراً، ومن موت تدب عقاربه

العبيــــــد

وفى ضوء الحاجة لليد العاملة فى خدمة آلة الاقتصاد الجديد، بدأت بلاد العرب تعرف النظام العبودى، وكان مصدره السبى والنخاسة وعبودية الدين، حتى جاء وقت أصبحت تجارة العبيد بمكة تجارة منتظمة، تأتى بهم من سواحل افريقيا الشرقية، وهم الطائفة السوداء، ومنهم من كان يشترى من بلاد فارس والروم وهم الطائفة البيضاء. لاستخدامهم فى حراسة القوافل، وأعمال الرى الصناعى والزراعة والحرب وليس أدل على كثرة هؤلاء العبيد. من أن (هندا بنت عتبة) أعتقت فى يوم واحد أربعين عبدا من عبيدها، كما أعتق أبو أحيحة سعيد بن العاص مائة عبد. اشتراهم واعتقهم.

ومع النظام العبودى انتشرت عادة التسرى بالإماء، فكان للرجل أن يهب أو يبيع أو ينكح أمته أو يجعلها مادة للكسب بتشغيلها فى البغاء، ثم يأخذ ناتجها المولود ليباع بدوره، وعندما جاء الإسلام حرم البغاء، ولكنه ابقى على نظام ملك اليمين ضمن ما ابقى عليه من أنظمة الجاهلية وقواعدها المجتمعية، لكنه رغّب فى العتق وحض عليه.

الأســــــاطير

مع التطور الرتيب البطىء للقوى المنتجة، نتيجة للتعددية والتشظى القبلى، تواضع العقل العربى على القاء تفاسير ميتافيزية، لما يجابهه من ظواهر طبيعية، يحاول بها تبرير ما يحدث حوله، وهو ما اصطلح بعد ذلك على تسميته بالأساطير بين العرب أنفسهم، خاصة بين الطبقة المثقفة من اثرياء تجارهم، وهو ما يعلن عدم قناعة مستبطن بتلك التفاسير، التى أدرجت ضمن أخبار السالفين وأنبياء الأمم وقوادهم تحت عنوان واحد يجمعها هو (الأساطير).

أســاطير المـــاء

ولما كان المطر أهم الظواهر وأخطرها لحياة البدوى، فقد وضعت بشأن انقطاعه أو تواتره سيولا تفاسير اسطورية بدائية بسيطة بساطة حياة البداوة، فإذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى

فعل النجم أو المجموعة النجمية التى توافقت من الظهور مع سقوط المطر، فيقولون: أُمطرنا بنوء كذا. وكان لفيض المطر أحيانا ودوره المدمر تفاسير من لون آخر، فيبدو أن الذاكرة العربية احتفظت بأحوال عرب قدماء، دمرت بلادهم بسبب الامطار العاصفة، فحكوا عنها روايات تفسيرية، تكمن الأسباب فيها بيد الآلهة الغاضبة البطوش على من خالفوا أوامرها أو نواهيها، وهو ما روته العرب مثيلة عن هلاك عاد وثمود، ويمكن الرجوع بشأنه تفصيلا للفصول الأولى من كتب الأخبار الإسلامية، وعلى سبيل المثال (تاريخ الأمم والملوك) للطبرى.

كذلك كان لندرة المطر أساطيرها الخاصة، والتى دفعتهم إلى ابتداع الوان من الطقوس، قصدوا بها تحريض الطبيعة على العمل، ويبدو أن ملاحظة سكان السواحل للضباب الصاعد من الماء ليكون سحابا ممطر، أثر فى تصور اصطناع حالة شبيهة، فكانوا يوقدون نارا تخرج مادتها دخانا شبيها بالضباب الصاعد للفضاء، بقصد الاستمطار. ولأن البقر كان رمزا للخصب عند الشعوب القديمة، فقد عقدوا بين النار والبقر فى طقس يجمعون فيه الابقار، ويصعدون بها المرتفعات، ويربطون فى ذيولها مواداً قابلة للاشتعال يوقدون فيها النار، فتهرع الابقار مذعورة تثير الغبار وهى تهبط من الجبل، لتصطنع حالة شبيهة بالعواصف الممطرة، واثناء ذلك يضجون بالدعاء والتضرع، ويرون ذلك سببا للسقيا بعد ذلك، وذلك إعمالاً لمبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه.

أساطير السماء

وفى العصر الجاهلى الأخير، ومع النزوع نحو توحد قومى دينى تحت ظل إله واحد، ارتفع العرب بذلك الإله عن المحسوسات، ونظروا إلى إلههم ساكنا السماء فى قصر عظيم تحفة حاشية من الملائكة، لذلك قدسوا السماء وأجرامها، والقسم بها، وبظواهرها، وحفوا بالقدسية كل ما تساقط من السماء بحسبانه قادما من ذلك المكان المقدس حيث العرش، فكان تقديس الأحجار النيزكية أحد نتائج ذلك الاعتقاد.

وقد نسبوا إلى الأفلاك أثراً عظيما فى حياة البشر والأمراض والأوبئة، وكان تساقط الشهب يعنى وقوع أحداث جلل، كالحروب، أو الكوارث الاقتصادية، أو الطبيعية، أو ولادة رجل عظيم، أو موت لآخر.

ويبدو أن تلك القدسية امتدت عند بعض القبائل إلى تأليه نجوم السماء، بينما اتجه البعض

الآخر إلى اعتبارها هى ذات الملائكة، وقالوا إنهن بنات الله، أو لهن علاقة بالله على الجملة فى أكثر من شأن، وتعبر عن ذلك الرواية المشهورة بشأن كوكب الزهرة والملكين هاروت وماروت، وكيف أغوت الزهرة الغانية الملكين الورعين فارتكبا الخطيئة وعصيا الله خالق السماوات والأرض، وكيف تحولت تلك المرأة التى أغوت ملائكة السماء بدورها إلى كائن سماوى يتمثل فى ذلك الكوكب الجميل المعروف بكوكب الزهرة.

أساطير البشر

كذلك لم يجد العرب فى تميز بعض الاشخاص إلا سمات خارقة، نسبوها إليهم أحيانا انبهارا، وأحيانا تمجيدا، فهذا خالد بن سنان يطفىء النار التى خرجت بجزيرة العرب وكانت لها رؤوس تسيح فتهلك البلدان ويبدو أنها كانت ذكرى بركان مدمر، لكنهم جعلوا للنار البركان رؤوسا آكلة حاربها ابن سنان حتى أطفأها وردها إلى مقر الأرض.

وهذا الصعلوك القوى النبيل، يشتد الاعجاب به وبقوته حتى يقولوا أنه قتل الغول وأتى يحمل رأسه تحت إبطه، فاسموه (تأبط شر). وهذا عنترة بن شداد يشد على الاعادى فيكسر رماح الحديد وينزع النخيل من مواضعه ويحارب الغزاة، حتى يتحول مع النزوع القومى فى الجاهلية الاخيرة إلى بطل عربى قومى يحارب أعداء العرب بقواه الجبارة.

وذلك (سيف بن ذى يزن) يدخل الحلم القومى العروبى بعد تحرير بلاده من الاحباش، فيتم التعتيم على استعانته بالفرس الذين يحتلون بلاده عوضا عن الأحباش، ليتم تصويره بطلا شعبيا عظيما يقاتل الجيوش ويهزمها بقوته ومهارته.

وهو ما يشير إلى نزوع جديد نحو أساطير البطولة للجاهلية فى عصرها الأخير، لتصنع رمزها القومى العربى، وهى تنحو نحو التوحد الآتى.

أنماط الزواج

فى جزيرة العرب، تعددت أنماط الزواج، كناتج ضرورى لشكل العلاقات المجتمعية، والتوزع القبلى، وتباعد المضارب عبر مساحة تكاد تكون قارة متباينة، تشكل فيها كل قبيلة وحدة قائمة بذاتها، ومن هنا فرضت تلك الأوضاع أنماطا عدة للنكاح، عددتها لنا كتب السير والأخبار الإسلامية.

النكـــاح لأجـــل

والنكاح لأجل كـان يقع على طريقـتين تمثـلان نوعين من الزواج، وهو لون من النكاح الصريح الذى لا يعنى زواجا بالمعنى المفهوم، والنوع الأول منه هو ما عرف بنكاح (الذواق) الذى يتم دون أى شروط تعاقدية، ويحل برغبة أى من الطرفين متى ما شعر بعدم الرغبة فى الاستمرار، وقد اشتهر بهذا النكاح (أم خارجة) التى تناكحت وأربعين رجلا من عشرين قبيلة، فكان يأيتها الرجل متوددا يقول: خطب، نكح، فيأتيها، حتى ضرب بها المثل فقيل: أسرع من نكاح أم خارجة، وهو الخبر الذى أورده (الزبيدى) فى تاج العروس والميدانى فى مجمع الأمثال.

أما النوع الثانى فهو (نكاح المتعة)، وقد عرف بعد ذلك فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كمشروع للمسلمين دون حرج، وكان قبل ذلك واسع الانتشار بين عرب الجاهلية، وكانت دوافعه لديهم التنقل والاسفار والحروب، حيث كان الرجل يتزوج على صداق محدد لأجل محدد، وبقضاء المدة ينفسخ التعاقد، وقد كان لأثرياء مكة الدور الأساسى فى إرساء هذا اللون من النكاح، حيث كانوا أصحاب قوافل وسفر، وممكنات مادية تسمح لهم باقتناء الحريم على تلك الطريقة، على محطات سفرهم بالقوافل، ويبدو أنه لون من التقنين الأحدث للطريقة الأولى (الزواج بالذواق).

أنكحة فى عداد الزنى

وعرفت الجاهلية ألوانا أخرى، من النكاح وكرهته رغم عمل البعض به، فكان فى عداد الزنى، وتمثله عدة الوان، أولها نكاح (الشغار)، وهو ان يزوج الرجل ابنة الرجل على ان يزوجه الآخر ابنته دون إمهار، فكانت كالتبادل البضائعى، لا حق للمرأة فيه ولا مهر لها، وقد نهى الإسلام عن هذا اللون من النكاح (لا شغار فى الإسلام)، ورغم ذلك لم يزل معمولا به خاصة بين فقراء المسلمين، كحل غير مكلف لعدم وجود المهر فيه.

وهناك لون آخر عرف باسم (المضامدة)، تتخذ فيه المرأة خليلا أو أكثر على زوجها، وكانت تفعله نساء القبائل الفقيرة زمن القحط، فتذهب إلى السوق وتعرض نفسها على ثرى يكفلها ويمنحها المال، ثم تعود بعد ذلك لزوجها بعد أن توسر بالمال الكافى لإعاشة اسرتها، وبدوره كان نكاحا بدفع العامل الاقتصادى أساسا.

ثم ألوان أخرى من النكاح البدل المعروف بتبادل الزوجات، وزواج (المقت)، وكان مكروها من العرب واسموه المقت كراهة له، وكان يتزوج بموجبه الرجل زوجة ابيه كجزء من ميراثه عند موت ذلك الاب، وقد ابطل الإسلام هذا اللون من الزواج، هذا ناهيك عن نكاح الاستبضاع الذى يطلب فيه الرجل بذرة سيد عظيم فى رحم زوجته عساه يرزق بولد عظيم.

ومن أنكحة الزنى الصريح، نكاح صاحبات (الرايات الحمر)، وهن بغايا مكة اللائى كن ينشطن فى مواسم التجارة وموسم الحج ترغيبا للتجار واهل السوق، وقد شجع أثرياء مكة صاحبات الروايا الحمر، لمزيد من الانعاش الاقتصادى، لكنهم مع ذلك كانوا على مروءة إن حملت المرأة، حيث يلحق ولدها بما يرى أهل الفراسة والقيافة أو بضرب القداح، فيصبح ابن من تقع عليه الحظوظ.

أنكحة بالعرف

وقد تواضع العرف القبلى فى ظل ظروف التشتت القبلى، والإغارة والاقتتال بين القبائل وبعضها، على لون بشع من ألوان النكاح، هو لون صريح من الاغتصاب المهين، ينزل بالقبيلة المهزومة ونسائها، حيث كان من حق المنتصر سبى النساء والاستمتاع بهن حيث تصبح ملكه بالسبى، ويصبح من حقه بيعها إن لم يجد من يفتديها منه. ومثله نكاح الإماء بالشراء والامتلاك، وهذا اللون من النكاح كان لا يعرف عددا للنساء الحريم على سرير الرجل، وهو شبيه بالزواج غير المحدد لعدد الزوجات الذى كان معرفا بدوره بين الطبقات الثرية، لكنه كان نادرا معدودا، حتى تجده فى خبر أو اثنين، كما جاء عن غيلان الثقفى الذى أسلم وتحته عشر نسوة.

مكانة المرأة

حول مكانة المرأة فى جاهلية العرب الأخيرة، اختلف الباحثون إزاء ما بأيديهم من معطيات تتضارب اشد التضارب، وتتناقض إلى حد عدم الالتقاء أبدا. فذهب الباحثون إلى طريقين على ذات الدرجة من التضارب والتناقض، منهم من رأى للمرأة فى الجاهلية مكانة تتميز بها عن وضع بنى جنسها عند بقية الشعوب، وأنها سمت إلى وضع السمت فى المجتمع، بينما ذهب فريق آخر إلى النقيض وهبط بها إلى أسفل سافلين.

الشـــكل الأرقـــى

ومن ذهبوا بمكانة المرأة فى ذلك العصر إلى مكان السمت المتميز، اعتمدوا على ما جاء بديوان العرب من أشعار، تبين كيف كانت المرأة هى الوتر الحساس فى قلب كل عربى، ومبعث كل الهام، حيث التزمت القصائد جميعها تقريبا نهجا يهيم بالمرأة ويمجدها، وما يلاحظ على المعلقات التى لا تخلو من الاشادة بالمرأة والتغزل فيها بل والفخر بها.

ويعود الاتجاه نفسه إلى المأثور العربى وما ورد من أخبار عرب الجاهلية فى المصادر الإسلامية، ليجد العربى حريصا على كرامة المرأة ويعتبرها موضع شرفه، حتى شنت من أجلها حروب، وأبرزها موقعة (ذى قار) التى انتصرت فيها ثلاث قبائل عربية متحالفة، على الفرس، بسبب رفض النعمان بن المنذر تزويج ابنته للملك الفارسى، كذلك حرب الفجار الثانية التى قامت بين قريش وهوازن تلبية لاستنجاد امرأة بآل عامر للذود عن شرفها، ولا ننسى حرب البسوس التى دامت اربعين عاما بسبب انتهاك جوار امرأة، وما قصة عمرو بن هند وعمرو بن كلثوم إلا أبرز مثل لأنفة العربى وحرصه على كرامة المرأة وعزتها.

وتروى كتب الاخبار وطبقات الشعراء كيف كانت المرأة تستشار فى عظائم الأمور، كما فى حادثة سعدى ام أوس الطائى، ناهيك عن مشاركتها للرجال فى ساحة القتال، تحثهم على المثابرة وشد أزرهم، وتداوى الجرحى وتدعو للأخذ بالثأر، فيستبسل الرجال مخافة سبى نسائهم، وقد كان لواء (الحارثية) فى شعر حسان بن ثابت وراء نصر قريش فى غزوة أحد على المسلمين، فعندما سقط لواء المكيين هرعت إليه (الحارثية) وسط الرماح والسيوف وحملته، فتجمعت حوله فلول المنهزمين، وظلت تهتف بهم حتى عادوا وحملوا على المسلمين حملة شديدة. ودور (هند بنت عتبة) فى ذات المعركة من أهم الأدوار فى تاريخ تلك الحروب، حيث أتت بنساء مكة وقيانها يشحذن الرجال، وينشدن الأناشيد الحماسية لتأجيج الحمية القتالية. وكانت (هند) من شاعرات العرب اللائى يصفن المعارك ويحسن تصوير الأبطال، واشتهرت أيضا (كفيلة بنت النضرى)، و(أروى بنت الحباب)، وبنت بدر بن هفان والهيفاء القضاعية ولامراء أن الخنساء ذهبت من بينهن بعمود الشعر رثاء وفخرا وحماسة وحربا.

ولا يغيب على فطن انتساب قبائل العرب إلى أمهاتها مثل بجيلة وخندف وطهية ومعاوية ونويرة، ويبدو أن الحرص على مكانة الأم كان وراء حرص العربى على كرم النسب وطهارة الرحم، وقد ذكر كتاب الأغانى فى حديثه عن حرب الفجار أن (مسعود الثقفى) ضرب على

زوجته (سبيعة بنت عبد شمس) خباء وقال لها: من دخله من قريش فهو آمن، فجعلت توصل في خبائها ليتسع.

وفي الأشعار تقدير عربي شديد للمرأة، فيخاطبها إذا كانت زوجة بأفضل الألقاب، فهو يقول لها:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا

واللقب، وتعبير (غير صاغرة) يشير إلى أي درجة من السمو كانت.

الشـــكل الآنـــي

أما أصحاب الاتجاه الآخر، فيستندون إلى ذات المعطيات وذات المادة التاريخية، ليعطونا صورة من أشد الصور بخسا بحق المرأة، فكانت تورث مع المتاع إذا توفي زوجها، ويرث الولد زوجة أبيه ويتصرف فيها حسب مشيئته، فبإمكانه أن يتزوجها، أو يزوجها لغيره ويأخذ مهرها، أو يعضلها حتى تموت، أي يمنعها من الزواج حتى تدفع فدية عن نفسها. فهي في منزلة بين الإنسان والأنعام، أو هي مثل متاع البيت متعة لصاحبه، وسميت متاعا بالفعل، مهمتها الاستيلاد والخدمة، وشاع الكثير عن بغض العرب للبنات، حتى سئل أعرابي: ما ولدك؟ قال: قليل خبيث، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا عدد أقل من الواحد، ولا أخبث من بنت.

وهذا (أبو حمزة العيني) يهجر زوجته إلى بيت مجاور بعد أن ولدت بنتا، حتى أمست تقول شعرا:

مـــا لأبـــي حمـــزة لا يأتينـــا يظـل فـي البيـت الـذي يلينـــا
غضـــبان ألا نلـــد البنينـــا تـاللــه مـا ذلـك فـي أيدينـــا
وإنمـــا نأخـــذ مـــا أعطينـــا ونحـــن كـالأرض لزارعينـــا

نتبـت مـا قـد زرعـوه فينـا

وغني عن التنبيه إلى أن تلك الرؤية المتقدمة للرجل كسبب في جنس الوليد، وأن المرأة مجرد أرض تقبل الجنس المزروع وتنبته.

هذا ناهيك عن ظاهرة الوأد كأبشع الظواهر طرا، وقد ذهب بعضهم إلى قصر الميراث على الولدان الذكور وقالوا؛ لا يرث إلا من يحمل السيف.

التحليـــل التاريخـــى

ومثل هذا التناقض فى المعطيات، ثم التناقض بالتبعية فى تقارير الباحثين حول وضع المرأة فى الجاهلية، لا يحله إلا رؤية تاريخية موضوعية، فقد عاش العرب فى قبائل متعددة موجودة جنبا إلى جنب فى زمن واحد، ولكن فى مناطق مختلفة، وهى تتداخل معا، ففى مكة جمع شكل المجتمع القبيلة إلى جوار الواقع الحضرى، وطريقة العيش ووسائل الكسب، من رعى وغزو إلى استقرار زراعى، إلى تجارة، أثرها الذى يجب أخذه فى الاعتبار عند مناقشة وضع المرأة فى الجاهلية، وهو موضوعنا التالى.

العامل الموضوعى ووضع المرأة

سبق وأشرنا إلى اختلاف آراء الباحثين فى وضع المرأة زمن الجاهلية، كما ألمحنا إلى أن ذلك الاختلاف ناتج من تعدد القبائل والاشكال المجتمعية على التجاور فى زمن واحد، فى مناطق مختلفة، كذلك تنوع الاقاليم وطرق الكسب التى تتباين، وما تبع ذلك بالضرورة من اختلاف فى وضع المرأة، ولا ريب أن دخول الشكل الطبقى أدى إلى ثراء قبائل ضاربة على طرق التجارة، مقارنة بقبائل ظلت على فقرها فى باطن الجزيرة، إضافة إلى التفاوت الطبقى داخل القبيلة الواحدة، وما ارتبط به ذلك التطور الاقتصادى فى تفجير الأطر القبلية فى المناطق التى اصابها ذلك التطور، فتغيرت بناها المجتمعية وسعت نحو نزوع وحدوى على مستوى الأرض والسماء، مما أدى إلى نشوء وعى قومى وحدوى، استشعرت فيه قبائل العرب بوحدة جنسها، وكان لكل تلك التطورات دورها فى اختلاف وضع المرأة، مما أدى لاختلاف رؤية الباحثين بدورها.

ظاهـــرة الـــوأد

يقول القرآن الكريم معقبا على ما آل إليه حال المرأة فى العصر الجاهلى، آمرا، ناهيا ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم﴾، وينبه (الدكتور على عبد الواحد وافى) هنا إلى أن الوأد الناتج عن الفقر لم يكن فيه تمييز بين الذكر والأنثى، فكانوا يئدون على الجملة، وهو رأى فيه نظر، حيث لم يثبت وأد الذكور على الاطلاق، حيث كانت البداوة ونمطها بحاجة دائمة إلى ذكور شغيلة محاربين، لكنه يطرح من جانب آخر وجهة نظر بشأن وأد الاناث، فيقول أنهم اعتقدوا أن البنت من خلق الشيطان، أو خلق إله غير إلههم، فوجب التخلص منها.

وفى التفسير الدينى نجد تفسيرا اقرب للمقبول عند الدكتور (على زيعور) حيث يقول: إنه كـان لونا من طقـوس التـقـرب لإله القـمـر (ود) رمـز الأنوثة فى رأيه، وإنـه كـان من بقـايا القرابين البشرية، التى درجت عليها الشعوب القديمة، قبل استبدالها بذبح الحيوان فداء للإنسان.

لكن ما يعنى الأمر هنا هو أن المطالع لكتبنا الاخبارية لن يجد ظاهرة الوأد أمرا متفشيا، كما هو شائع، بل كان علي العكس نادر الوقوع، ذكرت حالات بعدد قليل لا يرقى بالحالة إلى ظاهرة منتشرة، وقد عابة العرب وانكروه. وأشهر حالتين يتم ذكرهما حالة (قيس بن عاصم) وحالة (عمر بن الخطاب).

ولعل صدق الوحى والتنزيل هو الفيصل بشأن سبب الوأد، فى بعض مواضع وبعض قبائل الجزيرة، حيث أشار للوضع الاقتصادى وأثره فى تلك العادة، فالفقير بحاجة للولد المنتج، وليس بحاجة لأنثى فم يلتهم فى مجتمع ندرة على العموم، ثم كان حال القبائل المتحاربة يعرض الإناث للسبى والعار، وكان محتما أن تهزم القبيلة الفقيرة وتسبى بناتها، لقلة عتادها وخيلها.

والدليل على عدم تفشى الوأد، وأنه بالفعل كان ناتج الإملاق كما قال الوحى الصادق، أن علية القوم ومن تيسر معاشهم فتهذبت نفوسهم، استهجنوا ذلك بشدة، فكانوا يفتدون البنات من الوأد، واشتهر من بين أجواد العرب (صعصعة بن ناجية) جد (الفرزدق)، الذى أخذ على نفسه ألا يسمع بمؤودة إلا فداها، فسمى محيى الموءودات، وقال الفرزدق فيه:

وجدى الذى منع الوائدات   وأحيا الوئيد فلم يوأد

وتعبر حادثة (أم كحلة الأنصارية) عن كون السبب الاقتصادى وراء تعاسة المرأة كفم آكل غير منتج فى وسط فقر وندرة، حيث ذهبت إلى رسول صلى الله عليه وسلم تقول: يا رسول الله توفى زوجى وتركنى وابنته فلم نورث، فقال عم ابنتها قولة فيها صدق الحال؛ قال: يارسول الله هى لا تركب فرسا ولا تحمل كلا ولا تنكى عدواً، يكسب عليها ولا تكسب.

وهناك سبب آخر أدى إلى حالة واحدة أخرى من حالات الوأد النادرة، ويتعلق بالظاهرة فى قبيلة تميم، حيث كانت تميم قد امتنعت عن أداء الإتاوة للنعمان ملك الحيرة، فجرد عليهم حملة سبت نساءهم، فكلموا النعمان فى نسائهم، فحكم بترك حرية النساء فى الاختيار لقرار

النساء أنفسهن، فاختلفن فى الاختيار ما بين البقاء فى حوزة من سباهم وبين العودة لذويهم، وكانت فيهم بنت (قيس بن عاصم)، وهى الحالة النادرة المشار إليها، فاختارت سابيها على زوجها، فنذر (قيس) أن يدس كل بنت تولد له فى التراب، وافتدى به بعض تميم نكاية فى النساء.

الوضـــع الطبقـــى

كان نشوء الطبقة عاملا أساسيا فى تحديد وضع المرأة، فكان هناك الإماء، والحرائر، وكانت الحرائر تتمتع بمنزلة سامية، يخترن أزواجهن، ويتركهن إذا اساءوا معاملتهن، ويحمين من يستجير بهن، وكن موضع فخر الازواج والابناء، بعكس الإماء الذين كان الأبناء يستحيون من ذكر امهاتهم.

علا شأن المرأة فى الوسط الثرى، خاصة إذا تمتعت هى بالثراء، فكانت تختار زوجها كما حدث من السيدة خديجة أم المؤمنين وكانت إحدى ثريات مكة المعدودات، عندما خطبت لنفسها الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان آخرون يفخرون بنسب أنفسهم إلى أمهاتهم.

وكما سبق وأشرنا فقد ارتبط ذلك التطور الاجتماعى ونشوء الطبقة بنزوع قومى واضح، كانت المرأة طرفا فى جدله التاريخى، حيث كانت امرأة سببا فى حرب العرب والفرس فى ذى قار، والفرح الاحتفالى الهائل فى الجزيرة بالنصر العربى، أما النزوع القومى وشعور قبائل العرب بأنهم جنس له نوعيته وخصوصيته، فقد دفعهم إلى عدم تزويج بناتهم من اعاجم مهما بلغ الاعجمى من مراتب الشرف والسؤدد والمال.

الحـــب والـــزواج

يبدو أنه رغم ما نسمع عن قيود وأعراف عربية، وضعها المجتمع على علاقة الشاب بالفتاة، فإننا نسمع ايضا مع نشوء الطبقة الثرية عن مجالس سمر تعقد فى أفنية الدور، ويجتمع فيها الشباب والشابات حيث تضرب الدفوف ويرقص الحداءون ويلقى الشعر، خاصة فى آخر سنوات الجاهلية الاخيرة.

وكان الشاب منذ بلوغه يبدأ التشبيب بالنساء ويلاحقهن، وكان ذلك إحدى علامات

الرجولة والفخر، ولأن الشعر كان اغنية العربى وفصاحته، فقد كان كل شاعر يبدأ شعره بالغزل، إلا أن الشعر النسوى كان يخلو تقريبا من ذلك الغزل، حيث كان بوح المرأة بمشاعرها لونا من خلق الحياء التقليدى بين العرب.

اختيــار الـزوج

وإذا تأخرت خطبة الفتاة، التى عادة ما كانت تتزوج فى سن مبكرة (حوالى الثانية عشرة)، فإنها كانت تلجأ إلى طلب الرجل، فتنشر شعرها، تكحل واحدة من عينيها، وتسير تحجل فى الشارع ليلا تنادى: **يا لكاح، أبغي النكاح، قبل الصباح.**

وهو أمر يشير إلى أن العرب وان درجوا على عادة اختيار الفتى لفتاته، فإن العكس كان حادثا، وتشير الاحداث إلى أن المرأة كانت حرة فى اختيار زوجها، بخاصة إذا كانت من علية القوم، فهذه (هند بنت عتبة) تقول لأبيها: أنى امرأة ملكت أمرى، فلا تزوجنى رجلا حتى تعرضه على، فقال لها وذلك لك.

وتقول المصادر ان حق ابن العم فى ابنة عمه كان عرفا مقدما ومسنونا، إلا أن العرب بعد ذلك صارت تدرج على التزواج من خارج القبيلة، ويقول الباحثون ان كان ناتج ملاحظة ان زواج الأقارب يأتى بالضاوين (الضعفاء والمشوهين)، فصارت لهم فى ذلك امثال مضروبة، من قبيلها: لا تتزوجوا من القريبة فيأتى الولد ضاويا، والزواج من البعداء انجب للولد وابهى للخلقة وأحفظ لقوة النسل، ولا تتزوجوا فى حيكم فإنه يؤدى إلى قبيح البغض، والنزائع لا القرائب.

زواج الغـريب

ويبدو لنا أن الزواج من قبائل أخرى، كان مرحلة متطورة تساوقت مع التطور اللاحق، الذى دفع بأفراد القبائل للخروج عن الحالة القبلية الأولى، ونظام التحالفات الذى كان إرهاصا بالقومية والتوحد، سعيا وراء توفير ممكنات إقامة أحلاف قبلية كبرى قوية. وأبرز الأمثلة على ذلك عندما بلغ الصراع ذروته بين كتلتى هاشم وأمية فى مكة، وبدأ كل من البطنين يعقد تحالفاته الكبرى ضد الآخر، وكيف وهى السياسة التى اختطها هاشم بنفسه، وتبعه فيها بنوه من بعده.

لكن ذلك لم يمنع استمرار الزواج من داخل القبيلة بالطبع وكان للطبقة والفقر والغنى دوره في ذلك، فكانت الفتاة في الطبقات الأدنى تفضل زواج الاقارب لأنهم اكثر معرفة بشئونها من الغرباء، وأحرص على ستر عيوبها وسلامتها، وفي حكاية (عشمة البجلية) ما يشير إلى هذا المعنى، فقد نصحت شقيقتها (خود) عندما جاءها خطاب أغراب حسان، بقولها: تزوجي في قومك ولا تغرك الأجسام، فشر الغريبة يعلن، وخيرها يدفن، ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل؟!.

الطـــــلاق

معلوم أن الطلاق كان بيد الرجل، وكانوا يطلقون ثلاثا على التفرقة فإذا تمت امتنعت العودة، لكن أيضا كان من حق المرأة الثرية - ويشار إليها بالشريفة لمالها - حق الطلاق، وقد أشار أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه إلى ذلك في حديثه عن نساء الجاهلية يطلقن الرجال، وبلغ الأمر حدا لا يجبر فيه المرأة على المصارحة بالطلاق، بل كان يكفيها أن تحول باب خيمتها من الشرق إلى الغرب فيفهم الرجل أنه قد طلق من امرأته.

(إلى هنا انقطع الموضوع المنشور في مجلة نزوى وقد أوردناه كما نشرته المجلة لفقدنا الأصل).



متى ظهر العرب فى التاريخ؟

متى ظهر العرب فى تاريخ المنطقة؟ السؤال الذى حاول الباحثون تقديم إجابة واضحة بشأنه، استناداً للوثائق التاريخية والأركيولوجية، وإلى الدراسات المهتمة بتاريخ الأجناس والجغرافيا البشرية.

وقد انتهت مدرسة الألمانى (نولدكة) بهذا الشأن، إلى أن المفردة (عرب) ترادف فى معناها الصحراء (آرابيا ARABIA)، أو بمعنى آخر، أنها لم تكن تعنى أكثر من البداوة والفقر والجفاف. أقوام متشرذمة تتناثر على امتداد بوادى جزيرة العرب حتى بادية الشام وسيناء شمالا وغربا، وأنها إطلاقا لم تكن تعنى ما نفهمه اليوم من معنى الجنس أو القومية. بل أن هؤلاء الأعراب لم يكن بينهم هم أنفسهم أى حس بأنهم جنس واحد أو ذوى أصول واحدة، بل كانوا يأكلون بعضهم بعضا بالحروب والغارات القبلية التى لا تهدأ.

ورغم أن هناك يقين غير واضح، بأن للعرب وجوداً وأصولاً موغلة فى القدم، فإن ما ورد عنهم من إشارات مكتوبة، قليل ومبعثر، ولا يرقى لأبعد من الألف الأولى قبل الميلاد. كما أن تعبير (الساميين) الذى يلتبس تارة بالعرب وطوراً ببنى إسرائيل، لا يشير إلى حقيقة بشرية، قدر ما يشير إلى مجموعة لغات متشابهة، يفترض أنها تعود إلى لغة أم أولى.

ولعل أقدم الإشارات المكتوبة إلى العرب - كما هو معلوم لدى الباحثين - هى تلك التى جاءت فى نقوش أشورية، حوالى عام ٨٥٣ قبل الميلاد، وحدثتنا عن جماعات من البدو دمرتها القوات الأشورية، وأن تلك الجماعات كانت تستقر فى بادية الشام، ودومة الجندل، وتيماء، وقد أطلقت النصوص الأشورية على هؤلاء لفظة اختلف تنغيمها نطقا فى الترجمة ما بين : عريبى، وعريا، وعربى، وعربو. أما بلادهم فيبدو أنها تلك التى ذكرت فى ذات النصوص باسم (عربايا)، كما أشارت إلى ملوك وملكات فى محيط (دومة الجندل) وإلى كيانات قبلية تمتهن التجارة، . يرجح أنهم كانوا بدورهم عربانا، وربما كانت عبارة (ماتو-

(*) لم يسبق نشره.

أربى) الواردة فى الكتابات البابلية كانت تعنى: أرض العرب، لكن من المؤكد أن لفظة (أربايا) الواردة فى كتابة (دارا الأكبر الأخمينى) تعنى: العرب.

العرب فى نصوص الرافدين

وهكذا اتفق الرأى على أن أول إشارة مدونة فى التاريخ إلى العرب، تلك التى جاءت فى نصوص العاهل الأشورى (شلمناصر الثالث)، والتى تحدثت عن معركة (قرقر) التى وقعت عام ٨٥٣ قبل الميلاد، وتمت فيها هزيمة حلف لمجموعة من القبائل، تزعمها شخص باسم (جندبو) أو (جندب العربى)، وأن تلك القبائل كانت تقاتل راكبة الجمال، وأن عدد الجمال العربية فى تلك المعركة قد تجاوز الألف جمل، وهو ما يشير إلى حلف كبير، كما يشير إلى لون من التآلف بين قبائل العرب، ربما اقتصر على ذلك الطارىء المؤقت، ولم يرق إلى الإحساس القومى بالتوحد الجنسى،

وقد أشارت تلك النصوص الرافدية، المدونة فى القرن التاسع قبل الميلاد، إلى ملكات عربيات، فقد وردت فى نص من عهد (تجلات بلاصر) سنة ٧٧٨ قبل الميلاد، رواية عن قدوم ملكة العرب (زبيبة) تحمل الجزية، ونظنها تلك التى وردت فى أخبار المأثور العربى باسم (الزباء)، وخلطوا بينها وبين (زنوبيا) ملكة تدمر. كذلك ترك لنا الملك (سرجون الثانى) نصا يقول فيه أنه قد هزم جيوش (شمسى) التى وصفها بأنها (ملكة العرب) حوالى سنة ٧٣٢ قبل الميلاد، وأنه قد تسلم الجزية من ملك سبأ (يث ـ عمر) حوالى سنة ٧١٦ قبل الميلاد، إضافة إلى دحره جماعات من (ثمود) و(العبابيد) و(المرسمانى) و(عفه) الذين وصفهم بأنهم «العرب بعيدو الديار».

وفى نص للملك الآشورى (سنحاريب) نفهم أنه قد أسر شقيقا لملكة عربية أسمها (ياطيعا)، ثم هاجم معسكراً لملكة عربية أخرى اسمها (ت. علخونة)، حوالى عام ٦٩١ قبل الميلاد، أما الملك الأشورى (أسرحدون) فقد ترك وثيقة تشير إلى فرضه الجزية على ملك دومة الجندل المدعو (خزعل) سنة ٦٧٦ قبل الميلاد.

وفى كتابات العاهل الآشورى الشهير (آشوربانى بعل/يُكتب خطأ بانيبالى) سنة ٦٤٩ قبل الميلاد، إشارة واضحة إلى معركة وقعت مع عرب يعرفون باسم عرب (قيدار)، ثم نعلم أن هؤلاء العرب قد تغلغلوا داخل الأردن مما اضطر (نبوخذ نصر) العاهل الكلدانى إلى

مهاجمتهم عام ٥٩٩ قبل الميلاد، ويبدو أن شأن هؤلاء العرب كان قد تضخم إلى الحد الذى اضطر الملك الرافدى الأشهر (نابونيد) إلى نقل عاصمته جنوبا ليقيمها فى واحة تيماء، ليواجه من هناك تلك الهجمات، وليبسط هيمنته على (ددان. العلا حاليا شمالى السعودية) وعلى فدك وخيبر ويثرب، وهو ما يوضح مصدر تلك الهجمات العربية.

العرب فى التوراة

أما التوراة، كوثيقة تاريخية، فقد سجلت للعرب وجوداً تاريخيا واضحا، وذلك حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، عندما أرفقت ذكرهم بذكر مؤسس دولة إسرائيل (الملك سليمان)، وذلك فى سفر أخبار الملوك الثانى القائل: «وكل ملوك العرب، وولاة الأرض، كانوا يأتون بذهب وفضة إلى سليمان»، وهو ما يشير إلى أن للعرب فى ذلك الزمان ممالك تدفع الجزية لسليمان ملك إسرائيل.

وبعدها يتواتر ذكر العرب فى نصوص التوراة بذات السفر، فى حكايته عن الملك اليهودى (يهو شافاط) حيث يقول: «وبعض الفلسطينيين أتو يهوه شافاط بهدايا وحمل فضة والعربان أتوه أيضا بغنم من الكباش». وفى زمن الملك (يهورام) يهاجم العرب مملكة يهوذا بذات السفر حيث يقول: «والعرب الذين بجانب الكوشيين، صعدوا على يهوذا وسلبوا كل الأموال الموجودة فى بيت الملك، مع بنيه ونسائه».

ومن ثم تتصاعد نغمة العداء التوراتية ضد العرب، فتحكى التوراة عن عودة اليهود من سبى بابل لبناء الهيكل الخرب مرة أخرى، وكيف كان العرب يهزأون مما يفعلون، وذلك فى سفر نحميا وهو يقول: «ولما سمع سنبلط الحورونى وطوبيا العبد العمونى، وجشم (نظن صحيحها جاسم) العربى، هزأوا بناو احتقرونا»، ومن ثم نجد فى أمنيات النبى (أشعيا) فناء كاملا للعرب، فى قوله: «وحى من جهة بلاد العرب، فى الوعر بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين (يقصد قوافل تجارة ددان وهى العلا حاليا) .. يا سكان أرض تيماء.. إنهم أمام السيوف قد هربوا.. يفنى كل مجد قيدار». أما النبى (إرميا) فيقدم ذات الأمانى فى نبوءته «هكذا قال الرب: قوموا واصعدوا إلى قيدار، أخرجوا كل بنى المشرق»، ومعلوم أن (قيدار) اسم لقبيلة عربية كبرى آنذاك، أما اصطلاح بنى المشرق فهو يعنى العرب بالمعنى الواسع، وقد تأكد صدق وجود قبيلة باسم (قيدار)، على الأقل فى إشارة تاريخية لنص (آشور بانى بعل)

سالف الذكر، وأنه جرد حملات عليها لأنها ساعدت أخاه المتمرد، وأنه دمر (أبى عاطى) زعيم قبيلة قيدار، وغنم منهم جمالا كثيرة.

العرب فى النصوص اليونانية والرومانية

تعد إشارة (إسخيليوس/ ٥٢٥ـ٤٥٦/ قبل الميلاد) أقدم إشارة يونانية لجزيرة العرب، بحسبانها موطنا للخيول العربية الممتازة، لكن الكتابات الهوميرية بحسبانها أشهر الكتابات اليونانية، لا تأت على ذكر العرب إطلاقا، رغم تعدادها لشعوب وقبائل الشرق القديم، ومعلوم أن كتابات (إسخيليوس) جاءت بعد (هوميرس) بما يزيد عن ثلاثة قرون، لكن ما أن يأتى عام ٤٨٤ قبل الميلاد، حتى نجد فى حديث (هيرودت) المعروف بأبى التاريخ، الحديث الكثير عن العرب ومناطق العرب، مما يشير إلى أن العرب قد أصبحوا حقيقة مستقرة فى المنطقة، حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، وأنه كان لهم معالمهم الجغرافية المميزة، مثل خليج العرب (خليج السويس حاليا) مما يعنى أنهم قد استوطنوا سيناء، كذلك كانت العرب الجنوبية (اليمنية) معلومة الأمر تماما فى ذلك القرن. وما أن يأتى القرن الثانى قبل الميلاد، حتى نجد الحديث عند (أراتوستين) عن أربع ممالك عربية مستقلة فى جنوب الجزيرة، هى: معين وسبأ وقتبان وحضرموت، وهو التقسيم الذى أثبتته الحفائر والكشوف الأركيولوجية الحديثة فى اليمن.

أما الرومان، فقد قسموا جزيرة العرب قسمين: العربية الصخرية (أرابيا بترا) وهى شمالى الجزيرة وشبه جزيرة سيناء، والعربية السعيدة (أرابيا فيلكس) وهى بلاد اليمن أو جنوبى الجزيرة، وذلك بعد معرفتهم الجغرافية لشئونها، مع حملة (آليوس جالوس) على الجزيرة، والتى أثبتت فشلها الذريع فى احتلال تلك الفيافى.

البحـــر الحمـــيرى

ومنذ القرن الأول قبل الميلاد، نجد النصوص اليونانية تشير إلى وجود مملكة مزدوجة فى جنوبى الجزيرة، هى مملكة (سبأ وحمير)، وأطلقت تلك النصوص على سكان تلك المملكة اسم (الهومريين) الذى يجب نطقة (الحميريين). ويبدو أن اسم البحر (الأحمر) قد اكتسب اسمه من اسم (حمير) قبل سقوطها فى القرن الأول قبل الميلاد، بعد أن كان اسمه البحر الأرتيرى كما سبق وأسماه (هيرودت)، لكن المثير فى الأمر أن تسميته بالبحر (الأرتيرى) نسبة إلى

وقوع (أرتيريا) على مضيقه الجنوبى فى المندب، يعنى ذات المعنى، لأن (أرتيريا) نفسها كانت جزءا من مملكة سبأ، واسمها باليونانية يعنى (الحمراء)، ولتقارن مع (حمير) والبحر (الأحمر)، وهو الأمر الذى يدفع لمراجعة العلاقة التى تربط بين تلك المملكة العربية الجنوبية، وبين سكان ساحل المتوسط الشرقى (الفينيقيين)، حيث تعنى كلمة فينيقى بدورها (الأحمر)، وتلك المراجعة مطلوبة فى ضوء النص الفينيقى المكتشف، الذى يؤكد أنهم جاءوا إلى ساحل البحر المتوسط الشرقى، قادمين من (البحر الجنوبى) وهو الأحمر، وهو الأمر الذى قد ينتهى إلى القول: إن حضارات الجنوب كانت هى الأصل والدافع للحضارة الكبرى التى قامت بعد ذلك على ساحل المتوسط الشرقى. لكن ستكون العقبة هنا: كيف ذلك، بينما أبعد نصوص تحدثت عن وجود للعرب، لا ترقى لأبعد من ألف سنة قبل الميلاد، بينما نعلم أن الفينيقيين قد ظهروا على صفحة التاريخ قبل ذلك التاريخ بأكثر من ألف عام أخرى؟ سؤال يجيب عليه الفراعنة.

العرب فى الهيروغليفية

وهذا حقا ما فاجأتنى به ترجمة جديدة تماما للمفكر الليبى (الدكتور على فهمى خشيم)، لكلمة الشرق فى المصرية القديمة (إ أب ت)، حيث كان المصرى يحدد الجهات الأصلية بالتوجه جنوبا نحو منابع النيل، ليصبح الشرق فى يساره، لتعنى الكلمة (إ أب ت) اليسار والشرق معا، كما تشير إلى الريح الشرقية، وأى مشتقات ترتبط بالشرق، وجذرها (إ أب) يعنى الشرق، وفى قراءة الرجل للكلمة نجد الهمزة الأولى مبدلة من العين (أ = ع)، وذلك كما فى المصرية (ك أب) = كعب، و (إن ق) = عنق.. الخ، ومعروف أن العربية تبدل العين همزة كما فى (الأربان = العربان/ أنظر لسان العرب)، أما الهمزة الثانية فى (إ أب) فهى مبدلة من الراء، ونموذجا لذلك خمسين مثالا قدمهم المصرولوجى (أمبير) مثل (ب أ ك) المصرية = برك، و (ش أ ع) = شرع، و (ج أم) = جرم، وعليه فإن الهمزة الأولى فى (إ أب) تصبح (ع) والهمزة الثانية تصبح راء، بينما الياء أصيلة، أى أن (إ أب) هى بالضبط (عرب)، و (إ أب ت) هى عربت مؤنث عرب أو بلفظ العرب (عربة)، أى بلاد العرب، أى جزيرة العرب، وهى الكلمة المصرية التى صارت تدل على الشرق عموما، مما يعنى أن مصر القديمة قد عرفت بلاد العرب باسمها وأنها كانت تعرف سكانها باسم العرب، وإذا كان الشرق فى اللسان المصرى القديم يعرف بأنه (عرب) وسكانه (العرب)، فهو الأمر الذى يعنى

وجوداً لقبائل حملت ذلك الإسم وعاشت شرقى مصر، وأن الاسم قديم قدم من أطلقه عليهم، وأنه من المحتمل الآن البحث عن أصول الفينيقيين الحمر، فى حضارة الجنوب اليمنى الأحمر الحميرى، لكن ما يجب التأكيد عليه هنا أنه رغم كل الاحتمالات التى تشير إلى قدم العرب فى التاريخ، وأنهم أقاموا ممالك فى بعض الأحيان، فإنهم لم يشعروا يوما بوحدة جنسهم، وهو ما تشير إليه تلك الكتابات القديمة، التى كانت دوما تتحدث عن القبيلة الفلانية ثم تصفها بأنها عربية، مما يعنى أنها فقط بدوية أو صحراوية، باعتبارها كانت مملكة، ونحن نعلم يقينا وفق الدراسة العلمية المدققة أن الحس العربى بمعنى القومية أو الجنس الواحد، لم يظهر إلا قبل الإسلام بزمن وجيز، بفعل مجموعة من الظروف الموضوعية أدت إليه، ولم تحمل كلمة العرب مدلولها الجنسى والقومى المعروف، مع سيطرة لغة واحدة، إلا مع الإسلام، الذى نمى الحس القومى لدى سكان الجزيرة، ليشعروا لأول مرة فى تاريخهم أن لهم كيان واحد هو الكيان العربى، وحينها ابتدعوا فكرة (يعرب) جد العرب البعيد، الذى يجمعهم ويوحد أصولهم فى تاريخ لم يعرف هذا الاجتماع من قبل، وربما كان (يعرب) هذا هو الصياغة العربية (بالقلب) للإسم المذكور فى التوراة بصيغة (عابر).

رب الزمـــــــان

منذ مـا يزيد على خـمسـة آلاف عـام، عندما كان الفكر الإنسانى لم يزل فى بداياته، كان العـراق فـى قـمـة الابداع الحـضـارى، حـيث نشـأت أول حـضـارة إنسـانيـة على ضـفـاف دجلة والفرات.

وفى جنوب وادى الرافدين، كـان هناك الشعب السومرى الذى لا تقل حضارته عن أية حـضـارة أخرى عـاصـرته فـفى هذا السـهل الغرينى الخصب، أبدع الحكمـاء السومـريون أدباً وفكراً يتناسبان مع درجة ارتقاء الإنسان فى تلك الازمان.

تطلع الفكر هناك حـوله مسـتكشفاً ظواهر طبـيعة الكون مفسراً وقارئاً ومبدعـاً، فى كيان الوجود المحيط، به فترك عدداً غفيراً من الآلهة، تـعددت بتعدد الظواهر النافعة والضارة فى الطبيعة ومن تلك الآلهة الإله (آن) إله السماء.

(آن) رب السماء

تعنـى كلمـة (آن) السـمـاء المنظـورة ذاتـهـا فـى بـدء الأمـر، وكـانت السـمـاء فى رؤيتـهم سـقـفا مـحـفوظا يعلوهم، ثم تحـولت بالتـدريج إلى علم ورمـز على الالوهيـة عـمومـا، فعادلت الكلمـة (آن) - بمعنـى من المعانـى - لفظـا جـلاليـا أو اسـمـا للجـلالة، تدل على ألوهيـة أى مسمى إلهى، كما حملت الكلمة (آن) معنى السيادة والرفعة، باعتبار هذا الإله هو سيد الآلهة جميعاً.

ويقول آثارى السومـريات المعروف (صـموئيل كريمر): إن الاسبـاب التى أدت إلى سيادة (آن) على مجموعة الآلهة السومرية، لم تزل وفصولها أسباباً غير معروفة. لكننا يمكن أن نتـصـور وببـساطة، أن رؤية السـومرى للسماء بفـسحـتـهـا واتساعـهـا، وتعـدد الألوان والأجـرام والظواهر فيها، مع ضخامة هذه الظواهر، وجسامتها هذه، روحاً تحيط الأرض، وتغطيها لها

(*) نشر فى مارس ١٩٨٩، بمجلة آفاق عربية، بغداد.

من جميع الجوانب، كل ذلك كان كفيلا بإجلالها، بما يلائم عظمتها، مقابل ضيق المساحات المرئية أمامه بشكل مباشر على الأرض، التي مهما بلغت مظاهرها هولاً وغرابة، فإنها لا ترقى أبدا إلى درجة الظواهر السماوية، مع الأخذ بالحسبان، عدم التماس المباشر بينه وبين السماء، مما جعلها مجهولاً دائماً، يقع في نفسه موقع الجليل بما له من رهبة ورغبة وتقديس، فكان أن تصور السماء أعظم الآلهة طرا، وأبا أولا دائم الاقتدار، بتواصل وديمومة يخصب الأم الكبرى الأرض، وهو يحتضنها باستمرار، ليلقى ماء الحياة فيها.

واستطاع العرب أو الساميون أن يشيدوا بلاد الرافدين بعد أن أصبحوا سادة البلاد، وأسسوا هناك دولاً كبرى نتذكرها عندما نتذكر (الأكاديين، والبابليين، والآشوريين، والكلدانيين). إن الإله (آن) لم يقم بإبداع الوجود دفعة واحدة فيكون قد فعل فعلا واحداً شاملا وانتهى الامر، إنما كان إبداعه زواجاً مستمرا من الأم الأرض، عن طريق مطره الدائم ورعايته من عليائه باستمرار لأولاده من الكائنات الأرضية (إنسان ونبات وحيوان وكيانات أخرى)، وبذلك كان فعله مستمرا، وعليه فهو لم يفعل مرة واحدة إنما يفعل باستمرار، وبما هذا الفعل هو فعل (آن) الدائم، فهو (فعل + آن) أو (فعلان)، تلك التفعيلة التي دخلت كل اللغات السامية لتدل على الفعل المستمر والحضور في جميع الأزمنة. فهو فعل بدأ في الماضي، لكنه مستمر الحضور والعمل، وباعتبار (آن) اقدم الآلهة طرا، فقد اكتسب صفة الأزلية ولأن السماء منفصلة عن الوقائع الأرضية، التي تتعرض للدمار والفساد باستمرار، فقد بات واضحاً لعيني السومري أن الإله (آن) دائم الحضور دون فساد أو فناء، ومن هنا اكتسب صفة الأبدية، ومن ثم تحول إلى مفهوم، فأصبح هو الديمومة أو الزمان.

ولو توقفنا مع العربية، كفرع من اللغات السامية، وحللنا كلمة (الزمان)، سنكتشف عددا لا بأس به من الكشوف، وأول ما سنلاحظه في كلمة الزمان أنها على وزن التفعيلة (فعلان)، كما أنها تشير إلى جزئيات الزمن المتراصة المتلاحقة المتلاصقة في كلمة (زمان)، وأعني أن الزمان هو مجموعة من اللحظات أو من الآنات (آن وآن وآن هكذا...) أي مجموعة من اللحظات الحالية أو الراهنة أو الآنية (الآن)، مضت منها (آنات)، ونحضر منها الآن (آنات)، ومنها آنات لم تأت بعد، فالزمان هو مجموع آنات الوجود، وبضم هذه الآنات إلى بعضها البعض، أو لمّها، أو جمعها، أو زمّها تصبح هي زم الآنات أو (زم آن) أو (زمان) أو الزمان، الذي كان قديماً هو الإله (آن) رب السماوات.

(آن) رب المكان

ونعود مرة أخرى للساميين، فنجدهم يستبعدون الكلمة السومرية (إى E) ويستبدلونها بمقابل السامى (بيت Bit)، وبيت بالتحديد تعنى معناها فى عربيّتنا (البيت)، لكنه كان يطلق فقط على المعابد فاختص بالكلمة (بيت) بيوت الآلهة، أما باقى الامكنة على الأرض، فحظيت بأسم آخر، تأخذه من فرع أخر باللغات السامية، أقصد الكنعانية، التى أُطلقت على بيوت آلهة أدنى قليلاً من (آن)، هى الكلمة (بكْ)، وهى موجودة كمثال فى اللفظة الكنعانية (بعلبك)، وهى معبد قديم للإله (بعل) لم يزل قائماً للآن فى لبنان، والإله بعل يعنى (السيد) أو (الرب)، وهورب الأمطار والخضرة، ورب الطبيعة المروية بفعله هو، وليس بمساعدة إنسانية (بالساقية أو الشادوف) وظل (بعل) حيا فى لغاتنا حتى الآن ويحمل المعنى نفسه. وبعل المرأة سيدها وزوجها ورب بيتها، كما لم يزل حيا فى أذواقنا، حين نفضل أكل النبات المروى طبيعياً، النبات البعلى (الفول البعلى مثلا)، ونفضله على (الفول المسقاوى) الذى يدخل فى سقايته الفعل البشرى.

ولما كان الإنسان القديم، يشكل فى التاريخ مرحلة الطفولة البشرية، فإنه كثيراً ما كان لسانه يلكن لكنة أطفال اليوم، وكثيراً ما خلط بين الباء والميم، وهكذا لم يكن هناك بأس من أن يصبح بيت الاله (مكْ) بدلا من (بكْ)، فجاز نطق المعبد المذكور: بعلبك، ومعلبك، ومعلمك!! ومن هنا استساغ (جورجى زيدان) فى مبحث لغوى، أن يستنتج: أن كلمة مكة من (مك) وتعنى بيت الله فى اللسان القديم، وقد نؤيده إلى حد ما، باعتبار ما نعلمه عن أقرب اللغات السامية إلى الفرع الشمالى العدنانى، هو اللسان الكنعانى، صاحب الكلمة (بك)، مع أخذنا بالحسبان ما جاء فى القرآن الكريم عن مكة أنها أيضا بكة، فى قوله تعالى: ﴿ان أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا﴾.

ولمّا كانت الكلمة: إى، أو بيت، أوبك، أومك، تعنى بالتحديد والدقة مقرّاً، أو محتوى، أو مسكناً، أو ملكاً (من الامتلاك)، فهمنا من ذلك أن أى مكان أرضى هو ملك للإله المحلى له، لكن على المستوى الأعظم الذى يليق بجلال أعظم الآلهة وسيد الكون (آن)، فإن كل البيوت أو الأمكنة هى بيت وملك ومحل لسكنى الاله الذى تحيط بسماواته كل الأمكنة، (آن) سيد الآلهة، وعليه فالكلمة (مك) إنما هى التى أصبحت بعد ذلك تفصيلا (ملكا)، بإضافة اللام فى العربية الشمالية، وأصبحت جميع الأماكن هى ملكاً للاله (آن)، فالأرض له ومن عليها، وجميع الـ (مك) للاله (آن) أو ملك آن، فالمكان اذن أيضاً كله لـ (آن) وملكه الدائم.

وهكذا نكتشف أن المكان بدوره كالزمان، ينسب للإله الاعظم، رب السماوات ورب الزمان ورب المكان، (آن).

من (آن) إلى (فعلان)

ولو أخذنا بما جاء عند فلاسفة الابستمولوجى Apstomology (نظرية المعرفة)، وبما عند المناطقة الوضعيين .Logical Positvism، وطبقناه على ما بين أيدينا الآن، لاكتشفنا أن التفعيلة كنوع من التصريف للفعل، هى مرحلة أرقى وأكثر تطوراً فى الفكر البشرى من الفعل ذاته، فقد جاء الفعل أولا، ثم وبعد مرور سنين طوال اكتشفت التفعيلة، بعد الفعل بالحركة، واكتشاف مفهوم الزمان، مرحلة أكثر رقياً، لأنه يرتبط بدوره بخبرة الإنسان بالحركة، فلو قلنا فيم نستخدم الزمن! فالاجابة هى أنه معيار ومقياس للحركة فالأرض تدور (تتحرك) حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة، وحول الشمس مرة كل ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع، وأنا أتحرك من منزلى إلى عملى، فأستغرق ساعة ... الخ، فالزمان مقياس للحركة، وما كان ممكناً أن ينشأ هذا المفهوم عن الزمان، لولا الخبرة الواقعية الحسية أولا بالحركة، وبأعتبار السماء مصدراً لديمومة الحركة، فى نظر الإنسان القديم (مثل حركة الشمس والقمر والكواكب والسحب ... الخ)، فقد ربطها الإنسان دائماً بكل ما يحدث من حركات، حتى الحركات الإنسانية، بل ربطها بالزمان المستقبلى فقرأ مستقبله وحركاته المقبلة من خلال عملية تفسير لما يريده (آن) بتحريك كواكبه ونجومه، فيما يسمى علم التنجيم، ثم ربط ذلك كله بديمومة وجود السماء وسكون الغطاء السماوى الأزرق، فنتج لديه مفهوم الاله الساكن الأبدى المستمر، بوصفه زماناً لا ينقطع، لكنه يؤثر فى جميع الحركات، بل هو المحرك الأول الدائم، عبر تأثير جنوده من النجوم على الحركات الأرضية، ومن ثم اعتبر القدماء أن النجوم هى جنود للاله، أصبحت مع التطور ملائكة له، تقوم نيابة عنه فعل الحركة بينما يظل هو ساكناً، يحرك ولايتحرك، يغير ولا يتغير، لكنه مستمر الفعل أو فعلان.

فى اللغة العربية، كفرع من اللغات السامية، ترك (آن) أثره كحفرية دائمة الحضور فى التفعيلة (فعلان)، كحفريات كائنات الطبيعة التى نجدها فى الصخور، فيدلنا وجودها بأعتبارها أثرا من الماضى، على هوية هذا الماضى. ويسمى العلم الذى يهتم بحفريات الطبيعة (جيولوجيا)، بينما العلم الذى يهتم بآثار الإنسان وما تركه من تراث وحضارة (علم

الاركيولوجى)، أما الأسلوب الذى نتبعه الآن فى بحثنا القصير هذا، فهو ما يدخل تحت ما يسمى علم آركيولوجيا اللغة، فى اطار من علم (الميثولوجى) أو دراسة الاساطير.

ولو تناولنا بعض الكلمات فى لغتنا لنتعامل معها أركيولوجيا، وفق ما عرفناه، عن (آن)، سنجد عدداً من الأمثلة التى لا يحصيها الحصر، فحرف الميم (م)، عندما نبحث جذوره اللغوية، نجده يدل على الضم والزم واللم والتلاحق والاحساس الشديد بالشيء، وعادة ما يكون مشدداً (مّ) كما فى (ضّم)، (هّم) أى استعدت أحاسيسه لتحريكه لأمر شديد القرب لدرجة التلاصق، و(شمّ) دلالة الاحساس الشديد بالشيء، و(جمّ) للدلالة على الكثرة المتلاصقة المضمومة لبعضها، و (عمّ) بمعنى اشتمل وغطى.. الخ.

والميم أصلا حرف يعود إلى علاقة قديمة، بعبادة قديمة، هى عبادة الأم الأولى أو الأم الكبرى، المتميزة بالحنو الشديد، وبأنها مصدر للأمن والأمان لعبادها وقد حظيت فى مختلف اللغات السامية بأسماء مثل: ماما ومامى mami وأمّا Ama وماه Mah، وهى كلها معبودات أنثوية قديمة. تشتمل ميم الأمومة فى أسمائها، وفى أسماء المعبودات من أمهات الآلهة فى الأسر الثالوثية المعبودة، نجد (م) الأمومة والضم والحنو أساسا فى تركيب أسماء هذه الإلهات، التى تدخل معها كضلع فى أسرة ثالوثية، تتركب من أب وأم وابن، (فأفروديت) الرومانية كانت (مارى) Mari، وفى سوريا القديمة كانت الأم والزوجة الإلهية هى (ميرها) Myrha، وفى اليونان كانت (مايا) Maia، وفى الهند أيضاً مايا، وفى المسيحية مريم أو ماريا Maria وmeriam .. الخ، وبأعتبار حرف الـ (م)، أصلاً صوتيا، يعطى معنى الضم والحنو، والأمومة، لو طبقنا عليه التفعيلة من (أم) يصبح (أماناً)، والكلمة (أمان) تتركب من ملصقين: (أم) التى تعنى الأمومة، إضافة إلى (آن) فيصبح الأمان أمراً مستمراً دائماً، يعود أصلا إلى أمن الوجود فى دفء حنان الأم، أو الألهة الأم.

والنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) هو فى علم الأنساب من الفرع العدنانى، وليس من الفرع القحطانى، و(عدنان) هى (عدن + آن)، وعدن لم تزل علماً حتى اليوم على مدينة فى جنوب الجزيرة، ولو تتبعنا الهجرات القديمة فى جزيرة العرب، سنجد القبائل العدنانية، قد هاجرت فعلا بعد دمار مأرب وانهيار اليمن السعيد، من الجنوب اليمنى إلى الشمال، لتسقر فى أرض الحجاز، بينما ظلت بعض القبائل فى اليمن بعد أن أصابها القحط ليصبحوا (قحطانيين)، من (قحطان)، علماً أن (عدن) أو (أدن) كان علماً على إله الخصب والمطر

فى كثير من المناطق السامية، وكان لقباً لرب الخصب (بعل)، وإليه تنسب الكلمة (جنات عدن)، لأن كلمة (جن) كانت تعنى وحدة قياس للأرض، تعادل بمقاييس اليوم ثمانية عشر ذراعاً، وهى فى اللسان اليمنى القديم (جنان) لأن أداة التعريف لديهم كانت حرف النون (ن) تلحق بآخر الكلمة، كما فى اسم أحد كبار معبوداتهم القديمة إله الرحمة أو (رحمن)، و(جن) تجمع فى اللسان العدنانى الشمالى (جنات).

وبأعتبار الأرض الخصبة ملكاً لإله الخصب عدن، فتصبح (جنات عدن) و(عدن) بدورها كلمة تتركب من ملصقين هما (عاد + آن)، لأن الإله عدن فى أسطورته، كان إلها للخير والخصب، تعرض للقتل والموت كما تموت الطبيعة الخصبة فى الشتاء، لكنه يعود من الموت حياً فى فصل الربيع دوماً، فتعود بعودته الخصوبة والنماء، وهى قصة متواترة فى ديانات الخصب التثليثية، ويعد الاحتفال بعيد قيامة مجيد لآلهة الخصب عيداً كبير الانتشار فى المنطقة، حيث كل مجموعة تؤمن بأله للخصب تقيم له احتفال العودة من الموت سنوياً، فى فصل الربيع بالذات، ومن هؤلاء (عدن) أو (يسوع) المسيحية، ويصبح معنى (عدن) الاله (عاد - آن) العائد من عالم الموتى.

ولا يغيب عن الفطن ربط (عدنان) باليمن السعيدة المكتظة بالخير، والتى حازت على هذا اللقب نتيجة سعدها فى سالف الأزمان، بخضرتها ووفرتها وخضبها، نتيجة وجود الإله (عدن) أو (أدن) فى العبادات القديمة، ولنلاحظ أن (اليمن) بضم الياء، يعنى أيضاً السعد وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن نفسه: أنا رجل يمان، بمعنى أنه رجل سعد، بل وقال الحديث:

«إن الدين أيضاً يمان، والحكمة يمانية».

قصة الخلق بين ثقافة الصحراء وثقافـــة النهـــر

تأســـيـــس

معلوم، أنه بعد انحسار عصر الجليد الأخير، تقاسمت الأرض حالتان طبيعتان، الأولى: يمكن تمييزها في تجمع شرايين المياه في أنهار، بعد استقرار أوضاع القشرة الأرضية. والثانية: وضحت في تصحر مطرد أدى إلى خفوت نبض الحياة تدريجياً، بحيث تناثرت الحياة حول عيون الماء والبرك المتباعدة، ومع ذلك التصحر المتزايد، وجدت الجماعة المشاعية الأولى - ذات النظام الأمومي - نفسها، إزاء متغير طبيعي شحيح بمطالب الحياة والمنافع، ونرى أن ذلك قد أدى بالضروة إلى تفكيك بنيه ذلك المشاع، تبعا للتفكيك الذى حدث في الطبيعة. بحيث أنتهى إلى وحدات اجتماعية أصغر، وأكثر قدرة على الاستمرار والديمومة، حيث كان التجمع الكبير يعنى الهلاك جوعا، والصراع على خيرات الطبيعة الضئيلة، وهو الصراع الذى - لا شك - حدث، وأدى إلى ذلك التفكيك، ثم الانتشار المتباعد للأشكال القبلية الأولى.

وعليه، فقد وجد الإنسان نفسه في البيئة المتصحرة، أمام خيارين: إما الموت جوعا، أو تدجين الحيوان، ومن هنا حتم الظرف على البدوى الاعتماد على الحيوان ومنتجاته في معاشه، إعتمادا شبه كامل، فكان يأكل لحمه ويتغذى بلبنه، ويلبس من نسيج صوفه، ومن ذات النسيج كان يبنى خيامه.

ولندرة خيرات الطبيعة الأخرى، فقد أدى ذلك المتغير إلى تغير مماثل في تطور البناء المجتمعى، فقد أصبحت الجماعة ترتبط برابطة الدم، وبنفس القوة ترتبط بحيواناتها وهى معتمد حياتها. وربما كان ذلك هو جذر الطوطمية، الذى عبر عن قرابة مماثلة - وبالدم أيضا - بين الحيوان والجماعة، كما كانت الجماعة بحاجة ماسة إلى تنظيم يضمن للجماعة بشراً وحيوانات الأمان من النفوق أو الشرود أو التيه، ومع سعى هذه الجماعة المتجانسة وراء الكلأ،

(*) نشر في ديسمبر ١٩٩٠، بمجلة أدب ونقد، القاهرة.

وما يحتاجه من قدرات عضلية لا تتوفر إلا للذكور، انهار وضع المرأة! وتحولت الجماعة إلى الشكل الذكورى، خصوصاً بعد أن امتلك الذكور أساسا انتاجيا متينا تمثل فى القدرة على السيطرة على الحيوان وترويضه، فى وسط صحراوى يعتمد القوة الغشوم، وساعد على تثبيت مركز الذكور، ذلك الصراع الذى ـ لابد قد ـ شب حول مواضع الكلأ بين الجماعات وبعضها، واحتاج قدرات قتالية، وهو صراع طبيعى تماما فى ضوء اعتماد تلك الجماعات على المعطى الطبيعى الشحيح وحده. بينما فقدت المرأة قيمتها الاجتماعية فى مجتمع الندرة، بحيث اقتصرت وظيفتها على إنجاب مزيد من الذكور. أما الإناث فكانت أفواها تضيف على الجماعة عبئا، حدثنا التاريخ القريب عن حل إشكاليتها بوأدها. وحتى تضمن الجماعة المتبدية تماسكها، ذاب الفرد فى القبيلة وذابت القبيلة كلها فى الفرد، وأصبح الفرد يمثل القبيلة بكاملها فى كل تصرفاته، وبحيث أصبحت القبيلة كلها مسئولة عن أعماله، كما أصبحت مطالبة جميعها بالالتزام بتصرفه، والثأر له إن أصابه مكروه، وذاب الكل فى واحد، هو طوطم القبيلة وسيدها وسلفها، الذى أصبح محل التبجيل والتقديس، وتحول إلى رمز عزة قومية وجنسية ودينية، وكان كل فرد فى القبيلة يمثل هذا السلف، أو هو دون مبالغة ذلك الطوطم الموحد والموحد.

وفى شكل من الديمقراطية البدائية، التى تضمن بدورها مشاركة الكل وذوبان الكل، كان مجلس القبيلة هو الذى يحدد شيخها وقائدها، بصفات محددة، وترتبط بظروف آنية. فقد يحتاج الظرف للحكمة مرة، وللجسارة والإقدام حينا آخر، بمعنى أن الظرف كان هو الذى يحدد مؤهلات الزعيم المطلوب، وحسب الحاجة، كما يحدد أيضا ظروف عزله وتعيين البديل الجديد المناسب. لكن من جانب آخر، تدنت مستويات الإنتاج إلى حد كاد يكون اعتماداً شبه كامل على الطبيعة، ولأن علاقة الإنسان بالطبيعة هى علاقة عمل يؤدى إلى إنتاج اجتماعى، فإن الجماعة البدوية ظلت بعيدة عن هذا المعنى الاصطلاحى، وظلت كائنا طبيعيا فى حصولها على الخيرات بالسعى الدائب وراء الكلأ، والغزو وسلب خيرات الجماعات الأخرى. أو ما تمثل واضحا فى تطفلها المستديم على منتوج العمل فى المناطق الخصبة، والاستيلاء عليه والفرار فى غزوات لم تنقطع، سجلتها لنا نصوص الحضارات القديمة، التى استقرت على الجانب الآخر من الفرز الطبيعى، أقصد فى وديان الأنهار، التى طورت قاعدة إنتاجية، تبعتها نقلات ضرورية على المستوى الاجتماعى.

وعلى مستوى العقائد، فإن الطبيعة المتصحرة الضنينة بأشكال الحياة وألوانها ـ تلك

الأشكال والألوان التى تتعدد تعدداً هائلا فى مناطق الخصب النهرى ـ جعلت الإنسان فى بداوته أحادى النظرة، واحدى الاعتقاد والنظام، فهو كما قلنا واحد فى كل، يتمازج بذات الوحدة مع سلفة الواحد، الذى عادة ما تمثله فى أهم حيواناته النافعة، لذلك غالبا ما قدس أنواع الشياة، بالذات، لذلك كان ذلك السلف المقدس هوربه الواحد الأوحد، وهو أفضل من أرباب القبائل الأخرى، وهو الوطن ـ حيث لا وطن مع الانتقال الرعوى ـ والملاذ ومصدر العزة وموحد الكيان، ولا يوجد رب يمكن أن يدين بالطاعة له سواه، لأنه إنما يمثل مصالح جماعته ووطنها الذى ينتقل معها أينما حلت أو ارتحلت (وهو البعد الذى نجده بعد ذلك فى العقائد الإسرائيلية المبكرة، التى كانت لا تنكر الأرباب الأخرى، لكن لا تراها فى مرتبة رب إسرائيل) . ومن هنا لم يسمح الظرف بنشوء أنظمة مركزية توحد القبائل المتصارعة، فظلت فى شتاتها، مع استمرار الإله الوطنى والاعتزاز بالنسب إليه بحسبانه السلف الواحد اللامتعدد، ولا يمكن أن يتعدد، لذلك كان هو المعبود الواحد الذى يضمن لقبيلته تماسكلها اللزج وانصهارها وأمنها، لكنه من جانب آخر شكل أد لوجة واحدة للجميع، لم تسمح ـ لأزمان طويلة بعد ذلك ـ بظهور ثنائية طبقية تسمح بمزيد من التطور ودعم ذلك الوضع، الظرف ذاته الذى فرض استمرار الديمقراطية الابتدائية ومجلس القبيلة، والزعيم الظرفى الذى لم تثبت سيادته مدة زمنية تسمح بامتلاكه قدراً يؤدى إلى ظهور تشكيلة طبقية.

هذا بينما على الجانب الآخر، وفى مناطق الخصب النهرية، كان استقرار الأنهار فى مجاريها بشكل نهائى، قد استغرق زمنا غير قصير، وسمح بوجود بيئة شبيهة بحال ما قل انحسار الجليد الأخير، من حيث انتشار الأحراش والمستنقعات مما فرض بالتالى استمرار الوضع الابتدائى للمشاع زمنا أطول، ضمن استمراراً موازيا لوضع المرأة المتميز فى النظام الأمومى، بسبب امتلاكها أساسا اقتصاديا دعم ذلك الوضع (سنأتى على شرحه الآن) ، واستمر ذلك النظام فترة زمنية توازت مع المرحلة التى تغيرت فيها نظم المجتمع، الذى تحول للبداوة فى مناطق التصحر، وانتهت بالسيادة الذكرية، بينما كانت مناطق الخصب لم تستمتع بعد باستقرار الطبيعة النهرية تماما. ولتوضيح ذلك سنحتاج إلى وقفات تفصيلية ـ حسب المساحة المتاحة ـ لابد منها، وهى وقفات تنتج لزوما عن رؤيتنا، والتى تمثلت فى اقتراح يحل أو يحاول حل ـ مسألة أيهما كان أولاً: النظام الأمومى أم النظام الأبوى؟ فبينما كان (داروين) قد افترض ـ بالمقارنة مع عالم الحيوان ـ أن السيادة المطلقة كانت ذكرية لا شك فيها منذ البداية،

أكمل (آتكسون) فقال: إنه حدث أن ثار الأبناء على الأب المتسلط القاسى المتوحش وقتلوه وافترسوه سوية واستكمل (روبرتسون سميث) البحث ليؤكد أنه قد مرت بعد ذلك فترة انتقالية ظهر فيها النظام الأمومى، وانتهى (فرويد) بعد البناء على ما سبق، إلى أن الأوضاع قد عادت إلى سابق عهدها وساد الذكر. بينما كان يقف على الجانب الآخر اقتراح يحمل أدلة ربما كانت أقوى ـ كما عند (إنجلس) مثلا ـ يؤكد أن البداية كانت نظاما أموميا لا شك فيه.

وكان اقتراحى هو رفض السؤال: أيهما كان أولاً؟ من أساسه، بحسبانه الخطأ الذى أدى إلى تضارب الاجتهادات، وزعمت أنه لم يكن هناك قبل ولا بعد، ولا سابق ولا لاحق، حيث قد انتهى الظرف البيئى إلى تميز مجتمعين عن بعضهما رغم تزامنهما، هما مجتمع البداوة ومجتمع النهر، أى أن الاختلاف كان مكانيا وليس زمانيا، وهو الزعم الذى أضحى بحاجة إلى تأييد، وهو تأييد كما قلنا بحاجة إلى بعض التفصيل الوجيز.

سيادة الأنثى

لنقر مبدئيا أنه من غير المنطقى أن يوجد مجتمع كل آلهته إناث، ويسوده بشر ذكور، أو العكس. ولنقرأ بعد ذلك الترتيلة السومرية التى تقول: **«عندما تزوجت الإلهات الأم.. وعندما توزعت الإلهات الأم بين السماء والأرض.. وعندما ولدت الإلهات الأم.. عند ذلك كتب العمل.. الإلهات العظام يراقبن العمل، والأبناء يحملون السلال»**(انظر مثلا: فوزى رشيد، خلق الإنسان فى الملاحم السومرية والبابلية، آفاق عربية، آيار ١٩٨١) ـ ولنلحظ أن البيئة السومرية فى جنوب وادى الرافدين، لم تكن قد تحددت فيها معالم نهرى دجلة والفرات تحديداً واضحا، ولم تزل، وحتى الآن تختلطان فى الدلتا وتنتشر بينهما الأهوار والأحراش والمستنقعات شبه الغابية.

حقيقة أنى أرى فى تلك الترتيلة حفرية رائعة، نقش فيها ما حدث فى حقب الحياة القديمة، فالإلهات هنا هن الإلهات الأم، اللاتى توزعن بعد ذلك بين الأرض والسماء، ومن الجدير بالذكر أن **أول تمثل للأم الأولى الكبرى كان فى تربة الأرض الخصبة، ومع نقلات تطورية استغرقت زمنا، ثم تمثلها ـ إلى جوار الأرض ـ فى كوكب الزهرة المتلالى** ذى الحسن والدلال، وهو ما تشير إليه الترتيلة بوضوح. ولك أن تلاحظ **أن قدسية الإلهات** الأم قد ارتبطت بـ «عندما وُلدت» ولنتذكر أهمية (ولدت تلك فسنعود إليها)، بينما

أصبحت مهمة الأبناء، وهم جمع الذكور، العمل، لتتفرغ الأم الإلهة لإدارة شئون العشيرة، ومن ثم لم يكن غريبا أن ينادى السومرون تلك الإلهة بالنداء: ماما mama ومامى MAMI وأماهAMA (انظر حول تلك التسميات جان بوتيرو: الديانة عند البابليين. ١٩٧٠. ص.١١).

وتلخص لنا الأنثروبولوجية جيكيتا هوكس JAQUETTA HAWKES الاتجاهات البحثية بصدد تأليه الأم الأنثى الأولى، فتقول: إن أقدم تماثيل شكلها الإنسان للعبادة، تمثل إناثا ضخمت فيهن الأعضاء المثيرة جنسيا، أطلقت عليها هوكس اسم تماثيل إفروديت الولادة، وتبع ذلك عصر اتضحت فيه بعض رسوم تتسم بالذكورة، تلاها عودة كاسحة إلى الإلهات الإنات، وذلك مع اكتشاف الزراعة فى العصر الحجرى الحديث، ويعود تاريخ التماثيل الولآدة إلى حوالى خمسة عشر ألف عام (أى فى العصر الحجرى القديم)، ولنا أن نلاحظ هنا أن الجليد قد تراجع قبل ذلك بألاف عشر أخرى، مما يشير إلى التحولات التى أشرنا لحدوثها فى البيئات المتصحرة على المستويين البيئى والمجتمعى، مع بقاء أوضاع المشاع فى البيئات الخصيبة على حالها، إلى ما يزيد عن عشرة آلاف عام.

وتؤكد هوكس أمرا منطقيا تماما، هو أن النساء هن مكتشفات الزراعة، إبان جمعهن للثمار فى منطقة مستقرة مع أطفالهن، وملاحظتهن ـ بالصدفة المتكررة ـ لنمو الثمار المتساقطة على الأرض مرة تلو الأخرى، فى وقت كان فيه الرجال يخرجون للقنص، وعند عودتهن يكون كل الرجال لكل النساء، فينسب الأطفال للأم دون الأب، وقد شكل اكتشافها الزراعة، وإجادتها لهذا العمل رغم بدائيته النسبية، أساسا اقتصاديا ساعد على تثبيت سيادتها (التى حفرتها لنا الترتيلة السومرية)، ثم تلى ذلك نهاية العصر الحجرى الحديث، أى منذ حوالى خمسة آلاف سنة تقريبا، سيادة الذكور النهائية. ولاحظت هوكس أن ذلك اقترن بنشأة المدن المستقرة الكبيرة (للمزيد إرجع إلى: HAWKES, PRE HISTORY NEWYORK AMERICAN LIBERY, 1963, P.O. 35 - 357)، أما نحن فقد أجزنا لأنفسنا ـ وفق ما بيدنا من شواهد ـ أن نلاحظ أن ذلك الزمن تحديداً، (نهاية العصر الحجرى الحديث) كان بداية هبوط الموجات البدوية على المناطق الخصيبة بالهلال الخصيب، والتى استمرت نوعا من الهجوم الدورى على الحدود لسلب المحصول بعد جنيه، وانتهت باستقرار السيادة البدوية فى المناطق الخصيبة فى

شكل غزو استيطاني كامل، وهي الموجات التي اصطلح على تسميتها بالهجرات السامية، ولعلنا نذكر أن البداوة كانت السلطة المطلقة فيها الذكور.

تدعيم رؤيتنا

تقول ميد MEAD مقولة اعتيادية تماما هي: إن النساء بفضل قدرتهن على الإنجاب، ولأن مسألة الولادة كانت في عيني الإنسان البدائي مثيرة للدهشة والعجب - وربما الانبهار المؤدي للتقديس - فقد أدى ذلك إلى الاعتقاد أن النساء قابضات على أسرار الحياة (انظر: Malè and Famale, New York, Morrow, 1949, pp. 102-103.).

ونضيف إلى ميد: أن الولادة في مجتمع أمومي، يأتي فيه أى ذكر أى أنثى، كانت لا تعطى للذكر فرصة لملاحظة أثره ودوره في عملية الإنجاب، إضافة إلى الفترة الطويلة الفاصلة بين الحمل والولادة، والتي كان يمكن أن تخفى عن عين البدائي غير المدققة، للعلاقة بين الأمرين، كما أن معيشة الأولاد والبنات سوية حينذاك دون عائق قبل المراهقة، ومعرفتهم الجماع الذي لا تنتج عنه ولادة؛ أدى بدوره لعدم الربط بين الجماع والولادة، وعدم إعطاء الذكر دورا في عملية الميلاد. بل أن هناك من يعتقدون اليوم - في بعض المجتمعات المتخلفة - أنه يمكن للمرأة أن تحمل دون رجل يأتيها، بل وتدخل تلك الفكرة ضمن معتقدات كبرى، لذلك كان طبيعيا أن يتصور الإنسان في المبتدا أن الأنثى وحدها هي الكائن المسئول عن منح الحياة، والقادر الوحيد على ذلك، بحيث أصبح إعطاء الوجود حياة جديدة اختصاصا أنثويا بحتا، وقد دعم تلك الرؤية اكتشاف الأنثى للزراعة، حيث كانت الزراعة إنجابا للحياة وامتلاكا لأسرارها، لذلك لم يكن غريباً أن تكون أول التماثيل المعبودة لإلهات إناث ولادات.

وإعمالا لذلك نرى أنه قد تبع اكتشاف الزراعة، استقرار دائم انتظاراً لنضج المحصول (وهو يشابه انتظار نضج الجنين)، وتبعه بالضرورة دعم لوضع المرأة السيادي، لكن ذلك الأساس الإنتاجي ذاته استبطن في داخله الانهيار المقبل لوضع المرأة، والمتغير الآتي الذي فرضه التوسع في قطع الغابات مع التحقيل وإحلال الزرع محلها، وما يحتاجه مثل ذلك العمل الجبار من قوى عضلية، وما يحتاجه من حيوانات قوية مدجنة لجر الأشجار المقطوعة، وللعمل في حراثة الحقل وحمل المحصول، وهو ما اقترن بالضرورة بسيادة

تدريجية للذكور أدت إلى تبادل المواقع السيادية، وقد حدث ذلك فى الوقت الذى سجل لنا فيه التاريخ أن الجموع المتبدية ذات النظام الذكرى، قد هبطت بقطعان مواشيها القوية إلى أراضى الخصب، فميا يعرف بالهجرات السامية.

والملحوظة الجديرة بالاهتمام هنا، هى أنه بعد هبوط الهجرات السامية على الهلال الخصيب (وهو نموذجنا هنا)، وما تلا ذلك من قيام الدول المركزية (وهو ما سنأتى على شرحه)، نجد استمرار تواجد الإلهات الإناث فى حضارات الشرق الأدنى القديم، إلى جوار آلهة الدولة الحاكمة الذكور، ثم أن التماثيل التى تركتها لنا فنون تلك الحضارات تصور لنا الإلهة الأنثى تحمل بيدها حزمة من الحنطة، أو تقف فى حقل حنطة، أو تصور على ثوبها سنابل الحنطة، هذا بالتبادل مع النخلة فى رسوم أخرى وإن كانت أقل انتشارا، وهو ما يشير بوضوح إلى ارتباط الأنثى بالزرع، وبالحنطة تحديداً (أول الزراعات المدجنة)، ولو أخذنا بالحسبان أنه بمرور الوقت، ومع النظام الاجتماعى الذكرى، ومع الاستقرار، بدأ الذكر يلاحظ دوره فى عملية الإنجاب، كما لاحظ التشابه الواضح بين حبة الحنطة المفلوقة وبين فرج الأنثى المفلوق، وأن كلا الفرجين ينفلق عن ميلاد وحياة جديدة بعد رى الحبة بالماء ورى الفرج بمنى الذكر، فربط بين المنى والماء واعتبر المنى ماء الحياة المذكر (أوزيريس النيل فى مصر، بعل المطر فى الشام، أبسو وآنكى إلهى الماء فى الرافدين.. الخ) كما ربط بين الحنطة والمرأة، ناهيك عن رصيدها فى اكتشاف تدجين الحنطة تحديدا، والتى تحمل التشابه مع الفرج الأنثوى، هذا مع ما حمله التشابه مع نواة التمر الذى انتهى بتقديس التمر بدوره، وبحيث حملت النخلة قدسية المرأة وأصبحت رمزاً دالا عليها فى العبادات وفى الحوارات الجنسية، واحتسب التمر دواء شافيا يحمل كثيرا من البركات حتى اليوم، خصوصاً إذا خلط باللبن (وهو رمز المنى الذكرى؟!) ولا ننسى أن مريم أتاها المخاض عند جذع النخلة والتفاعل معها بهزها.

أما الكلمة (تمر) فالواضح لدينا أنها الأصل والجذر فى الكلمة الدالة على الزرع على وجه التعميم، أقصد كلمة (ثمر). وتأسيسا على تلك التجربة والملاحظات، بنى الإنسان تصوراته عن التكوين والوجود، فربط التكوين بدم الحيض الشهرى، بعد أن لاحظ غياب الدم مع بدء الحمل المؤدى فى النهاية إلى ظهور الحياة فى المولود، فربط الدم بالحياة، وتصور أن ذلك الدم المنجس داخل الرحم هو الذى يكونّ الوليد المقبل، وقد ربط ذلك بملاحظة أخرى

هى الموت المحتوم الذى يصيب الإنسان المجروح عندما ينزف دمه، ذلك الدم الذى أصبح على وجه العموم سر التكوين وسر الحياة، ويبقى فى الذكرى، حتى فى مجتمع السادة الذكور، بحسبانه منحة الأنثى الإلهة الأولى.

هذا وقد لاحظ بعض الباحثين (مثل فرويد) ارتباط الأنثى بالقمر، والذى كان عادة ينقش إلى جوارها فى حالة الهلال، فاحتسبوا أن الإنسان القديم رمز للأنثى بالقمر، وأن القمر هو الإله المؤنث، لكنا ذهبنا إلى اتجاه معاكس تماما، فقد افترضنا أن هذا الاقتران بين الأنثى والقمر إنما نتج عن تناغم إيقاعات الدورة الشهرية للمرأة مع التبدلات التى تطرأ على وجه القمر خلال الشهر القمرى، الذى ينضبط إلى حد مدهش مع الإحدى وعشرين يوما للدورة الحيضية، وأن غيابه يترافق مع نزول دم الحيض، ويربط تلك الظاهرة بظاهرة نزول دم البكارة عند أول جماع للفتاة البكر، انتهى بتصور أن القمر هو الزوج الحقيقى أو الغائب للمرأة، بخاصة مع حدوث حالات حمل مع غياب الذكر فترة طويلة للصيد أو فى ظروف طارئة، والقمر قد اقترن من جانب آخر بحيوانات الرعى عموما (الشياة)، لشبه الهلال بقرنى الخروف أو الثور، وهى الحيوانات التى شكلت الأساس الاقتصادى الذى إدى إلى امتلاك الذكور قاعدة إنتاجية دعمت وضعهم السيادى، والذين مالوا عموما منذ البداوة إلى الترميز للهلال بالخروف، والذى عادة ما رمز بدوره للسلف الأب الذى فى السماء.

وتأسيسا على ذلك احتسبت أولى نظريات التكوين أن بداية الخلق جميعا من الأنثى الولادة، التى، تمثلت فى قوة أنثوية تلد كل شىء من الزرع إلى البشر، وأدمجت كقوة خلق كبرى فى جميع الإناث بشراً وحيوانات وأرضا ولوداً، وتمثلت المادة الأولى للتكوين فى دم الأنثى تحديداً.

ومن الطريف أنه بالقرب من موطنى: مدينة (الواسطى) وعلى الطريق إلى (الفيوم)، ظهرت كرامة زراعية رائعة الدلالة، تشير إلى بقاء المأثور القديم فى الوجدان الشعبى بقوة. فمنذ زمن غير بعيد (حوالى ٧ سنوات) انتشرت اسطورة تقول أن رجلا أراد قطع شجرة الجميز القابعة على الطريق الرئيسى، ومع أول ضربة بالفأس (وهو رمز ذكرى دائم لأنه يشق رحم الأرض) صرخت الشجرة ونزفت مكان الضربة دم غزير، وفى تلك اللحظة تحديداً، وكانت فى الثلث الأول من الليل، وعندما سمع أهل القرية جميعا دوى الصرخة

الملتاعة، نزفت كل امرأة كانت فى حالة جماع مع زوجها، ومن ثم اختار الأهلون للشجرة اسماً لا جدال فى دلالته، وهو (الشيخة خضرة) ؟! ووضعوا بجوارها صندوقا كتب عليه: تبرعوا لبناء مسجد الشيخة خضرة ؟!، والغريب أنك عندما تقترب من الشجرة - التى أخذت المئذنة تتعالى من خلفها - لتطالع المادة الصمغية التى جفت قطراتها على الساق المقطوع، ستجد أهل القرية قد علقوا على الفروع أشرطة من نسيج أخضر، وعلقوا على الجذع قرنى خروف؟!، أما الهلال السيادى فقد تم الاهتمام بوضعه فوق المئذنة، حتى قبل إتمام بقية المسجد.

الأنثى والأرض

ويمكننا أن نرى ارتباط الأنثى الولود بالأرض، متمثلا بروعة أخاذة فى اسطورة سومرية تحمل اسم (أسطورة الشعير والنعجة)، ولنلحظ بداية الشعير (وهو الحنطة رمز الخصوبة الأرضية، وأول ما دجنت المرأة من زوع، كما أن النعجة هي رمز الأنثى الأشهر)، وتتلخص الأسطورة فى القول: إن البشر الأوائل قد خرجوا من تربة الأرض كما يخرج الزرع والحشيش وكل صنوف الحياة.

ويمكنك أن تجد ذات الفهم فى أسطورة سومرية أخرى تحمل عنوان (هبوط إينانا إلى العالم السفلى)، وقد وضعت - فيما يبدو - لتفسير ظاهرة التناوب الفصلى بين الخصب والجدب، كما تلخص المفاهيم الأولى عن الوجود والتكوين، وتقول: إن إلهة كوكب الزهرة إينانا، كانت تهبط إلى باطن الأرض دوريا كل عام حيث عالم الموتى، وبتضحية اختيارية تتم وقت الاعتدال الخريفى، حيث يبدأ فصل الجدب على سطح الأرض بغيابها، وهى الأنثى الأم الولادة مانحة الحياة، ثم تعود مع الاعتدال الربيعى إلى سطح الأرض ومع عودتها تخصب الأرض وتتفتح الأزاهير، لأن عودتها تعنى بدأ عملية الأخصاب والتوالد «فيعود الخروف إلى شاته، والثور إلى أنثاه، والزوج الغاضب إلى بيته» أو كما قالت!! لذلك لم يكن غريبا - مع طرحنا - أن يتم تعديل تلك الأسطورة السومرية الزراعية، بعد سيطرة الأكاديين على بلاد سومر وقيام دولتهم المركزية، وهم من أصل رعوى بدوى خيموى، ليتحول اسم إينانا إلى عشتار وعشتروت من العشرة والمعاشرة والتعشير، لكنها لا تصبح السيدة المطلقة المسئولة عن الخصب، إنما يظهر هنا سيد جديد كان فى الأساطير السومرية مجرد ذكر خامل الذكر،

ضمن مجموعة عشاقها العديدين، (ترميزا لزمن الآنثى فى المشاع)، ليرتفع ذلك الذكر وتعلو مكانته ويصبح هو المسئول عن الخصب ومنح الحياة واستمرار الحياة، وهو المعروف فى الأساطير السامية الرافدية باسم (تموز راعى الخراف الطيب)، ويصبح هو رمز النبات الذى يموت فى فصل الجدب وينزل إلى العالم السفلى، ويعود مع بداية الربيع، دون أى ارتباط بواقع الخصب اللهم إلا الارتباط بمنطق السيادة التى حققها الذكور الأكاديون، منطق نظام اجتماعى يأخذ بالسيادة الأبوية فى نظمه الاجتماعية (وهناك أمثلة عديدة يمكن للقارىء الرجوع إليها فى أعمالنا المنشورة)(١).

ورغم الواضح فى المأثور الحضارى فى المنطقة عن تراجع سيادة الأنثى، فيبدو أنها ظلت ذات وضع سيادى فى عالم الاعتقاد، ومعلوم أن بقاء المعرفى المتمازج من القديم مع جينات الجديد، يظل فترة أطول من تغير الواقع المادى الأسرع فى التغيير، وقد أبقى ذلك لنا ثروة طيبة، وجدنا فيها طقسا مثيراً كان يمارس فى المناسبات الدينية الأحتفالية بالإلهات الإناث، فى المراكز الحضارية الكبرى فى الشرق القديم، والطقس عبارة عن احتفالية جنسية عمومية هائلة عدداً وعدة، فى أيام محدودة بجوار معبد الإلهة، وكان أشرف الأعمال التى يمكن للأنثى تقديمها هى التضحية بالبكارة فى هيكل الإلهة. ولا أجدنى مخطئا إن احتسبت ذلك الطقس أفضل قربان يمكن تقديمه للإلهة المخصبة الولود الشبقة المنجبة مانحة الحياة، تذكرة بالأيام الخوالى أيام كان الرجال للنساء جميعا، والنساء للرجال جميعا، وإذا كان ذلك ممجوجا من قواعدنا الأخلاقية اليوم، فإنه كان حينذاك على العكس تماما، بل كان واجبا دينيا خطيراً تقدمه النساء للإلهة كى يفشو الخير وتأتى السنوات السمان، بتحريض القوى الإخصابية للأم الكبرى لتبدأ فعلها فى الطبيعة، تأسيسا على مبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه، وليس أدل على شرف ذلك العمل الذى يتم من أجل خير المجتمع كله، من تلك اللوحة التى عثر عليها مؤخرا فى طرابلس بليبيا، منقوشة على عمود شرف مرمرى يعلن: أن الشريفة أورليا آماليا قد قدمت جسدها قربانا للإلهة، وأنها فى تدينها أصيلة، فقد قدمت أمها وجدتها القربان ذاته، وأنه قد تم للهيئة الكهنوتية التأكد من ذلك؟! (انظر فريزر، أدونيس أو تموز، ترجمة جبرا ابراهيم، ص ٤٥).

ولنلحظ استمرار التواجد الأنثوى فى العبادة حتى الآن فى العقيدة المسيحية، حيث تعتبر

(١) انظر تفصيلات أوسع لهذا الموضوع فى كتابنا الأسطورة والتراث.

مريم أم الإله المسيح من أبيه السماوى، وهذه الأم الإلهية تستوجب الاحتفال والتقديس، لذلك اختصت دون بقية الأقانيم الثلاثة بصيام العذراء، الذى يصوم فيه المسيحيون عن كل ما هو حيواني، ويقتصرون فيه على الأكل النباتي لتذكير واضح لالبس فيه، بالمجتمع الذى زعمناه فى سالف الأزمان، يعيش فى البيئات الخصيبة، ويستغنى عن اللحم فى الغذاء ويعتمد على الوفرة النباتية، وتسوده أم إلهية مقدسة، ولا ننسى التبادل بين كلمتى (نبات) و(بنات).

أما اللغة فكانت كعادتها تحمل دلالات أحفورية حملت الخبرة القديمة وما تأسس عليها من مفاهيم، تقولبت فى ألفاظ تحمل دلالات تلك المفاهيم، فالكلمة قديسة هى فى العبرية قديشا، وكانت فى الأكادية القديمة قاديشتو، وكان أبانها اللقب الذى تحوزه العشتارية، أى المصطفاه من جموع النساء الحاشدة ليلة الحفل النزوى خارج معبد عشتار، لتقوم بدور الإلهة داخل هيكل الإلهة مع الكاهن الأكبر الذى عادة ما كان الملك يقوم بدوره (انظر كمثال فاضل عبد الواحد، عشتار ومأساة تموز، بغداد، ص ١٥٨، كذلك بالمرجع السابق ص.٧)، أما التى كان أهلها من النبلاء يقدمونها طائعة للهيكل، فكانت تحوز لقب الإلهة الأم ذاتها وهو (البتول) وهو فى الكنعانية والاكادية والعبرية (بتول، بتولتا، بتولا) ويعنى فى العقائد القديمة (إشارة للإلهة) الأنثى غير المتزوجة وغير العفيفة فى آن معا.

الخلق فى الفهم الذكرى

لأن الخلق بالميلاد فى النظام الأمومى كان يعتمد مادته الأساسية دم الحيض، فإن سيطرة الذكور التامة بعد الغزو البدوى لمناطق الخصب، وسيادة النظام الذكرى، كان لابد أن تعيد صياغة الأدلوجة بما يتفق والشكل السيادى الجديد، ولأن مفهوم التكوين من الدم بات راسخا، فقد لجأت الأسطورة الذكرية إلى صياغة جديدة تتلاءم مع الظرف الجديد، تجاوزت شرط الولادة لأن الذكر لا يلد، وأخذت منحى آخر أعطى الذكر الدور الأساسى، فالآلهة الذكور عندما قرروا خلق البشر، قاموا بذبح إله يدعى (كنجو)، وعجنوا التراب بدمه، ومن هذا العجين تم خلق الإنسان، وهو ما سجلته لنا الملحمة الرافدية (إينوما أيليش) وتعنى (فى العلى عندما).

أما خلق الكون برمته فقد اعتمد خطأ آخر، تم فيه وصم الأنثى بصفة الشر، حيث احتسبت الأم الإلهة العظمى (تيامة) إلهة شريرة، أزعجت الآلهة الذكور فقام إله الدولة الذكرية

(مردوخ) بمنازلتها وهزيمتها، وهو تعبير واضح عن انتصار النظام الجديد، ثم قام مردوخ بشق تيامة كما تشق الصدفة إلى قسمين، رفع القسم العلوى وجعله سماء، وترك النصف السفلى ليصبح أرضا، وفى تلك التنظيرة نجد اعترافا ضمينا بضرورة الأنثى للتكوين، فمن جسد الإلهة الكبرى تم تشكيل الكون سماء وأرضا.

ولأن الجديد استبطن القديم، ولم يكن ممكنا التخلص نهائيا من دور الأنثى فى البناء المعرفى، القائم على فرز مادى تاريخى عريق، فقد حملت الأنثى فى ظل السيادة الذكرية قيمة ثنائية، فهى فى لغة البداوة السامية (فى العبرية مثلا) حواء، لكن الكلمة حفرت فى تركيبتها ومفهومها جذر الحياة، وفى الوقت نفسه حملت الوجه الآخر الجديد فارتبطت حواء بالحية مصدر الأذى والشر، ولنلحظ الارتباط الجذرى بين: حواء، حياة، حية، حيا أى (فرج) والمرجح فى ربطها بالحية ملاحظة البشر للحية تنسلخ من جلودها كل عام، فتصوروا أن الحية خالدة تجدد حياتها بهذا الأسلوب كل عام، فربطوها بالأنثى حواء مصدر الحياة المتجددة، ومع ذلك فإن الحية فى المأثور التوراتى الأشهر، وهو قمة وتطور وخلاصة المأثور البدوى الذكرى، ترتبط بالمرأة لكن فى صيغة تبخيسية، فهى توعز لحواء بأكل الثمرة المحرمة فى عالم الخلد، فيفقد الرجل الخلود بسببها، وتتحول المرأة عن منح الحياة إلى سلب الحياة وفقدان الخلود، وعليها يجب أن يقع هذا الوزر إلى الأبد.

أما على مستوى القاعدة الاجتماعية، والشكل السياسى، وارتباطهما بالمنظومة المعرفية، فى ظل السيطرة الذكرية، فقط ارتبط جميعه بخطوات تطورية سريعة تلاحقت بعد الغزو البدوى السامى للرافدين، فإن المشتركات الأولى ظلت تتمتع ببقايا الديمقراطية البدائية البدوية، وبمجلس القبيلة الذى أصبح مجلس المشترك الذى يختار الزعيم، لكن مع الاستقرار فى البيئة النهرية، والتحول إلى الفلاحة، وما يفرضه النهر من تلاحم القوى البشرية للسيطرة على مجارى المياه الهائلة وتوزيعها، فإن ذلك فرض نوعا من الطوارىء المستمرة، التى أدت إلى استمرار مماثل فى سلطة الزعيم، بحيث انتهى الأمر مع بقائه ببقاء الطوارىء إلى تسليمه كل ألوية وشارات القبائل المتبدية، ليتحول الشكل السياسى إلى المركزية الصارمة، وإلى توارث الزعامة فى بيت الزعيم الملك، بعد دمج المشتركات الأقليمية فى الدولة المركزية، بعد صراع مزمن بين تلك المشتركات، وهو ذات الأمر الذى حدث فى عالم السماء، حيث تقول ملحمة الإينوما أيليش أن مجمع الآلهة الخمسين (ولاشك

أنه يقابل مجلس القبيلة الأرضى، أو مجموعة الاقاليم) قد سلم سلطاته للإله مردوك، وأنهم قد اجتمعوا فى السماء ومنحوه قدرة تغيير كل شيىء، وخلق أى شيىء، بمجرد النطق بالكلمة، تعبيرا عن السلطان المطلق الذى أصبح يتمتع به الملك الأرضى، وبعد أن أصبحت كلمته نافذة لا تقبل الارجاء، حيث تقول الملحمة: «واجتمع الآلهة الخمسون، فى أبشوكينو فرحين، وسلموا مردوك شاراتهم، وقالوا: من مثلك ملك، مر قطعة القماش الممزقة تلتئم، مرها ثانية تعود سيرتها الأولى».

لكن الواضح فى كل الأساطير الرافدية القديمة، أن تلك القدرة كانت بالقوة لا بالفعل، فهى قدرة مرجأة حيث كان الخلق يتم دوما بالفعل اليدوى، بل ويظهر فى التوراة التى أقرت الخلق بالكلمة، لكن فى كل مرة كان الرب يصنع مخلوقاته بيديه صنعا، مما يشير إلى أن الأمر قد تمت صياغته فقط لتبرير إطلاقية الكلمة السيادية على الأرض (راجع الاصحاحات الأولى من سفر التكوين التوراتى).



المرأة فى المأثور الدينى والأسطورة

حـــريـم وحـــرام

عندما نعتاد الأمر يتحول إلى بدهية، ولا نلتفت إلى تناقضه وهشاشة أسسه، وبمرور الوقت يصبح من أشد الأمور اختلافا بين الناس، بين من يدقق ويرفض منطق الاعتياد، وبين من اعتاده حتى اعتقد أنه بدهية.

ومن المعتاد ـ لكنه بالفعل ليس بدهيا ـ أن هناك متسلطا وهناك مقهوراً، وأن للمستغلين مصالح تستدعى تزييف وعى المضطهدين (بفتح الطاء)، ويشهد التاريخ أن أشد الأدوات مضاء بهذا السبيل هى الأدوات الإيمانية، التى تلعب على الوجدان العاطفى للمتدين، ومن ثم نراهم ينفقون بسخاء وذكاء، على وسطائهم المحترفين من كهنة ورجال دين، ينشرونهم فى كل مكان، يبثون الصبر، وينفثون السلوان، مبشرين بجزاء أيوب، يتتبعون أى تحرك واع ضد تزييف وعى الناس، ينقضون على كل رأى أو سلوك أو حتى كلمة أو فكرة، فربما ثقبت الكلمة الجدار السميك للجهل المنشور، الذى يمنع المضطهد من الوعى بحاله وبوضعه فى المجتمع.

ولأن تطور المجتمع البشرى لم يصل بعد إلى الوضع الإنسانى اللائق بكرامة الإنسان، فإن الظرف الاجتماعى الحالى لا زال يسوغ القسمة الطبقية الصارخة بين الناس، طبقات، طوائف، أجناس، دائما هناك الأقوى والأضعف، المفترس والفريسة، القاهر والمقهور.

وربما أبرز نماذج تلك القسمة اللا إنسانية، وتشكل وصمة عار كبرى فى تاريخ البشرية، ذلك الذى حدث منذ استولى الذكر على مقدرات المجتمع البشرى، وأزاح الأنثى من البؤرة إلى الهامش، ليصوغ مجتمعا ذكوريا أسس لأبشع أنواع التفرقة العنصرية داخل الجنس الواحد، ففرق بين طرفى حياة لا تكتمل الحياة دون التقائهما جنسا وجسدا وروحا وتكاملا إنسانيا.

(*) محاضرة ألقاها الباحث بدعوة من اتحاد النساء التقدمى بمقر حزب التجمع فى ١٩٩٣/١٢/٢٢، ونشرتها مجلة أدب ونقد.

والتاريخ يؤكد أن الشرق كان هو المؤسس لذلك التقسيم العنصرى الطبقى فى آن معا، ولم يزل، ومن يومها تتعزى المرأة الشرقية بالصبر والسلوان الفقهى، وتبلسم جراحها بخطابات منبرية، تؤكد لها أنها فى مكان التكريم بين نساء العالمين، تتعزى صبرا فى عالم الأرض، وصبرا فى عالم السماوات، فى الدنيا وفى الآخرة. وإن أحسنت أيمانها وأحصنت فرجها وأمتعت زوجها وسيدها، دخلت يوم الدينونة ضمن حريم السيد المؤمن الذكر فى جنة رضوان، ذلك الحريم الذى تبدأ أعداده من السبعين لتصل إلى الملايين فى بعض الأحاديث المنسوبة للنبى.

وإيمانها الذى سيعطيها تلك المنحة الخالدة لا يحسن إلا بالطاعة الكاملة للرجل والخضوع له والتسليم الكامل لسيادته الغشوم فى دنيانا الفانية، حتى تضمن لها مكانا كغانية ضمن حريمة فى الآخرة أيضا.

والدارس للمرأة فى منظومة المأثور العربى، يجد ذلك المأثور يميز جنسيا وخلقيا بين الذكر والأنثى، فهو المخلوق الأول، وهى الثانى، بل هى منه قطعة، هو المخلوق لذاته، وهى المخلوقة له ومن أجله، ويلاحظ أن ذلك الاختلاف العضوى بين الذكر والأنثى، قد تحول فى مأثورنا من تكامل ضرورى لصنع الحياة، إلى امتياز خاص للرجل، مأثورنا يعيد وضع المرأة إلى زمن حواء الأسطورى، زمن الخطيئة الأولى، ويمركز الشر كله حولها، فهى شيطان غواية لأنها رفيقة إبليس(!) المرأة لا تتحكم بشهواتها، ولا تكون مع رجل إلا وكان الشيطان ثالثهما، ويتأصل سوء الظن بها فى لا وعى الجماعة على أسس من الإيمان لأنها هى التى أغوت أدم، حتى قصص الأنبياء تخبرنا أن نساء الأنبياء قد وقعن فى الخطيئة.. إمرأة لوط، امرأة نوح، فى التوراة سارة امرأة إبراهيم، هاروت وماروت أغوتهما امرأة! ولذا آدم تقاتلا على امرأة، فالمرأة تخضع للشهوة لا للعقل، ميولها للخيانة طبيعية ومن الطبيعى أن تخون فهى أحد أربعة لا أمان لها (مع المال والسلطان والدهر) فى الحديث (ولو طالت عشرتها). كل هذا دون أن نلتفت لحظة لفظاعة وضعها المجتمعى، ولا لكم الخيانة الذكورية للمرأة، وللتاريخ كله.

وهكذا يؤسس موروثنا لتبخيس المرأة، فقد خلقت من ضلع أعوج، وناقصة عقل ودين، وشهادتها نصف شهادة الرجل، وميراثها نصف ميراث الرجل، وليس لها من الطلاق شيء، «ولو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»، والكهنة رسل الشيطان والنساء مصايده، شلّ مستمر لشخصيتها، وإضعاف دائم لفاعليتها، ودفع دائم لها لتكون على

الصورة التى يريدها الرجل، ليسقط عليها عدم براءته وشهوانيته ونقائصه، لتصبح مجرد جسد، غير مطلوب منها أن تفكر فهناك من يفكر بالنيابة عنها. مطلوب منها فقط أن تعطيه الراحة والمتعة! أن تكون مجرد متاع! ويترسخ المأثور داخلها هى حتى تؤمن هى ذاتها أنها مجرد فرج(!!) وأنها لذلك حرمة وحرام، فتفرض المأثور على ذاتها فى شكل وسواس قهرى داخلى، يضع بينها وبين عالمها كل التحريمات حتى الصوت الذى هو عورة، لتحصل بذلك على رضا الزوج الذى هو رضا الرب، وتكتسب رضا الجماعة واحترامها، بحيث تتعايش مع الضغوط وألوان العقاب والاحتقار، المفترض احتراما، وتصبح أكثر أعضاء الأسرة والمجتمع تحملا للاضطهاد، فقط لتعيش فى وسط يترصدها ويعد عليها سكناتها، ومن ثم يصبح وضعها هذا فى المجتمع طبيعيا تماما، معتادا تماما، بدهيا تماما، لا نلتفت إليه، ولا نفكر فيه، إلا عندما نصادف امرأة وعت الأزمة، فتكسر فى وجوهنا عدم براءتنا بسلوك جديد ورأى جديد ومنطق جديد يخيفنا ويرعبنا، هنا فقط لن نفكر إلا فى هذا الانفلات وكيف نحجمه ونعاقبه، حتى لا تأخذ لحريتها مساحة من حريتنا، حتى نظل السادة، وحتى نجد دوما من نحمله أمراضنا الداخلية، من نحمله أيضا أوزارنا - دون أن نناقش ذلك الفرض الذى فرضه مأثور، هو الذى فرز لمرحله تاريخية طال أمدها، ودون أن نناقش مدى صدق الفرض ومدى اتساقه مع إنسانيتنا وما ندعيه من رقى بشرى، ونظل نطلب المرأة النموذج، التى تظهر الخجل عندما تحادث الرجل، التى تكبت ميولها الطبيعية ولا تتذكر سوى كونها عورة، التى تعرف عن يقين أنها حرم.. حرم فلان.. فهى حرام، بل الحرام ذاته، حرمة، مقدس لا يجوز لمسه، وهى أيضا وفى ذات الوقت منجسة لأن طبيعتها النجس، والفعل الجنسى، معها يؤدى للنجس، لابد أن يغتسل جسد الرجل جميعا لرفع أى أثر لتلك الملامسة والممارسة، كذلك دم الحيض يغطيها بالنجس، لذلك ترفع عنها أثناء ذلك كل التكاليف، لا تصلى، لا تصوم، كذلك طوال فترة النفاس وهو الأمر الذى له أصوله فى الأسطورة وفى القديم الذى أسس لمعنى الحرام والحريم، وهو ما ينقلنا عن تلك الصورة التى قعّدها لها المأثور، إلى محاولة قراءة نماذج سريعة لواقع المجتمع منذ ما قبل التاريخ، وهو يتحول بالمرأة من مركز السيادة إلى الحضيض، طبقيا وجنسيا وإنسانيا.

إمرأة : الأصل أسطورى

إمرأة، حواء، أنثى، أسماء ثلاثة مؤسسة أولى لذلك الكائن الذى كلما حاول التملص كلما

قيل أنه لغز. وسعيا وراء أصول التسميات تحكى لنا التوراة أن الله خلق آدم الذكر، ووضعه فى الجنة حيث عاش وحيدا لا يجد أنيسا يؤنس وحشته، وهنا قرر الرب أن يؤنسه بكائن يسليه، وكان هذا الأنيس هو المرأة، وذلك فى نص يقول فيه آدم عن المرأة المصنوعة من ضلعه: «هذه الآن عظم من عظامى، ولحم من لحمى، هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت/ تكوين ٢/٢٣».

وهكذا فالنص يجعل امرأة تأنيث إمرء وليس العكس، ليظل الرجل أولا، فهى تابعه له فى الخلق، وتابعة فى المسمى، لكن بالتوراة نفسها نص آخر يعين تسميتها لشأن آخر فلأنها مصدر الحياة وفاتحة المواليد، يقول النص: «دعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حى/ تكوين ٢/٣». وكلا التسميتين (امرأة) من ضلع امرء، و(حواء) أم كل حى، وفى الأصل العبرى (تلك التى تحيبى) يشكلان فى يد الباحث مفاتيح تضىء له ذلك القديم، ليكتشف أصل وضع المرأة فى المجتمع.

عند قراءة الأسطورة بحثا عن الاسم (امرأة) لن نجد أبدا أنها كانت تابعة ل (امرء)، بل العكس تماما، فالميم للأمومة ولا تجد فى الإلهات الكبرى القديمة اسما يخلو من ميم الأمومة، فأصل الكون البابلى (مى)، والأم الإلهة الكبرى بالأسماء الثلاثة المتواترة حتى الآن (ما) (أماه) (ماما)، وكل إلهات الخصب فى حوض المتوسط يحملن الاسم (ميرها، ميريا، ميريام، مريم، ستلاماريا)، والميرة هى الزاد، هى مانحة الطعام والحياة، وهو ما يلقى الضوء عليها كمكتشفة أولى للزراعة، وميرها هى شجرة المر المقدس أيضا التى أنجبت الآلهة الذكور الأبناء.

أما الكلمتان: أنثى وحواء، فتضيؤهما لنا قصص الخلق الأولى فى الملاحم السومرية والبابلية، حيث تحكى عن مكان خاص كانت تعيش فيه الآلهة الخالدة يدعى (دلمون) (البحرين الحالية)، وهو ما يناظر (أولمب اليونان). وهناك جاء إلى الوجود إله باسم (جى) ممثلا لبداية البشرية على الأرض، رعيلا أول يجمع اللاهوت مع الناسوت، أو الألوهية مع الإنسانية. واسمه ملصق من مقطعين يشيران إلى كونه أول سكان الأرض فهو من (آن - سيد أورب) و(جى - الأرض) وتحكى الأسطورة أن الأم الإلهة الكبرى (مما ممهور ساج) أو (ننهور ساج) هى التى ولدته، وأنها حرمت عليه ثمارا بعينها فى دلمون حرصا على حياته، فعصاها بجهله وحبه المعرفى وأكل منها، فأصيب بمرض شديد فى واحد من أضلاعه كاد يقضى عليه.

وهنا أسرعت الأم الإلهة فخلقت له إلهة أنثى مهمتها تمريض ذلك الضلع وعلاج الإنسان الأول (آنجى)، وكان اسمها (آنتى)، والإسم (آن تى) من ملصقين (آن = سيدة أو ربة)+ (تى)، و (تى) عندما تكون اسما تعنى الضلع فيكون المعنى سيدة الضلع، لكن تى عندما تكون فعلا تعنى تحيى أى تلك السيدة التى تحيى أى هى أحيت آنجى بعدما أشرف على الموت، وهو ما يلقى الضوء على معنى كلمة حواء فى التوراة العبرية (تلك التى تحيى) والعربية (أم كل حى)، كما يلقى الضوء على أصل الأسطورة التى حورت أو فهمت خطأ فيما نقله المأثور التوراتى عن الرافدى، لتكون حواء أو (إنتى) مخلوقة من ضلع آدم، كما تبهرنا دراسة تلك الأصول عندما نعلم ببساطة أن (آن تى) هو أصل كلمة انثى هى (نتايه) ببساطة، والأنثى والنتاية فى الجذر تشترك أيضا مع النتوء والظهور.

الإله من أنثى إلى ذكر

والدارس للأساطير سيجد من الشواهد القرائن الأركيولوجية ما يدعم الفرض: أن الأنثى كانت مركزا لمجتمع أمومى ابتدائى، وأنها كانت فى مركز يتناسب مع مجتمع كانت آلهته إناث، ومنطقيا لا يمكن أن نجد مجتمعا كل آلهته إناث ويسوده على الأرض ذكور ومن ثم تكون النتيجة أن الأنثى كانت سيدة ذلك المجتمع.

ويبدو لنا أن السبب فى ذلك حسب قوانين الحراك التاريخى، هو امتلاكها أساسا اقتصاديا، دعم تلك السيادة. وهو ما نلمحه فى تصور لشكل ذلك المجتمع الابتدائى، حيث كان المجتمع صياداً، يخرج فيه الذكور للصيد والقنص، بينما كانت رعاية الصغار تستدعى استقرار المرأة بجوارهم، فكانت هى بداية الاستقرار فى المكان، الذى أدى بعد ذلك إلى نشوء المشتركات المستقرة ثم القروية فالمدنية.

وكان استقرارها هذا دافعا لها لاكتشاف الزراعة، وهى تلحظ سقوط الثمار على الأرض، ثم عودتها للإنبات فكان أن حاولت تقليد الطبيعة، فاستنبتت الثمار، فأسست لنفسها بذلك الكشف أول أساس اقتصادى متين لسيادتها. وهو الأمر الذى كان لابد أن يضيف لانبهار الرجل بقدرتها على الولادة ابهارا آخر بأنها تمكنت من جعل الأرض تلد بدورها، مما أضاف لقدراتها السحرية (اقتصادية أصلا) رصيدا آخر، وربما كانت أيضا هى مكتشفة الفخار، بالنظر إلى شكل الأوعية التى عثر عليها بجوار الإلهات الإناث القديمة وهى ما كانت تمثل دوما ثديا أو

فرجا أو فخذا إذا استطالت، كما كانت مكتشفة الخمر، بتخمر الطعام الزائد فى أوانيها، وهو ما فاجأ الذكور عند العودة من القنص بمزيد من السحر، يضفونة على المرأة السيدة الإلهة بعد ما دارت الرءوس بسحرها الجديد.

وهى أيضا مكتشفة النسيج، بما توفر لها من وقت واستقرار للملاحظة والكشف والتجربة والخطأ والمحاولة، حتى النجاح الذى أضاف لأساسها الآنتاجى مزيدا ورصيدا. لكنها وهى بسبيل تأسيس الاستقرار الأول الذى أسس للمدينة فيما بعد، كانت تضع ثمار خسارتها لأساسها الانتاجى وفقدها لمقوم سيادتها الاقتصادى، عندما احتاجت الزراعة إلى حيوانات أقوى تحتاج فى ترويضها وتدجينها إلى عضلات أقوى وتفرغ أوسع، بعد أن استقر الرجال إلى جوار زرع المرأة وغراسها، ومن ثم تم سحب البساط من تحتها لصالح الذكور. ويلاحظ الباحث أنه مع ذلك الاستقرار المدينى وبدء استخدام الحيوانات القوية فى الحرث، يبدأ ظهور الآلهة الذكور بوضوح فى منظومة السماء، وهو أمر فيه تفاصيل كثيرة نحيل فيه الحضور إلى كتبنا للمزيد، ونكتفى بتلك الإشارات السريعة لضيق الوقت المتاح، فقط نلمح ونؤكد على الأساس الإنتاجى لسيادة المرأة الذى فقدته، فساد الذكر، وتحولت ربه السماء من أنثى إلى ذكر، فأصبحت الشمس ذكرا بعد أن كانت أنثى، كذلك عشتار نجمة الجمال الزهرة، تحولت مع السيطرة الذكورية إلى الإله الذكر عستر فى خطوط المسند والخط النبطى.

أما تصورات ذلك المجتمع لبداية الخلق فكانت بسيطة بساطة المجتمع الأمومى الأول، الحدث سهل، كان على الربة الكبرى أن تلد الكائنات، والتى تم تمثيلها فى الأم الأرض ممتزجة بالأنثى السيدة على المجتمع آنذاك.

ولما كان الرجل قد لاحظ اختفاء دم الحيض مع بدء الحمل، فقد تصور أن ذلك الدم هو الذى يقوم بتكوين الجنين فى الداخل ليعطى بعد ذلك تلك الظاهرة المدهشة المذهلة ظاهرة إعطاء الحياة والمواليد، لكن بعد السيطرة الذكورية وتحول الإله إلى ذكر، كان لابد أن يتحول فعل الخلق من الأنثى للرجل، ولكن لأن فكرة خلق الولادة من دم الحيض المختفى فى بطن الأنثى قد ترسخت تماما، قامت أسطورة الخلق الذكرية على ذات الأساس، فقام الآلهة الذكور بذبح إله صغير مخنث لا هو ذكر ولا هو أنثى ليستخدموا دمه بعجن طين الأرض ليصنعوا منه الإنسان الأول. ومن ثم تحولت القصة عن فعل الولادة إلى فعل الخلق، وهو ما يترافق مع مزيد التفرغ الذى أحدثه الاستقرار والوفرة للبشر على الأرض لمزيد من الكشف والابتكار أو الخلق.

لكن فى نفس الآن كان لابد أن يتم تبخيس الأنثى كرد فعل نفسى إزاء سيادتها القديمة وسحرها الدائم، فتحول الدم الحيضى فى المأثور إلى نجس، لكن يبقى المأثور فى اللاشعور الجمعى مستيقظا، فحين تحيض المرأة ترفع عنها التكاليف فلا تصوم للإله الذكر، ولا تصلى للإله الذكر، لأنها فى هذه الأيام الخمس تستعيد وضعها القديم، إنها لا تعبد أحداً حينئذ، لأنها فى هذه الأيام الخمس حين يتغيب القمر الإله الذكرى عن الحضور، والذى يوافق ايقاعه الحيض، يظهر حيضها وتحضر قدسيتها، لتصبح فى هذه الأيام الخمس إلهة، وتتقدس الخمسة لتصبح مانعة السحر والحسد كما كانت فى القديم، أما يوم الخميس فيصبح فى المأثور اليوم المفضل لجماع المرأة، أما الخمسة فهى دلالة واضحة على الفرج.

وللتذكرة فقط، ظل دم الحيض حتى عهد الجاهلية الأخير فى جزيرة العرب مقدسا. فقد كانت نسوة العرب ومكة يطفن بالكعبة، ثم يمسسن بدم حيضهن الحجر الأسود، تواصلا مع ذكر السماء، وهو ما عبرت عنه كتبنا التراثية كأبلغ ما يكون، وهى تلخص قصة تحول المرأة وتبخيس الدم الخالق، بقولها: إن الحجر الأسود كان أبيضاً، فأسود من مس الحيض فى الجاهلية.

أما الكلمة حواء فتقترن بعد ذلك فى الجذر مع الحية التى تحمل الكيد والدس والخديعة، وتقترن حواء بالحية، والإبليس، الذين اشتركوا معا فى خديعة آدم، ذلك الآدم الذى خدع الجميع وخدع التاريخ، لأنه حقيقة إنما كان ضحية شهوانيته وعدم براءته ومرضه السيادى، لأن خضوعه الداخلى الذى كان يرفضه باستمرار فيبخس المرأة، كان خضوعا لحواء الحياة الحية أم كل حى، ذلك المشترك الذى يضم فى الجذر كلمة «الحيا» أى الفرج الأنثوى سر الحياة ومصدر الميلاد، وأزمة عدم البراءة فى الرجال.



سر الأسماء المقدسة

فى كتاب المواجهة الصادر ضمن سلسلة كتاب الأهالى، كتب الأستاذ خليل عبدالكريم (ص ١٤٧) يقول: (الحواريون أو الرسل أو التلاميذ الذين كانوا مع المسيح عليه السلام كانوا ثلاثة عشر، وعدة أهل بدر الكبرى من المسلمين كانوا ثلاثة عشر وثلاثمائة، فهل هناك صلة من نوع خاص بين الديانتين الساميتين، وبين الرقم ١٣؟ وهل لهذا الرقم مكان ملحوظ فى الميثولوجيا السامية القديمة؟

وعندما يطرح مفكر فى قيمة الأستاذ خليل عبدالكريم سؤالاً، فإن الحصافة تستدعى الاستجابة الفورية للرجل الذى أثرى مكتبتنا العربية بقراءاته المستنيرة فى منتوج الفكر الإسلامى، وإعمالاً لذلك قمت بكتابة هذه العجالة السريعة، مع وعد بتقديم دراسة مطولة حول الأرقام والأشياء والظواهر المقدسة فى ديانات حوض المتوسط الشرقى، فى المستقبل القريب.

مقدسات البيئة

ورغم اشتراك معظم ديانات شعوب العالم فى معالم أساسية مقدسة، فإن هناك اختلافات جذرية فى كثير من التفاصيل بين تلك الديانات، كنتيجة محتمة لاختلاف الظروف البيئية باعتبار الإنسان ابن بيئته، وأن الدين يتفاعل مع ظروف البيئة والمجتمع، كذلك يسهم اختلاف المكان والزمان والتشكيلات الاجتماعية والأنماط الاقتصادية والمرحلة التطورية التى وصلها المجتمع، وكم التراكم المعرفى لديه وكيف يسهم جميعه فى طبع الدين بسمات تختلف أو تقارب من ديانات الشعوب الأخرى.

وملاحظة الأستاذ خليل حول تشابه ديانات شرقى المتوسط السامية أمر صحيح تماماً، من حيث كون تلك الديانات قد ظهرت فى مجتمعات تتشابه فى ظروفها الاجتماعية والبيئية مع

(*) نشر فى صحيفة العربى، الاثنين ١٩٩٥/٨/٢٨.

التجاور المكانى، وإن اختلفت زمانياً فدخل على المتأخر منها بعض التطوير والتجريد الذى لم يحظ به السابق.

ولعل أكثر أوجه التشابه تكمن بين الديانتين الساميتين: اليهودية والإسلام، لتشابه الظرف المجتمعى والبيئى، فكلا المجتمعين قد نشأ فى بيئة صحراوية جبلية، وكلاهما كان مجتمعاً قبلياً تسوده أعراف القبيلة ونظمها ومرحلتها فى التطور التاريخى، ومن ثم تجد ألواناً من التقديس لأرقام بعينها، ولأشياء أخرى عينية هى من أهم معالم البيئة الصحراوية، فكلتا الديانتين ديانة قمرية: الشهور قمرية، مواعيد التضحية قمرية، الاحتفاليات الكرنفالية الكبرى قمرية، الصيام قمرى، (والقمر يعلو المآذن الإسلامية)، والمطالع للتوراة سيكتشف أن القمر فى أحيان كثيرة كان يعد أحد تمثلات الإله ذاته.

كذلك قدس البدو الصخور النادرة والأحجار والجبال، فاليهود يقدسون جبل (حوريب - كاترين) بسيناء ويطلقون عليه اسم (جبل الله)، وعرب الجاهلية والإسلام يقدسون جبل عرفات، وكان اليهود يقدسون كل مرتفع من الأرض، يقدمون عنده قرابينهم وأضحياتهم، ويمارسون عليه طقوس الجنس المقدس، وعرب الجزيرة كانوا أيضاً يذبحون عند عرفات ويقدسون الصفا والمروة.

كما كان تقديس الأحجار فى البيئة الصحراوية أمراً واضحاً فى ديانات الصحراء، خاصة إذا كان الحجر من النوع النادر، ومن ثم قدس العريان منذ القديم الأحجار النيزكية المنصهرة القادمة من الفضاء، باعتبارها قادمة من حيث عرش الإله، ونتيجة انصهارها اكتست بلون أسود لامع زاد فى روعتها وجلالها، ومن ثم قاموا يضعونها فى أفنية البيوت المقدسة والمعابد، وللسبب ذاته قدس اليهود النيزك الكبير الموجود بالقدس، والموجود الآن تحت مايعرف باسم قبة الصخرة، وأحاطته القدسية الإسلامية بعد حديث الإسراء والمعراج، كذلك قدس عرب الجاهلية حجراً أسود وضعوه بالكعبة، ورغم ماجاء به الإسلام من تطور، فإنه جعل للحجر الأسود مكانة قدسية.

الرقـــــم (٧)

ويلحظ الباحثون أن رقم (٧) قد أحيط بهالة كبرى من التقديس فى الديانات السامية

الكبرى، فقصة الخلق التوراتية تقول: إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح من عناد عمله فى اليوم السابع، لذلك تقدس اليوم السابع الذى اعتبروه يوم السبت، من (شباث) أو الثبات والسكون، لذلك لايعمل اليهودى يوم السبت ويقلل من حركته ما أمكن، واعتقد اليهود بأن المحافظة على قدسية اليوم السابع مجلبة لرضا الإله ولحسن الحظ، وأن انتهاكه نذير شؤم ودمار، ثم انصرف ذلك التقديس إلى مواضيع شتى يشغل فيها الرقم (٧) مكاناً بارزاً فتحدثوا عن أعمار الإنسان السبعة، وما للقطط من سبعة أرواح.. إلخ، ثم جاءت المسيحية لتستمر فى تقديس ذات الرقم، وتحدثنا عن الخطايا السبع المميتة، وسيوف الحزن السبعة فى قلب العذراء، وأبطال المسيحية السبعة، مع تقديس اليوم السابع الذى أصبح يوم الأحد، وكلها لدى المؤمن المسيحى أمور واضحة ومعقولة لمجرد أنها سبعة وكفى بذلك سبيلاً.

أما القرآن الكريم، فقد قال بقصة الخلق ذاتها، لكن الإسلام خالف كلا المعتقدين فى يوم الراحة المقدس، وكرس له يوم الجمعة الذى كان يعرف باسم يوم العروبة، ثم أفسح مجالاً فسيحاً للرقم (٧) وهو مانجد نماذج له فى الآيات الكريمة:

- ﴿ثم استوى إلى السماء، فسواهن سبع سماوات﴾ (٢٩/ البقرة).
- ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ (٢٦١/ البقرة).
- ﴿وقال الملك: إنى أرى سبع بقرات﴾ (٤٣/ يوسف).
- ﴿سبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ (٤٣/ يوسف).
- ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ (١٧/ المؤمنون).
- ﴿الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾ (١٢/ الطلاق).
- ﴿سخرها عليهم سبع ليال﴾ (٧/ الحاقة).
- ﴿ولقد أتيناك سبعاً من المثانى﴾ (٨٧/ الحجر).
- ﴿لها سبعة أبواب لك باب منهم جزء مقسوم﴾ (٤٤/ الحجر).
- ﴿والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾ (٢٧/ لقمان).

ومع الميل للمبالغة يصل التقديس من السبعة إلى السبعين، كما فى عدد السبعين إسرائيلياً

الذين اختارهم موسى لمقابلة الإله (يهوه) فى جبل سيناء، كذلك السبعون تابعاً للمسيح، وهو مايجد صداه فى الآيات الكريمة من قبيل:

- ﴿فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً﴾ (٣٢/ الحاقة).
- ﴿فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ (١٥٥/ الأعراف).
- ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ (٨٠/ التوبة).

أما الحسنات السبعين فمتكررات فى كثير من الأحاديث النبوية الشريفة.

أصـل الأسـبوع

من غير المعلوم يقيناً السر فى تقديس الرقم (٧) وقد وضع بسبيل ذلك عدة احتمالات، منها أنه عدد تام لايقبل القسمة إلا على نفسه، وقيل إن الجذر (سبع) لغة يعنى الكفاية والتمام والامتلاء، وهو بالعبرية (شبع) أى امتلأ، ثم هو يعنى القسم المغلظ، كما فى حادثة بئر سبع التى أقسم عندها إبراهيم وأهل فلسطين، وتسمى لذلك بئر القسم، كما تعنى أيضاً رقم (٧) لأنهم ذبحوا عندها سبع نعاج، أما السبع - الأسد - فهو ملك الحيوانات وأكملها وأجلها شأناً. ولما كانت الباء تتبادل مع الفاء فى اللغات السامية، باعتبار أن كلتيهما من الحروف الشفاتية، فقد تحولت سبع وشبع لتصبح شفع، علامة على الأرباب الشفعاء فى الجاهلية، أما الإسلام فقد ألغى جميع الشفاعات وأبقى على شفاعة واحدة للمصطفى - صلى الله عليه وسلم.

لكن بعد التأمل والتدقيق، يمكن أن يطلعنا على السر وراء كل ما أسبغ على الرقم سبعة من من هالات قدسية، لنكتشف أنه ليس لخاصية فيه، بقدر ما كان ناتجاً عن تقديس الساميين القدماء، وبخاصة أهل الرافدين للكواكب السيارة الخمسة مع النيرين الكبيرين الشمس والقمر وعددهم سبعة.

وكان للقمر بالذات فى البداوة وليل الصحراء مكانه المتميز، لذلك كان ألصق بخيال البدوى من الشمس المحرقة خاصة فى ليل الصحراء، مع السحر القمرى المبهر المتمثل فى تحولاته مابين هلال وتربيع وبدر ومحاق.

وقد لاحظ الساميون القدماء أن تحولات القمر تنقسم إلى قسمين متساويين، من ولادته

إلى تمامه بدراً أربعة عشر يوماً، ومن ظهوره بدراً إلى محاقه أربعة عشر يوماً، والأربعة عشر يوماً ينقسم إلى قسمين متساويين ٧ + ٧، ومن هنا وصلوا إلى تقسيم الزمان بمعرفة معنى الأسبوع، الذى هو ربع الشهر قمرى، وقد قرن البابليون المتفوقون فى دراسة الأفلاك تلك النتيجة بالسيارات الخمس المعروفة آنذاك: المشترى (الإله مردوخ) والزهرة (الإلهة عشتار)، وزحل (الإله نيناب) وعطارد (الإله نابو) والمريخ (الإله نرجال) مع الشمس (الإله شماس) والقمر (الإله سين) (وعددهم جميعاً سبعة آلهة)، لينتهوا إلى وضع الزمن فى أسابيع على عدد الآلهة السماوية السبعة، وكانت أعظم الآلهة فى المعتقدات الرافدية، وغنى عن الذكر أن هياكل بلاد الرافدين كانت هياكل لعبادة تلك الأجرام كما كانت فى الوقت نفسه مراصد فلكية ومحلاً لدراسة الأفلاك ومتابعتها.

ولعل القارىء سيلحظ معنا أن السنة تتكون من (٥٢) أسبوعاً، ولو جمعنا طرفى الرقم ٢ + ٥ سيعطينا النتيجة (٧).

والخلاصة من كل ذلك أن تقديس الرقم (٧) يعود أصلاً إلى تقديس الآلهة الكوكبية السبعة العظمى المعروفة بالآلهة مقررة المصائر، وقد تمت عبادة كل إله من تلك الآلهة فى يوم سمى باسمه، وقد ترك ذلك التقديس القديم أثره فى أسماء تلك الأيام حتى اليوم فى أسماء الأيام الأفرنجية، التى تعود إلى أصول سكسونية قديمة، فيوم الأحد كان يوم عبادة الشمس، وكان فى السكسونية sund's day الذى جاء منه اسم يوم الأحد Sunday ويوم الاثنين المكرس لعبادة الإله القمر اسمه اسمه Monday وقد أخذ من الأصل السكسونى Moond's day أما الثلاثاء الذى كان مكرساً لعبادة إله الحرب، وهو عند السكسون الإله Tiwes فقد جاء منه اسم يوم الثلاثاء Tiwesday كذلك شأن الأربعاء الذى كرس لعبادة الإله ودن Woden ومنه جاء اسم يوم ا لأربعاء Wednes day، ثم الخميس يوم إله الرعد الصاعقة Ther ومنه جاء اسم الخميس Thurs day، أما الجمعة المنسوب للإله Friga فاشتق منه الاسم Fri day، لينتهى التقسيم بيوم عبادة الإله زحل Satern الذى اشتق من اسمه اسم يوم السبت Satur day.

الـــــــرقم ١٢

وهكذا كانت عبادة الأجرام السماوية هى الأصل والمنشأ لمقدسات ظلت تفرض وجودها

فى تاريخ الإنسانية حتى اليوم، وهو الأمر الذى قصدنا بيانه من خلال التوضيح العاجل السالف، لنصل إلى عدد تلامذة المسيح وحوارييه، إلى العدد (١٢)، وهو ما جاء فى سؤال الأستاذ خليل بخطأ من قبيل السهو فقال: إن عددهم ثلاثة عشر.

والرقم (١٢) أحيلت إليه أعداد مقدسة الأشخاص مقدسين، فتلامذة المسيح من غير اليقينى أبداً أنهم كانوا اثنى عشر حوارياً، لكن كتاب الأناجيل ضبطوا عدد التلاميذ مع العدد المقدس، وكذلك فعلت التوراة عندما جعلت أبناء يعقوب ـ إسرائيل المعروفين بالأسباط اثنى عشر ولداً هم بنو إسرائيل، وفى الجلجال بفلسطين كان يقوم اثنا عشر عموداً مقدساً من سالف الأزمان، كذلك كانت مجالس الأمفكتيون المشرفة على المعابد اليونانية تتكون من اثنى عشر عضواً، كذلك كان عدد أعضاء مجلس معبد دلفى المشهور فى اليونان، أما يسوع المسيح فقد أظهر تفوقه العقلى وهو يناهز الثانية عشرة، عندما كان يواجه كهنة الهيكل ويفحمهم (انظر مثلاً إنجيل لوقا ٢/٤٧).

وكما كانت قدسية الرقم سبعة قد فرضت نفسها حتى أصبحت أشواط الحج سبعة، ليدور المؤمنون حول المركز المقدس، كما تدور الكواكب السيارة حول مركزها الإله الكبير الشمس، فقد جاء كذلك تقديس الرقم (١٢) من ذات المصدر القديم، فالمنازل السماوية للكواكب الإلهية المعروفة بالبروج عددها اثنا عشر برجاً، فالعدد (١٢) هو رسم البروج، أى عدد علامات الزودياك، وكما كانت الآلهة السبعة تسكن البروج الاثنى عشر الفلكية البابلية القديمة، فقد تم إسكان أسابيع الزمن فى اثنى عشر شهراً وهى عدة شهور السنة عند الله.

المحتويات


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عربية للطباعة والنشر
١٠٤٧ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨



رب الزمان

* هو الكتاب الثامن لمؤلفه ضمن سلسلة من الأعمال المنشورة التى تشكل مشروعاً ، منه ماتم نشره ومنه ما هو قيد البحث .
* يجمع الكتاب أقساما ثلاثة : الأول فى التعامل مع الأطروحات الصهيونيه تحت عنوان (إسرائيليات) . . والثانى معارك فكرية اضطر المؤلف إلى خوضها ، أما الثالث فهو دراسات لم تنشر من قبل ، كتبها المؤلف على سرير المرض فى مستشفى القلب .

تعبر تلك المجموعه من المقالات والدراسات عن موقف المؤلف الواضح من الأيديولوجيا عموماً ، ومن أيديولوجيا العنف الصهيونى بوجه خاص .

* كما تعبر عن مراحل تطوريه مر بها فكر مؤلفنا من البداية ، فهى تجمع أرشيفاً حقيقياً لخط ذلك التطور ، من باب التوثيق المطلوب لفكرة ومحاور ذلك الفكر ومفاصله .

مدبولى الصغير

مكتبة مدبولى الصغير

٤٥ ش البطل أحمد عبد العزيز ت : ٣٤٧٧٤١٠
ميدان سفنكس خلف سينما سفنكس ت : ٣٤٦٢٥٢٥

